ساعدت جامعة بغداد على نشره

حركات العود

الدكتور

حاتم الكعبي

استاذ علم الاجتماع بجامعة بغداد

الطبعة الاولى

مطبعة الديوانية الحديثة - الديوانية

١٩٧١

ساعدت جامعة بغداد على نشره

Kabi
Harakat al-mawdah

حركات العود

الدكتور

حاتم الكعبي

استاذ علم الاجتماع بجامعة بغداد

الطبعة الاولى

١٩٧١

مطبعة الديوانية الحديثة ـ تلفون ٢٦١١

Lehman
GT
525
.K33

الاهـــداء

أولاً - الى ابنتي « نسرين » التي تمثل جمهرة كبيرة من جيلها الصاعد في نزوعها الى تبني آخر طراز من (مودة) الأزياء فتواجه من جراء ذلك عنت التزمت والمحافظة في عائلة تتسم بالانصياع للمجتمع التقليدي ومستلزماته في هذا الباب بالرغم من ثقافة اعضائها ثقافة عالية ، لقد عانت اغلب العوائل العراقية التي تشابه عائلتي بعض الشبه شيئاً من هذه المشكلة في امس القريب يوم شاعت مودة الفستان القصير (المنيجوب) حيث عرضت هذه العوائل الى ازمات ملعونة والى اصطراع عنيف بين رغبات واحكام اعضائها في هذا الصدد مما نغص عليهم علاقاتهم العائلية في كثير من الاحيان . وأنا على يقين أن كثيراً من هذه العوائل قامت ولا تزال تقوم في قتل أو مقاومة نزوع الاطفال في ميادين مختلفة من حياتهم بما يفسد على الطفولة حريتها وينغص عليها حياتها ويعرضها الى أزمات ومشكلات نفسية عنيفة ويحول دون انطلاقها في رحاب الحياة البريئة الساذجة ، الخلاقة المبدعة أحياناً ، والتي من شأنها ان تجعل هذه الطفولة تنعم بالسعادة وتستمتع بشخصية سوية ، نابضة بالحيوية ، ويسيء

الى توجيهها التوجيه السليم ويحطم شخصيات ابنائنا في عهد مبكر من حياتهم ، في عصر بلغ الاحتكاك الحضاري والاجتماعي فيه حداً لا عهد لآبائنا به من قبل حيث عرضنا ، من جراء ذلك ، الى زلزلة التعاريف الاجتماعية التقليدية التي ورثناها عن آبائنا وأجدادنا للوضعيات الاجتماعية المختلفة التي درجنا عليها والتي نواجهها ، فاذا نحن نعاني تضارباً واصطراعاً حضارياً لا يدانيه أبداً ما عرض له هذا البلد حتى في العصر العباسي الاول ، واذا نحن نواجه منظومات من القيم متباينة ونأخذ بمعايير سلوكية مختلفة متضاربة ، وتستبد بنا وجهات نظر لا تعد ولا تحصى. ان من شأن هذا كله ان يؤزم الوضع الاجتماعي والحضاري من حوالينا ، وان يجعلنا ضحايا بلبلة ملعونة في احكامنا القيمية على الشخصية وعلى السلوك بحيث تلتبس على الكثيرين منا سبل التوفيق والرشاد في كثير من مضامير الحياة .

ان من وجوه النزوع ان يبتغي الانسان تكوين فكرة عن نفسه يرضاها هو اويطمح فيها ، والطفل يشعر بشيء من تحقيق هذا المبتغى كلما تزيا بزي جديد . فما هو شعور هذا الطفل ، اذن ، فيما اذا كان هذا الزي مدار حركة اجتماعية عارمة ؟!! وماذا يجب ان يكون دورنا الابوي الرشيد وموقفنا النافع البناء في وضعيات من هذا القبيل ؟!(١)

---

(١) حدثني زميل كريم ،ولد سنة ١٩٠٤ ،ونشأ وترعرع في بغداد في اواخر العهد العثماني ، وهو موظف كبير متقاعد من موظفي وزارة الخارجية ، انه استشعر نزوعاً قوياً للغناء منذ كان عمره قرابة اربع سنوات نتيجة تعرضه لمحيط اجتماعي يكاد يطغى عليه الغناء اذ كان يحضر -

ثانياً ـ الى كل من يجهز على عتيق بال أو يبتكر ابتكاراً نافعاً بناءاً يسمو بالذوق ويجدد الحيـــاة وينعش الروح ويدفع بالبشرية في رحاب التقدم والخير والبهجة والانطلاق .

ثالثاً ـ الى طلاب علم الاجتماع كافة والى طلابي في مرحلة (الماجستير) منه خاصة إذ يهمهم هذا البحث من حيث هو بحث في ميدان من ميادين (السلوك الجمعي) الذي يدركون مكانته من علم الاجتماع .

ـ الحفلات الغنائية والاعراس التى كانت تقام في المحلة ، وكانت عائلته ذات يسار فكانت تقيم المناسبات الاجتماعية التى يهيمن عليها الغناء حيث كان يحضرها ويبرز فيها المرحوم والد السيد « محمد الكبنجي » ومشاهير قراء (المقام) في ذلك العهد ـ على حد قول الزميل الكريم ـ فيلمس تأثر الناس بالغناء واستجابتهم له واعجابهم به . وكان مما دعم نزوعه هذا تعرضه الى اطفال من امثاله كانوا معجبين بالغناء أيضا أو يزاولونه أحياناً.

قال هذا الزميل الكريم ، الذي يعتبر اليوم حجة في موضوع (المقام) في العراق ، في معرض حديث شخصي جرى بينه وبيني على سبيل الصدفة، « أن مما دفعه على الولع بالغناء ومزاولته يومذاك أن اكتشف أن الله قد حباه بصوت رخيم ». ثم عقب على هذه العبارة قائلاً : « إن اعتقاد المرء برخامة صوته وباجادته للغناء أمران اساسيان في دفع المرء على الغناء وفي ممارسته له والالمعية فيه ، فاذا انعدم هذا الاعتقاد ، وكانت الثقة بجمال الصوت ضعيفة لا يتيسر لها النمو الكافي فان كل الجهود الاخرى تذهب عبثاً في خلق مغن مبدع مجيد من هذا النوع من الانسان » . ثم استرسل محدثي اللامع قائلاً : «وهكذا بدأت ازاول الغناء واستمتع به وباجادته واستشعر غبطة روحية أخاذة من جراء سماعي لنفسي وانا أغني فأجيد ـ

رابعاً ـ الى المرأة العراقية (الجديدة) بوجه عام ـ هذه المرأة التي جعلت الملابس والازياء وما يتعلق بها من قريب او بعيد أهم شاغل لها في حياتها بحيث اصبحت تقوم احياناً بسفرات طويلة مكلفة من اجل حيازة هذه الازياء والحصول على احدث الموديلات فيها ، فلعلها تدرك بعض اسرار

ـ الغناء ، فيسحرني صوتي ويزيد من اعجابي به وثقتي به فأنزع الى مزيد من سماعه ، وهذا بدوره يدفعني الى مزيد من ممارسة الغناء ، وهكذا » . ثم اردف محدثي البارع البليغ الأمين في تصوير هذا الجانب من طفولته فقال : « وكان اعجابي بالغاً بـ (المقام) ، حيث كان هو الذي يزاوله ابرع وابرز المغنين وكان هو الذي يطغى على حفلات وملابسات الطبقات الرفيعة من المجتمع البغـدادي يومذاك » . ثم استرسل محدثي باسلوبه الممتع الجذاب في الحديث فقال : « ولقد كنت اجتمع بزملائي من هذا الصنف فنغني ، ونتبارى ، ويدور بيننا نقاش ونقد حـول الاداء ، وكنت القى الاستجابة المشجعة الحسنة من هؤلاء الزملاء مما كان يمكن في الثقة بالنفس ويدفعني بقوة في هذا الميدان من ميادين النشاط البشري . . . . فكثرت اجتماعاتي بهذه الحلقات من الزملاء ، وازدادت ممارستي للغنـاء ، واطرد الحاح اصدقائي علي بطلب الغناء كلما سنحت مناسبة . . . . . ولقد كشف ابي في هذا الميل وهذا النزوع وهذا الانهماك فعز عليه أن اندفع في هـذا الطريق الذي لم يكن المجتمع البغدادي يومذاك يقيمه تقييماً رفيعاً ، فحدثني في الأمر حديثاً أبوياً رقيقاً وبشكل غير مباشر حيث طرح علي رأيه القاضي بأن لي موهبة صوتية خارقة وان من الحكمة أن تستغل هذه القدرة في تعلم وممارسة التجويد . . . وهكذا احضر لي أبي من يعلمني التجويد . . . . . » هذا بصرف النظر عن مضامين هـذه

هذا النزوع ومضامينه الشخصية والاجتماعية فتسلك في اطاره على بينة من الامر وبشكل نافع ، سديد ، رشيد .

وأخيراً - الى القاريء العراقي العام الذي يدفعه النزوع الى المعرفة وحب الاستطلاع الى متابعة ما ينشر في علم الاجتماع ، والذي عوده بعض المتطفلين على علم الاجتماع أن يقرأ باسم هذا العلم ما ليس منه وما ليس من العلم كله في شيء . حيث زور بعضهم ، عن قصد أو عن غير قصد ، آراء اعلامه ومسخوها وافتروا عليهم وسطاً آخرون على نتاج هؤلاء الاعلام فحرفوه وشوهوه عن جهل في الاعم الاغلب ، وعن سوء نية وقصد في بعض الحالات ، ليطمسوا معالمه فتضيع بذلك على المطلعين من الناس دلائل السرقة والسطو ، وادعوه لانفسهم وهو خلق يتنزه عنه العلماء الصادقون . ولذا فسأحاول جهدي فيما بقى لي من حظ في الحياة ، وهو

- الوقائع ومعانيها في علم الاجتماع ، فان من يعلم بان تجويد القرآن الكريم يقوم على اساس من المقامات يدرك ولاشك المعنية هذا الاب الرشيد ، وبراعته في توجيه نزوع ولده الى نشاط مستحسن اجتماعياً ، وفي تنمية هذا النزوع باسلوب آخر من اساليب الغناء ، حتى لكأن هذا الاب المرحوم كان عالماً من علماء الشخصية مطلعاً اطلاعاً واسعاً على مايسمى بالتسامي او الاعلاء في علم النفس وعلم النفس الاجتماعي .

واذا كان هذا الطراز من الاب الحكيم الرشيد قد امكن وجوده في اواخر العهد العثماني ، فلماذا يرتكب بعض الحمقى من متعلمينا ومثقفينا اليوم ما لا يرتضيه العلم الحديث من افعال وتوجيهات في تربية أبنائهم من شأنها أن تحطم شخصيات هؤلاء الأبناء وتقتل فيهم امكانات ومواهب خلاقة نافعة فتفسد بذلك عليهم وعلى المجتمع كثيراً من وجوه الخير .

حظ لا احسد عليه ، كما يعلم الذين يعرفونني من قريب بسبب ما أعانيه من تدهور في حالتي الصحية ، أقول: سأحاول جهدي - خدمة لهذا القارىء - أن اصلح ما افسده هؤلاء « المزورون » في هذا الحقل الجليل ، الهام ، الممتع من حقول العلوم الاجتماعية ، وذلك بما سأنشره تباعاً من بحوث في وجوهه المختلفة ليستمتع بها هذا النوع من القارىء وليفيد منها طلاب الاختصاص . هذا وعسى أن لا يكون شأن محاولتي هذه شأن محاولة العطار في قول الشاعر : (ولا يصلح العطار ما أفسد الدهر).

تقديم

إن حركات المودة هي ضرب من الحركات الاجتماعية التي اصبحت تلعب دوراً خطيراً في وجوه متعددة من المجتمع الحديث : قيمه ، ومعايره وزعاماته والانماط السلوكية فيه ، وانتاجه الصناعي ، وعرفه ، وتقاليده وآدابه العامة - بل في كل تراثه الحضاري والاجتماعي على السواء ، وفي النقلة الاجتماعية فيه على اختلاف ضروبها وانواعها . ومن هنا كانت هذه الظاهرة ذات علاقة وثيقة بالبنية الاجتماعية للمجتمع ، وبظاهرة التغير الاجتماعي فيه ، وبنوع نظامه الطبقي ومدى مرونته الاجتماعية ، وبدرجة تقدمه الصناعي والآلي وتيسر وسائل وطرق النقل والاعلام فيه ، وبما ورث المجتمع من ميراث في ميادين الحياة كافة . ولذا وجدنا المعنيين الذين انبروا لدراسة هذه الظاهرة - اعني ظاهرة المودة - وتتبع ظروفها واسبابها وآثارها ومضامينها القريبة والبعيدة في حياة المجتمع واعضاءه والجماعات المختلفة التي يتكون منها كانوا من ميادين وحقول مختلفة منها : علم الاجتماع ، وعلم النفس ، وعلم الاقتصاد ، وعلم السياسة ، وعلم الانثروبولوجي ، ومن ميادين الأدب والفنون الجميلة والأخلاق والدين

والتاريخ وغيرها .

ان لحركات المودة أثراً بالغاً ، مباشراً او غير مباشر ، في الوجوه المختلفة من التنظيم الاجتماعي القائم وفي التراث الاجتماعي الراهن في المجتمع إذ هي مظاهر وأسباب تغير او نزوع الى التغـــير من شأنه ان يتحدى الاطار القائم للحياة والانماط الدارجة من السلوك والعلاقـات وضروب النشاط المختلفة التى يزاولهـا النـاس ، ومشاعرهم واذواقهم الدارجة التى الفوها ، بل وحتى عقائدهم المقدسة في بعض الاحيان ، حيث يجد الناس تلك العقائد ، بعد مدة قد تقصر وقد تطول ، نشازاً لا ينسجم مطلقاً مع ما حواليه بسبب ما انتهت اليه المودات المتواترة وآثارها الفعالة في تغيير نصاب الحياة .

لقـد حاولت في هذا البحث ان ألم بمختلف الجوانب المتعلقة بهذا الموضوع مما سيجده القارىء بين دفتى هذا الكتاب وعساني ان اكون قد وفقت في هذا الالمام .

ان مما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد هو ان الآراء والمودات قد اصبحت تلعب دوراً خطيراً في الحيـاة الاجتماعية الحديثة ، وعلى نطاق واسع . اننـا نشاهد في العصر الحديث طغيان موجات فكرية وانتشار دعايات مختلفة ، وشيوع مودات متعاقبة في حقول كثيرة من النشاط البشري وازدياد أهمية الرأي العـام وظهور مؤسسات اجتماعية جديدة واندثار مؤسسات اخرى ، وتسامي ونمو طبقات اجتماعية جديدة يقابلهما نزول وانحدار طبقات اخرى في السلم الاجتماعي ، وتعاقب مذاهب فكرية مختلفة تتميز بنفوذ جبار ثم يزول هذا النفوذ وتندحر تلك المذاهب لتفسح المجال لمذاهب اخرى ، وظهور طوائف دينية جديدة ، بل ظهور

أديان جديدة وعقائد ومؤسسات دينية جديدة ، وظهور زعماء وزعامات تتمتع بشهرة كبيرة ثم لا يدوم اكثرها غير فترة من الزمن قصيرة ثم تزول ، وطغيان القلق والاضطراب الاجتماعي بين اغلب الاوساط الحضرية ، وشيوع الاضرابات بين فئات من الناس ، وكثرة الثورات ، وتوالي الحروب وتبـــدل الاذواق العامة والعرف والتقاليد ، وشيوع ضروب الحركات الاجتماعية في الميادين المختلفة من الحياة .

ان ازدياد اهمية هـــذه الظواهر الاجتماعية (والمودة من أهمها) وطغيانها على الحياة الاجتماعية في العصر الحديث كان أثراً من آثار الثورة الصناعية واحتشاد الناس في المدن ، وتحسن وسائل النقل والمواصلات ، وتقلص المسافات في العـالم . ان ظاهرة اتساع المدن ، واحتشاد سكان متزايد فيها (١) وما يرافق هذا النوع من الحياة من شيوع التغـــير الاجتماعي السريع ومن انتشار ظواهر التحلل الاجتماعي بضروبها واصنافها المختلفة وما يستتبعه هـــذا النوع من الحياة من تزايد الناس الذين يعانون القلق الشخصي والاضطراب الاجتماعي (٢) من شأنها جميعاً ان تكون عوامل ، مباشرة وغـــير مباشرة ، لخلق مختلف ظواهر السلوك الجمعي ، ومنها المودة ، وحفز النـاس على الاشتراك فيهـا او الاسهام في تنميتها او انحلالها ، والانضواء فيها او عليها .

زد على ذلك ان الثورة الصناعية قد كانت عاملاً من اهم العوامل ، خلال القرون الثلاثة الماضية ، في نشر الدمقراطية في العالم . ان معنى

---

(1) See Kingsly Davis , «The Origin and Growth of Urbanization in the World , » A . J . S . , Vol . 1X , pp. 429 — 437 .

(2) Robert E . L . Faris , Social Disorganization ,p. 573.

هذا بلغة السلوك الجمعي بوجه عام وبلغة المودة بصورة خاصة هو تزايد اهميه الذوق العام ، والتقويم العام ، والرأي العام في الميادين السياسية والاقتصادية بصورة خاصة ، وتزايد اهمية (السلوك الكتلي) و (السلوك الجماهيرى) ، والظواهر الجمعية المختلفة الاخرى ، ومنهـــا المودة ، بصورة عامة .

كما ان من الآثار الدمقراطية للثورة الصناعية ، زوال كثير من الفوارق التى كانت تميز النـاس بعضهم عن بعض وتقيم بينهم حواجز كثيرة ، حيث كان من آثار ذلك ازدياد النقلة والحركة بأنواعها المختلفة وتنوع الوسائل الجديدة السريعة في النقل (نقل الافكـار والبضـائع والاشخاص)، واحتشاد الاعداد الهائلة من العمال - وهم فئة كبيرة من سكان الامم الصناعية في العصر الحديث - في المعامل بسبب ما يتطلبه نظام الانتاج الحديث الذي هو بدوره أثر من آثار الثورة الصناعيـة ، وتعميم التربية والتعليم بين الناس ، وتزايد الاحتكاك الحضاري والاجتماعي بين الناس بحيث انعدم أو كاد الانعزال الحضاري والاجتماعي والجغرافي بحيث اصبحت ظاهرة المودة وظواهر كثيرة اخرى من ظواهر السلوك الجمعي تنطلق في العالم على نطاق واسع ، وتنتشر بين شعوبه بين عشية وضحاها . وهكذا اصبح الجمود العقلي (**Mental immobility**) ، الذي كان يدعمه ويقويه الانعزال ونفوذ نظام القرابة في تلك المجتمعات المنعزلة وما يلازمها عادة من ظروف وممارسات تعمل على استمرار هذه الخصائص وادامتها ، أثراً بعد عين (٣) .

---

3 . H . Becker and H . E . Barnes , Social Thought from Lore to Science(Washington , D . C . ; Harren Press , 1955),pp . 10 - 112.

لقد لمس المفكرون أثر هذا الاحتكاك منذ القديم واشار الى دوره ومضامينه وآثاره مفكرو الصين والهند واليونان والرومان والعرب وغيرهم قديماً. وهذا هو ما حدا «فرانسس بيكون» لأن يؤكد على ضرورة الحيلولة دون وفود الاجانب على جزيرة (اطلانطس الجديدة The New Atlantis) وهي طوبائيته المثلى ، وذلك لأنـــه كان يدرك ان هؤلاء الاجانب الوافدين يفسدون حياة السكان ويسببون حدوث التغير الاجتماعي فيما بينهم (٤) .

ان من المعروف ان حكام (سبارطة) كانوا لا يبيحون لرعاياهم السفر خارج (سبارطة) ولا يفسحون المجال للاجانب الغرباء أن يزوروا (سبارطة) ، حفاظاً على تماسك المجتمع السبارطي ووحدته الحضارية والاجتماعيـة ، ذلك ان الاحتكاك الحضاري والاجتماعي يؤدي ولا شك الى التحلل الشخصي والاجتماعي في (مجتمع المقدس Sacred Society) المنعزل الذي يقدس فيه التراث الاجتماعي ويحيله عاجلاً أو آجلاً الى (مجتمع دنيوي Secular Society) متصل (٥) .

هذا ولما كان هذا البحث يدور حول مظهر من مظاهر التغير الاجتماعي وسبب فيه ، كان لابد لي من الاشارة في هذا الصدد الى أن كل التغيرات كانت تعزى قديماً الى نزوات الالهة ورغباتها ، والى هيمنة الحظ والقدر الذي لا غالب له ، او الى طبيعة الكون نفسه ، غير ان الانسان وجـد نفسه مؤخراً مسؤولاً عن مصيره وملزماً بضبط حياته والسيطرة عليها (٦) ،

---

(4) Harry W . Laidler , Social Economic Movements (London : Routledge and Kegan Paul , 1953), pp . 32 - 33 .

(5) Becker and Barnes , Op . Cit ., pp . 10 - 112 .

(6) Ibid . , p . 13 .

حيث اصبح التغير مناطاً به ، اذ هو سببه ، في الاعم الاغلب ، ان كان تغيراً اجتماعياً . ومن هنا انتلب الباحثون الى البحث عن سببية ظاهرة المودة ـ وغيرها من الظواهر الجمعية والاجتماعية ـ في اطرهم الحياتية ذاتها، وليس خارج هذه الاطر .

غير ان هـذه المحاولات التفسيرية اتخذت اشكالاً مختلفة ، واساليب شتى ودارت حول اسس ومحاور مختلفة متباينة ، وبدأت من نقاط شروع شتر . فالمثاليون ، في تأريخ الفكر ، قد تعلقوا بالتأكيد على العقل من حيث هو مصدر التغير في العالم لانه هو الذي يحكم العالم ويهيمن عليه ، ومن هنا ايضاً جاء التأكيد البالغ على الفكر وعلى المفكرين وخاصة بعد اندلاع الثورة الفرنسية حيث اصبح هؤلاء المفكرون يعتبرون (صانعي التـأريخ) ، ومحدثي التغير في العالم ، وعلى هذا الاساس صارت المودة تعتبر ظاهرة من صنع الفكر ونتاجه .

وزعم فريق من المثاليين ان (روح الامة Giest) هي مصدر النظم والقوانين والعادات وما شاكل ، وان التغير يخضع لهذه الروح إذ انها هي التي تمليه . لقد كان « هيجل » و « سافيني Savigny » ، إبان الاحتلال الفرنسي لألمانيا ، على رأس هـــذا الفريق من المفكرين حيث اراد « نابليون » تطبيق النظم والقوانين الفرنسية على المانيا ، ومن ثم كان هذا الرأي بمثابة رد او احتجاج ونقد لمثل هذه المحاولة النابليونية في مطلع القرن التاسع عشر بصورة خاصة .

لقد كان من مضامين هذا التأكيد البالغ على العقل ، شيوع الشك فيما هو متوارث ، وفقدان كثير من العقائد سحرها وجاذبيتها ، والاهتمام بالثقافة ، وحلول النقد محل السذاجة والبساطة التى كانت طابع الناس في عصور طويلة خلت .

غير ان هذا التأكيد البالغ على العقل قد ادى منذ منتصف القرن التاسع عشر تقريباً الى حركة مناهضة قوامها التأكيد على ما هـو (لا عقلي) على أيادي مفكرين مختلفين منهم « دارون » في نظريـة التطور ، ومنهم « ماركس » في ماديته التأريخية ، ومنهم « فرويد » في تأكيده على اللاشعور ، ومنهم « واطسن » في أنكاره العقل والروح والشعور وتأكيده على الرابطة الميكانيكية بـين المنبه والرجع ، تلك الرابطة التى قوامها الاقتران ، ومنهم كثيرون آخرون كالغريزيين ، والجبريين البايولوجيين واقطاب المدرسة الاقتصادية في علم الاجتماع ، واقطاب المدرسة الميكانيكية والجبريين الحضاريين وغيرهم ، مما سنتناوله بصورة مباشرة او غير مباشرة ، في صلب هذا البحث .

هذا ولابد لي في خاتمة هذا التقديم ان اسجل شكري الجزيل للسيد سعيد حميد سعيد ، أحد طلابي النجباء ، في قسم التربية وعلم النفس من كلية الآداب لمساعدته القيمة في الاشراف على طباعة هذا الكتاب ، والله ولي التوفيق .

١٠ آب ١٩٧١

الدكتور

حاتم الكعبي

الفصل الاول

تعريف بالمودة

تعريف بالمودة

أ ـ نبذة تأريخية :

يخبرنا الباحثون الذين توافروا على دراسة التراث الاجتماعي للشعوب القديمة كالفراعنة والآشوريين والسومريين والبابليين والأكديين واليونان والفرس والرومان وغيرهم أن البلاط الملكي والمعبـــد وحاشية الملك وبطانته كانت هي المصادر الاولى للمودات في اللباس والتزيين والزركشة والزخرفة ومختلف الأدوات الاخرى والهندسة وما شاكل ، وان الاحتكاك الحضاري كان قد لعب دوراً كبيراً في تغير المودة في هذه الوجوه كلها ، وان بعض الملوك والمتنفذين كانوا يستجلبون الفنانين في هـــذه الميادين ويشجعونهم ويغدقون عليهم الاموال الطائلة .

تنبؤنا الوثائق التأريخية التي تحدرت الينا من تلك العصور أن الازياء كانت تختلف باختلاف المواسم والفصول والمناسبات الى درجة ان احدى الرسائل تشير الى عزم احد ملوك الآشوريين على « اقامة احتفال

ديني خاص بالملابس » (١) .

ولقد كانت للمواد التى تصنع منها هذه الملابس وللالوان التي تلونها معاني خاصة عند تلك الشعوب ، فقد كانت الملابس البيضاء ، المصنوعة من الكتان ، هي مما يتميز به رجال الدين الكبار ، مثلاً ، في الاحتفالات الدينية عند الاشوريين (٢) . ولقد كان يصحب انتاج هذه الملابس غناء شعبي خاص وطقوس وشعائر ، وتدور حول الملابس اساطير وخرافات ومعتقدات تميزت بها تلك الشعوب والحضارات . وهكذا اعتبر الكتان رمز الطهارة والنقاء الروحي في حضارات قديمة متعددة .

وكان الملك عند الاشوريين بصورة خاصة يرتدي ملابس خاصة لكل احتفال او مناسبة دينية أو رسمية أو اجتماعية . لقد كانت الملابس مهمة الى درجة أنها كانت تنوب عن الملك وتمثله عند عدم تيسرحضوره للاحتفالات والطقوس حيث يحضر الى محل الاحتفال او الطقس بزته بكاملها لتنوب عنه (٣) .

ولقد كانت هذه الملابس تزين وتزركش بالاحجار الكريمة والقطع المعدنية والازرار المختلفة وهي تختلف حجماً ومادة باختلاف المركز الاجتماعي ، كما ان هذه الزركشة وذلك التزيين كان يمتد الى الخيول واسرجتها واعنتها والى السلاح والى جوانب اخرى من التراث المادي . ولقد عرف القدماء الاطرزة المختلفة في اغطية الرأس وفي الاحزمة وفي الاشرطة التي تشد في خصل الشعر او الرأس او تربط في الملابس

---

(١) ـ راجع الدكتور وليد الجادر وضياء العزاوي، الملابس والحلي عند الاشوريين (بغداد: وزارة الثقافة والاعلام ، ١٩٧٠) ، صفحة ١٢ .

(٢) ـ نفس المرجع ،صفحة ١٢ .

(٣) ـ نفس المرجع صفحة ١٣ .

وفي الخواتم وفي الحلي وادوات الزينة والتجميل .

يبين هذا كله ان الازياء والملابس كانت غنية الدلالة على المرتبة الاجتماعية والنفوذ والأبهة بالاضافة الى وظائفها ومهامها الاخرى منذ القديم .

هذا ويعتقد بعض المؤرخين ان عناية الريفيين بالملابس البراقة الملونة المزركشة واهتمام نسائهم بالتزيين والحلي في مناطق الشرق الاوسط والادنى ما هو الا اثر من آثار تلك الحضارات القديمة يمتد حتى يومنا هذا .

لقد اشار المفكر الانكليزي « توماس كارلايل » في بحثه عن فلسفة الملابس الى ان الروائيين ورجال الشرطة والفن التمثيلي واضرابهم يعنون اكبر عناية بدلالات الملابس . ان البزة العسكرية و (رداء القضاة) ، وكساء خريجي الجامعات في حفلات التخرج هي من هذه الدلالات الرسمية الشكلية في الملابس والازياء . ومن هنا يعتبر « كارلايل » هذا من رواد المفكرين الاوائل الذين انتبهوا الى اهمية اللباس والى الدور الذي تلعبه الازياء في حياة الناس .

سأحاول في هذا التمهيد التاريخي المقتضب للموضوع ان ابين البوادر الاولى للاهتمام بالمودة في العصر الحديث ، مبيناً ضمناً العوامل التي لعبت دورها الفعال في دروج هذه الظاهرة وانتشارها هذا الانتشار الهائل فيما بعد . ان هذا يضطرنا الى الرجوع الى فرنسا في اواخر القرن الثامن عشر وفي القرن التاسع عشر حيث بدأت تلك البوادر الاولى ، التي انتهت فيما بعد بجعل « باريس » اهم مركز من مراكز السيطرة (٤) في حقل

(٤) ـ ان هذا المفهوم ـ اعني مفهوم « مركز السيطرة » ـ احد المفاهيم المتعارفة في علم الاجتماع، وخاصة في حقل من حقوله وهو علم ـ

المودة لمدة طويلة نسبياً دون ان ينافسها اي مركز آخر في هذا الميدان .

لقد كانت الملكية في فرنسا ، قبيل الثورة الفرنسية ، هي التي تتحكم في ظاهرة المودة ، واستمر البلاط الفرنسي يقوم بهذا الدور في عهد الامبراطورية الاولى والثانية حيث كان مايقوله العاهل وما يفعله قانوناً ملزماً . فقد كرهت الامبراطورة « جوزفين » زوجة « الجنرال بونابارت الاول » ـ في ظل الامبراطورية الاولى ـ الطراز الجامد في البدلة النسوية وفضلت الفستان ذا العنق الواطىء والمحزم المرتفع ، كما فضلت التنورة المرنة ، وراحت تصفف شعرها وتربط تسريحتها بمنديل . وكان من آثار « جوزفين » ايضاً جعل الهيمنة للفن الروماني في فرنسا . وفي ظـــل

ـ البيئة البشرية ، ويعرفه هؤلاء العلماء على انه النقطة البؤرية للنقل والمواصلات حيث تتركز الوكالات الاختصاصية التي تربطه بالمراكز الخارجية الاخرى وشعبها على اساس الهيمنة عليها وعلى اساس من تقسيم العمل . ومن هنا كانت مراكز سيطرة مختلفة في الميادين المختلفة من النشاط البشري فواشنطن وموسكو ولندن ، مثلا ، مراكز سيطرة في الميدان السياسي ، وشيكاغو مركز سيطرة في صناعة الحديد ، وهكذا . ان المدن الكبرى اليوم ، هي مراكز سيطرة مهمة بالنسبة لاقطارها وشعوبهـا ، وبعضها مراكز سيطرة على نطاق عالمي .

اذا اردت استيعاب تفاصيل موضوع [مركز السيطرة] فارجع الى :

A . B . Hollingshead , « Human Ecology » , in A . M . Lee (ed.) New Outline of the Principles of Sociology (New York : Barnes and Noble, Inc . , 1947) , p.94 .

الامبراطورية الثانية كان للامبراطورة « يوجينيا Eugenia » ، زوجة « نابليون الثالث » ، اثر مشابه لهذا في الذوق الفرنسي العام ، حيث دعت الى الطراز المريح والى الاناقة والى الاثاث المحشو المغلف بالحرير .

ومنذ ذلك الحين كان صانع الالبسة يشغل نفسه وبراعته بتنسيق الخطوط ، وابداع التصاميم ، وموائمة الاشكال والهيئات والعمل على تحقيق الانسجام فيما بينها وبين الاطرزة . وهكذا كانت كل مؤسسة ملابس تصمم على (موديل) يعرض اما في ساحة (Longchamp) ، وهي ساحة سهلة للسباق كانت قبل الثورة الفرنسية سجناً قديماً للنساء بني بالقرب من باريس ، في غابة « بولونيا » ، وخرب سنة ١٧٩٠ ، واما في المتنزه المشهور المعروف باسم « Auteuil » ، على نهر « السين » والذي كان مرتاداً لمشاهير الكتاب والمفكرين والادباء الفرنسيين من امثال « موليير » و « اميل زولا » و « لافونتين » و « كوندرسيه » واضرابهم . وفي هذه المعارض يقرر الرأي العام مدى افضلية هذه (الموديلات) ويعبر الناس عن اذواقهم وعن انفسهم بخصوص هذه المعروضات من التصاميم .

لقد كان لكل مصمم ممثل يحضر هذه المعارض حيث تجري المقارنات فيما بين هذه التصاميم المعروضة ، وينصت الى الانتقادات ، ويتلمس مشاعر الناس واذواقهم واحكامهم حول الامر . وكانت هذه النتائج كلها تخرج بها صحف المساء حافلة اذ لا تتحدث الا في هذا الموضوع الذي كان يشغل كل انتباه وولع واهتمام الناس هناك الى درجة ان اهم الاحداث قد تغفلها تلك الصحف بجانب احداث هذه المعارض والموديلات . وهكذا تولد المودة الجديدة من مثل هذا الاطار ، وقد يكون مبدعها شخصية وضيعة مجهولة حتى تلك الساعة . ان المجال قد يكون فسيحا في مثل هذه الاحوال امام خياطة بسيطة ان تبدع (مودة) جديدة فتشتهر . ان المودة التي تتمخض عنها هذه المعارض سرعان ما

تنتشر بين مختلف الاوساط . وكان البلاط يلعب دوره الحاسم في نشر المودة الجديدة .

لقد تطور هذا الامر مؤخراً بحيث اصبحت هذه الازياء تعرض في معارض مسابقات تقام لهذا الغرض في مواسم مختلفة . ولقد اجمع صانعو الازياء الحديثة الجديدة على ان خير السبل لنشر (الموديل) هو اللجوء الى الممثلات وذلك لاستغلال رشاقتهن وكياستهن وجمالهن واناقتهن وشهرتهن ونفوذهن في هذا الميدان مما يؤدي ولاشك الى نشر المودة الجديدة بسهولة بين الناس ، والى قبول مبتكراتها من قبلهم بيسر . وعن طريق المسرح والممثلات قدم اللباس المسمى بالسلة المجنحة حيث عرضته مدام «جين هدنك» وقدمت اخرى طرازاً جديداً في الأردان عرف بأسمها - «مدام مارثا براندس» . وبمثل هذه الاساليب شاع استعمال ريش الديك البري بعد تمثيل رواية (Chanteclair) ، واصبح ارتداء القبعة اللوثرية شعبياً بعد تمثيل (Les Huguenots) .

والى نفس هذا الاسلوب لجأ شباب العاصمة الفرنسية على عهد « لويس فيليب » ، (١٨٣٠ — ١٨٤٨) عندما ارادوا ان تثنى سراويلهم الى اعلى الفخذ كما يفعل بعض صيادي افريقيا .

لقد كان الطراز الجديد من المودة ينشر بين الناس ، في امس القريب ، عن طريق عرضه في معارض خاصة تقام في محلات السباق ، وفي الشوارع العامة ، وفي المسارح ، وفي حفلات الاعراس ، وفي بعض الصالات . غير ان عرض الطراز الجديد من المودة في المسارح صار يزداد اهمية بالتدريج حتى غلب مؤخراً واصبح هذا الاسلوب المفضل الشائع اليوم الذي يرغب به صانعو او مبدعو الازياء ، (٥)

(5)- P. Clerget , « The Economic and Social Role of Fashion, » Annual Report of the Smithsonian Institute, (1913 , pp. 755 - 764 .

يؤكد البحاثة (يونگ) ان كل فكرة عابرة قد توحي بتكوين مودة جديدة ، وان الاحتكاك الحضاري والاجتماعي يلعب دوراً كبيراً في نشر هذه المودات وهذه الاطرزة الجديدة . فقد كان الشباب الفرنسي في الفترة (١٨٣٠ ـ ١٨٤٨) يحتفظ كل منهم بالعمامة والقلنسوة العربية ، وانتشرت الملابس الانكليزية الخاصة بالرياضة مع انتشار هذه الالعاب الانكليزية في العالم . وعلى نفس هذا المبدأ انتشرت الملابس المصنوعة من الفراء أو الجلد .

ان مما يجب أن يشار اليه في هذا الصدد ان (زعامة النفوذ Prestige leadership) او الزعامة القائمة على النفوذ تلعب دوراً فعالاً في ظاهرة المودة هذه ، وهذا النفوذ انما يكتسب نتيجة عوامل تأريخية مختلفة قد لاتكون لها علاقة بالاستحقاق الموضوعي . فباريس ، مثلاً ، لاتزال تتمتع بزعامة من هذا القبيل في ميدان ازياء النساء . إن هذا النفوذ الذي تتمتع به (باريس) اليوم يرجع مباشرة الى ماكان يتمتع به البلاط الفرنسي من نفوذ في كل الاقطار الاوربية في القرون التي خلت .

لقد كان الرجل ، في أواخر العصور الوسطى ، هو الجنس الاكثر بهرجة وتزيناً . وكانت المودات التي تحتذيها ارستقراطيات أوروبا يومذاك يقدمها بعض الامراء الايطاليين المرموقين . غير ان التغيرات السياسية التي طرأت على اوروبا منذ ذلك الحين رفعت (اسبانيا) الى مركز الصدارة في هذا المجال أولاً ، ثم حلت محلها (فرنسا) إذ كانت مركز طبقات النبلاء الاوروبية منذ ذلك الحين .

إن التغيرات الاقتصادية التي طرأت على العالم الغربي فيما بعد افسحت المجال أمام نسب متزايدة باطراد من السكان لأن تلفهم هذه الظاهرة وان ينهمكوا في عالم المودات .

ان من هـــذه التغيرات هي التغيرات الاقتصاديـــة التي طرأت على حياة المرأة وتزايد استقلالها استقلالاً اقتصادياً ، بالاضافة الى تغير منزلتها الاجتماعية في المجتمعات الاوروبية ، مما أدى الى تحول التأكيد في مودات الملابس من ملابس الرجال الى ملابس النساء . وبتوالي الزمن اصبح الرجل يرتدي الملابس المعتمة ، وصارت النساء تزدهي بالملابس الزاهية الملونة المبهجة . وفي نهاية المطاف صرنا نرى اليوم أن ملابس النساء وازياءها تتسم بالتغير السريع المستمر في حين ان ملابس الرجال تجنح الى الثبوت والجمود وعدم التغير نسبياً (٦) .

أما في ميادين الافتتان والازدهار ، فان الولع والاهتمام بدراسة السلوك الخيالي (Bizarre behavior) ، الذي يدعى ، في الاعم الاغلب بالوباء العقلي فهو في الواقع أقدم حتى من الاهتمام بسلوك الجماهير ومن ظواهر السلوك الجمعي . ان هذا يصدق بصورة خاصة على المؤرخين حيث كان هؤلاء المؤرخون يسجلون اوصافاً مفصلة لهذا النوع من السلوك وذلك قبل ان يقوم علماء النفس الاجتماعي بتحليل اسباب وحركات هذا النوع من السلوك بزمن طويل . ان من أمثلة هذا النوع من السلوك هو وباء الرقص الديني في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ذلك الرقص الذي كان موضوع عنايـــة واهتمام عـــدد من المؤرخين وموضوع بحث كثير من المؤلفات في هـــذا الباب لعل اشهرها كتاب « هكر J . F . C . Hecker » المعنون (جنـون الرقص في العصور الوسطى The Dancing Mania of Middle Ages) كما ان الازدهارات التأملية او الخيالية (The speculative booms) التي حدثت في القرنين

(6) - R . T . LaPiere and P . R . Farnsworth , Social Psychology (New York : McGrow - Hill Book Co., 1936) , p . 450 .

السابع عشر والثامن عشر ، من قبيل مثلاً (الجنون بالخرامي Tulip mania) في هولندا وفقاقيع المسيسيبي (Mississipi bubble) في فرنسا ، كانت قد اجتذبت انتباهاً واهتماماً مماثلاً . ان عدداً من أوبئة هذه الفترة كان قد وصف وصفاً دقيقاً في كتاب ألفه « ماك كي Charles Mackay » حيث نشر لأول مرة سنة (١٨٤١) . كما ان السلوك الحماسي الذي كان من خصائص الجماهير الدينية خلال البعث الكبير (The Great Revival) الذي حدث على الحدود الامريكية في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، والسلوك غير الاعتيادي لبعض الطوائف الدينية كالهزازين مثلاً (The shakers) كانا قد اجتلبا انتباه المشاهدين ايضاً منذ زمن بعيد . والواقع ، ان كل قرن من هذه القرون كان قد تميز بأمثلة من السلوك الجمعي الخيالي استعصى على الاذهان تفسيرها تفسيراً منطقياً مما حفز الولع والاهتمام بهذا الجانب من السلوك الجمعي . وعلى كل حال ، فان من سوء الحظ ان تكون كثيراً من أمثلة هذا النوع من السلوك حتى تلك التي هي أحدث بكثير من تلك التي اشير اليها سابقاً من قبيل ، مثلاً ازدهار الارض في فلوريدا (Florida land boom) وافتتان (الرسائل المتسلسلة Chain letters) وعبادة (جيمس دين James Dean Cult) واضرابها من الظواهر كانت قد وصفت اكثر مما درست دراسة دقيقة .

هذا وبعد ان بدأت تنهار النظم الاستبدادية وصارت تظهر الدول القومية وبدأت النذر والبوادر الاولى للحياة الدمقراطية راح الفلاسفة والمفكرون الاجتماعيون يثيرون اسئلة حول طبيعة المجتمع وحول زعامته، وحول الدولة والتقاليد والظواهر الاجتماعية المختلفة الاخرى . فما ان حلت الدمقراطية السياسية والحكم التمثيلي محل طغيان واستبداد الملوك

حتى وجدنا ان تقييم دور الزعيم هو من أبرز وجوه النشاط الفكري والاجتماعي . ان آراء « كارلايل » حول (البطل) ، وآراء « ماكس فيبر » حول (الموهوب) هي من خير الامثلة في هذا الصدد . كما ان انتباه (باريتو Pareto) المفكر الايطالي الى ما أسماه بـ (دورة النخبة) وتحليله لهذه العملية ، واهتمام المفكر الانكليزي « بيكهوت Begehot » في كتابه المعنون (الفيزياء والسياسة) بتفكك (كعكة التقاليد The Cake of Custom) هما من الدلائل الواضحة على شعور المفكرين بظاهرة التغير وبمضامينها وآثارها القريبة والبعيدة . لقد كان « بيكهوت » الرائد الاول الذي ربط انتشار المودة بعملية التقليد كما كان الرائد الاول في المعالجة السايكولوجية للسياسة .

ان مما ساعد على التحسس بأهمية ظواهر التغير الاجتماعي ، بالاضافة الى ما مر من عوامل ، حدوث الثورات العنيفة المتواترة ، وتمزق الانظمة التقليدية الجامدة وأطر الحياة المتوارثة .

وهكذا أصبح المجتمع الحضري الحديث مجتمع مودات وانماط سلوكية متغيرة بعد ان كان المجتمع القديم مجتمع تقاليد متحجرة .

أطرزة الرجال : لم تتغير ملابس الرجال تغيراً أساسياً خلال القرن الاخير ، لا في عدد القطع ولا في الشكل العام . ان التغيرات البسيطة التي طرأت على ملابس الرجال في الغرب تكاد تنحصر في تغير (الصديري) الى (يلك) وفي ، صيرورة (الياخات) أوطأ وفي تبدلها من القطن الى السيليلوز ثم رجوعها مرة أخرى الى القطن ، وفي كون السروال كان يتذبذب بين العريض والقصير ، والضيق والطويل ، والعريض والطويل ، وفي كون السترة قد قصرت ، وفي كون مادة الملابس قد تغيرت بين حين وآخر ،

أما الملابس الرياضية الخفيفة فقد اصبحت مرغوبة في السنين المتأخرة ، وحلت (القولة المرنة) محل (القولة المنشاة) بصورة عـامة تقريباً ، كما حلت الاحذية الواطئة محل الاحذية العالية ، وهجرت الاحذية ذات الازرار . وعلى كل حال ، فان رجل اليـوم المتأنق يرتدي نفس نوع الملابس التى كان يرتديها أبـوه ، بالرغم من مساعي صانعي الازياء والاطرزة الرجالية لأن يلمعوا ملابسه او أن يخففوها ، كما يقولون .

أمـا البدع الطفيفة العابرة من قبيل (البيريه) فقد ظهرت واحت . ان الانكليزي اليـوم يلبس نفس القبعة التى كان يلبسها في نهاية القرن التاسع عشر ، وكذلك الامريكي ، وان كانا قد يضعا فيهما ريشة عند تفسحهما قرب (التيرول) .

ان التغيرات البسيطة التى طرأت على ملابس الرجال في العقود القليلة الاخيرة كان مصدرها مدينة (لندن) ، التى تعتبر تقليدياً مركز النفوذ او مركز السيطرة في البدلات الرجالية ، ان بعض اعضاء العائلة المالكة الانكليزية هم زعماء اطرزة في هذا المجال ، بحيث ان الامريكيين كانوا يتخذون من امير (ويلز) مثلاً أوقدوة في هذا المجال .

أطرزة النساء : إن أطرزة النساء تتغير تغيراً سريعاً عنـد مقارنتها باطرزة الرجال . ان النساء في العصر الحديث مخلوقات شاعرات بالطراز شعوراً مفرطاً . لقد كانت (باريس) حتى عهد قريب هي وحدها مركز السيطرة في مودات البدلات النسوية وفساتينها وسترها المختلفة وكل ما يتعلق بملابسها وزينتها . والواقع ، ان تبدلات المودة كانت في البدايـة من نتاج المنافسة بين نساء البلاط الفرنسي على الحظوة الملكية . إن ظهور المودة في فرنسا عن هـذا الطريق كان مدعاة لأن يحذو حذوهـا البلاط

الانكليزي والايطالي والالماني والروسي مباشرة .

غير ان الامر قد تبدل بعض الشيء بعد الثورة الفرنسية حيث تحولت زعامة المودة والاطرزة الجديدة الى أيدي المصممين الذين اصبحت اسماؤهم وليست شهرة زبائنهم المرموقين ، هي شعار استحسان المودة من قبل النساء الغربيات اللائي تمكنهن احوالهن أن يكن دائماً على آخر طراز . وهكذا استمرت (باريس) سيدة الموقف في هذا المجال . غير ان نفوذها قد اصبح مهدداً تهديداً جدياً منذ مطلع القرن العشرين ، وكان اقوى تهديد لها يصدر من (هولي وود) . وهكذا أصبحت النجمة السينمائية اليوم هي التي تتخذ قدوة في مجال المودة من قبل سائر النساء الامريكيات والانكليزيات كما كانت نسوة البلاط الفرنسي تلعب هذا الدور من قبل بالنسبة للطبقات الارستقراطية في غرب أوربا . ومع هذا كله فلا يزال اسم (باريس) ينطوي على مسحة من السحر في ميدان مودة ملابس النساء حتى يومنا هذا ، في حين ان هناك مراكز سيطرة متعددة أخرى قد سبقت باريس في هذا الميدان وعلى رأسها (نيويورك) و (هوليوود) بصورة خاصة ، بعد ان كانت الاخيرة تستورد كل مودتها من (باريس) ردحاً من الزمن في البداية .

زعامة المودة : إن مصممي المودات وصانعي الاطرزة (Stylists) اليوم هم القادة الحقيقيون في هذا الميدان ، إذ هم الذين يهيئون ابداعهم الجديد في هذا الميدان ، ومن هذه المبتكرات الجديدة البارزة ينتقي الناس عادة ما يصبح المودة الطاغية المنتشرة .

ان مما يجب ان يشار اليه في هذا الصدد هو ان قيم الملابس هي أمور نفسية ذاتية الى حد كبير . ولكن هذا يجب ان لا يسوقنا الى اغفال

الحقيقة التالية وهي : ان هناك عوامل واعتبارات اقتصادية تتحكم بالملابس أيضاً ، وإلا للبس بعض الناس ملابس من ذهب .

ان ما أود أن أشير إليه في هذا الصدد هو ان صانعي المودة لا يلعبون دور المستبد في جعل الناس يقبلون مودة دون أخرى ، كما توحي بذلك المضايقات الكثيرة التي تتسم بها ملابس النساء ، من قبيل الاحزمة غير الصحية ، والمشدات الضاغطة وغيرها . فقد قيل قديماً : انك تستطيع ان تقود الحصان الى الماء ولكنك لا تستطيع ان ترغمه على الشرب . وعليه فان زعماء المودة يقودون النساء الى هذه المودات وحسب . أما متى ولماذا وكيف يقبل هؤلاء النساء على هذه المودة دون تلك فهي أمور لا يمكن التنبؤ عنها . والواقع ، ان ملايين الجنيهات تصرف في كل عام لمعرفة إتجاه مودة الغد من دون جدوى ، لان مودة الغد تقررها التفاعلات الاجتماعية المختلفة التي يتمخض عنها ذلك الغد ، والتي لا يستطيع العلماء حتى الآن معرفتها وتحليلها اوالاحاطة بها (٧) .

ب ـ تعريف المودة :

جاء في قاموس (وبستر) ان كلمة مودة تعني لغوياً الاستعمال الدارج المقبول لأي شيء ، في وقت معين ، من أولئك الذين يرغبون ان يكونوا على آخر طراز في هـذا الباب . ان الكلمة الانكليزية (Fashion) ، المقابلة لعبارة (مودة) بالعربية ، منحدرة من أصل لاتيني معناه (صنع اي شيء Facio and facere) (٨) .

---

(7) - Ibid ., pp . 450 - 453.

(8) - A . Merriam - Webster , « Fashion » , Webster's Collegiate Dictionary (Springfield : G . C . Merriam Co ., 1949) , p . 300 .

يرى البحاثة « لابير » ان المودات هي نماذج سلوكية موقتة (٩) . ويرى « سابير » ان المودة صورة من صـــور التخلي الموقت العابر عن التقليد الاجتماعي (١٠) ويرى « بونر » انها ضرب من السلوك الموقت مصدره دوافع لاشعورية (١١) وأكد « تارد » الفرنسي ، الذي اشتهر بتأكيده على ان المجتمع ما هو إلا عملية تقليد ، على ان المودة هي تقليد المعاصرين ، اذا ما هي قورنت بالتقاليد التي هي تقليد الاسلاف والسابقين والواقع ، ان المودة هي أكثر من محاكاة ، وهي لا يمكن ان تعرف على اساس المحاكاة وحدها ، ولا يمكن ان تفسر بهذا العامل وحده ، كما سيتبين ذلك في هذا البحث ، وان بدت في مظهرها السطحي أقرب مـا تكون الى التقليد والمحاكاة التي يرسمها الناس بشكل سطحي خارجي . ويذهب البحاثة « يونگ K . Young » الى ان المودة هي الطراز او الاسلوب (Style) المنتشر في المجتمع في وقت مـــا (١٢) ثم يضيف « يونگ » الى ذلك قائلاً : « ان الطراز نفسه ، كما يقول نيستروم Nystrom ، هو الاسلوب المميز او المسيطر او هـــو طريقـــة التعبير ، والعرض او التصوير الفكري في ميدان بعض الفنون (١٣) . وبعبارة اخرى ، يؤكد (يونگ) على ان المودة تطلق على الاسلوب المنتشر

(9) - W.F.Vaughan, Social Psychology (NewYork : Odessey Press , 1948) ; p . 534 .

(10) - E . Sapir , (Fashion) , E . S .S.(1931) V I , pp . 139 - 140 .

(11) - H . Bonner , Social Psychology(New York : American Book Co . , 1953) , p . 392 .

(12) - K . Young , Social Psychology(New York : F . S . Crofts and Co . , 1936) , p . 552 .

(13) - Ibid . , p . 552 .

السائد في اشياء وامور من شأنهـا ان تخضع للتغير في الشكل والهيئة والطراز . ان هذه الطرازات تظهر وتختفي في ميدان الملابس والتزيين والتجميل والهندسة المعمارية والعربات والمركبات والمحادثة والقاموس اللغوي والموسيقى والادب ، بل حتى فيما هو أكثر جدية من هذا كله من قبيل الفن والدين والفلسفة (١٤) .

ويرى الباحثان « ترنر » و « كليان » « ان المودة هي عملية تدور حول انتشار وشيوع تغيرات في الذوق »(١٥) ولذا فان طرازاً من الملابس كان يعجب به الناس في فترة ما يصبح مثار سخرية من قبلهم بعد ذهاب مودته ، وكذلك الامر مع (موديلات) السيارات ، ومع تسريحات الشعر من قبل السيدات ، او ما يلبسنه من قبعات ، وما شاكل من ضروب المودة .

أمـا البحاثة « فوغان » فهو يرى : « ان المودة هي نمط سلوك اجتماعي موحد يسهم فيه عدد كبير من الناس ، انه نمط جديد من شأنه ان يستحوذ على انهماك الناس فيه وافتتانهم به او يثير هذا الافتتان (١٦) .

جـ ـ التقاليد الاجتماعية والمودة :

يشير بعض علماء الاجتماع ، ضمنا او صراحة ، الى ما بين التقاليد والمودات من تناقض وتعارض ، ذلك ان التقاليد في كل مجتمع هي اشكال ثابتة ، متحجرة نوعاً مـا ، من السلوك الاجتماعي المتوارث ، في الاعم

(14) Ibid . , p . 552 .

(15) Ralph H . Turner and Lewis M. Killian , Collective Behavior (Englewood Cliffs, N . J . ; Prentice - Hall , Inc . , 1957) , p .215 .

(16) Vaughan , Op . Cit . , p . 534 .

الاغلب ، من جيل لجيل ، وانها انماط تتسم بالقسر والاكراه ، وانها تتميز ـ عند مقارنتها بالمودة ـ بالاستمرار والاستدامة في الحياة الاجتماعية. اما المودة فهي موقتة ، عابرة ، رجراجة ، غير مستقرة ، وان التقاليد بطيئة الانتشار والانتقال ، في حين ان المودة سريعة الذيـــوع والانتشار والتقبل من قبل الناس . ومع هذا فان البحاثة « أدوارد سابير » يرى ان من الخطأ الفاحش ان نتصور المودة مجرد حيود او بدعة قصيرة العمر تطرأ على التقاليد الاجتماعية ، ذلك ان كثيراً من هذه البدع قد ظهرت خلال التأريخ البشري وبقيت قائمة في التراث الاجتماعي طيلة ملائمتها للاوضاع الاجتماعية (١٧) .

لقد حاول « أدوارد سابير Sapir » في بحث لـه في دائرة معارف العلوم الاجتماعية عن المودة ، ان يميز مفهوم المودة عن مفاهيم أخرى قريبة منه في المعنى . وعلى هذا الاساس ميز بين المودة وبين الذوق (Taste) على اعتبار أن مودة معينة تختلف عن ذوق معين في انها تتسم ببعض الالزام والاكراه الـذي تمارسه المودة على الجماعة فيما اذا هي قورنت بالاختيار الفردي الذي يقوم به الفرد من بين عدد من الامكانات . والواقع ، ان انتقاءاً ما قد يحدث نتيجة امتزاج بين المودة وبين الذوق . وعليه ، فاذا كانت الالوان البراقة والبسيطة هي المودة الدارجة ، فقد ينتخب فرد ما اللون الاحمر على انه المفضل عنده بالنسبة لذوقه ، بدلاً من اللون الاصفر ، ولـو كان ذوق الانسان حراً وغير مكبل بالمودة ـ في هذا الصدد ـ فقد يفضل الواناً اخرى أرق ، يتبين من هذا ان ما تستلزمه المودة يكون تحدياً لذوق الشخص الذي يقوم بالانتقاء والتمييز من عدة امكانات ، وتضعه

(17) - E. Sapir, Op. Cit., pp. 139 - 140.

أمام مشكلات التوفيق بين ذوقه وبين المودة ، وبين هذه الامكانات ، ان المودة ، كما هو معروف ، يقبلها سائر الناس بقليل من التردد والمعارضة، ومن ثم فهي عند هؤلاء الناس لا تحظى بكثير من الملائمة والتوفيق مع الذوق بحيث تقوم مقامه او تكون بديلاً له . ذلك ان الذوق بلكاد يظهر عند عدد من الناس اللهم إلا عند التعارض بين مودة مقبولة وبين مودة ميتة ، او نشاز ، او قد مضى وقتها او هي لا تزال دارجة ولكن بين جماعات اخرى غير جماعة الشخص نفسه .

زد على ذلك ان عبارة « مودة » قد تحمل في طياتها شيئاً من الاستحسان او الاستهجان . ان عبارة مودة عبارة موضوعية تتوقف خصائصها العاطفية والانفعالية على النصاب الذي تحدث فيه . فرجل الاخلاق قد ينعى ، مثلاً ، نموذجاً معيناً من السلوك من حيث هو مودة ، ولكن الرجل العادي لا يستاء فيما اذا هو نعت بأنه يسلك على وفق المودة . ان المودة تختلف ، من هذه الناحية ، عن الهوايات العابرة والتقليعات (Fads) التي هي شبيهة بالمودة من الناحية الموضوعية ، ولكنها تختلف عن المودات في كونها اكثر شخصية في تطبيقها واستخدامها ، وفي كونها تدل على شيء من الاستهجان الاجتماعي ، قد يكثر او يقل . فالجماعات المعشرية ، او حلقات خاصة من الناس تتميز عادة بهذه الهوايات والتقليعات في حين ان المودة تطغى عادة على مجموع أكبر من الناس او على جماعات ممثلة اكثر من الجماعات المعشرية الصغيرة او الحلقات الضيقة من الافراد . وعليه ، فان الذوق الذي يؤكد نفسه ويفرضها بالرغم من المودة ، والذي يوهم الناس انه إلزامي (حصاري Obsessive) ، قد يشار له على انه هواية شخصية او تقليعة فردية (Individual fad) او بدعة ضيقة الانتشار .

زد على ذلك ، ان التقليعة او الهواية الشخصية العابرة (Fad) ، مع انها قد تدوم لمدة قصيرة جداً ، إلا إنها تختلف عن المودة الخالصة دائماً من حيث انها ـ أعني التقليعة او الهواية العابرة ـ تتسم بكونها غير متوقعة ، وانها لا تتسم بالمسؤولية ، وانها يطغى عليها الوهم والخيال في حين ان أية (مودة) تجرح حس الفرد بالطراز او النمط ، وشعوره بالاستمرارية التأريخية يحتمل ان تنبذ وتطرح على انها تقليعة ناشزة ، او بدعة عابرة . والواقع ، ان هناك مودات متغيرة في (مضارب التنس) في حين ان لعبة (الماه جونك) ، وهي لعبة صينية تشبه لعبة (الدومنه)، تتخذ الآن ، وهي تقلع عن المسرح الامريكي ، شكل البدعة العابرة .

هذا وكما ان ضعف وانحسار المودة يؤدي الى الهواية الشخصية او التقليعة او البدعة العابرة (Fad) ، فان المودة تستمد قوتها من التقليد (Custom) ان التقليد هذا انما يختلف عن المودة في كونه نموذجاً ثابتاً نسبياً من السلوك الاجتماعي . ان التقاليد تتغير ، ولكنها تتغير بشكل يكون اسهام الفرد فيه اسهاماً واعياً فعالاً أقل بكثير مما في ظاهر المودة . والواقع ان التقاليد هي عنصر الثبوت والدوام الذي يجعل التغيرات في المودة ممكنة الحدوث . إن التقاليد تختط وتعين الجادة او الطريق الاعظم او الوجهة الرئيسة للعلاقات المتبادلة بين التقاليد وبين المودة ، حيث يمكن تدبر المودة على انها التحول والانتقال ، الذي لا ينتهي ، من ذلك الطريق الاعظم والرجوع إليه . والواقع ، ان معظم المودات تنعشها مودات أخرى ، ولكن ، يحدث أحياناً ان المودة تتبلور متحولة الى عادة ثابتة دائمة ، بحيث تتخذ شكل او صورة تقليد من التقاليد .

انه ليس من الصحيح ان تعتبر المـــودة مجرد اختراع يـدوم لمدة قصيرة في التقليد وحسب ، لان كثيراً من المخترعات في التاريخ البشري انما تظهر مع الحـاجة اليهـا ، وتبقى طالما هي مفيدة او مناسبة . فاذا حدث ، مثلا ، ان كانت هناك قـلة في الحرير بحيث اصبح من الطبيعي ان نعوض الحرير بالقطن في صناعة بعض الملابس التي اعتيد من قبل ان يكون الحرير مادتها ، فـان هذا التغيير في مادة هذه الملابس مهما كان مهماً من الناحية الاقتصادية او الجمالية ، لا يكون بحـد ذاته تغيراً حقيقياً في المودة . فاذا حدث ان عوض الحرير بالقطن اختياراً على اعتبار انه رمز للحياة البسيطة او بسبب الرغبة في رؤية ما يحدثه ذلك من تأثير جديد في النماذج المقبولة من اللباس المصنوع من المواد البسيطة، فان التغير الحادث عندئذ يمكن ان يسمى (مودة) . والواقع ، ان ليس هنا ما يحول دون الابداع الجديد من ان يتخذ في النهاية سمة مودة جديدة . فاذا حدث ، مثلاً ، ان استمر الناس على استعمال مادة القطن حتى بعد ان اصبح الحرير ميسوراً ، فان معنى ذلك ان مودة جـديدة قد ظهرت في هذا الميدان .

يتبين من هذا كله ان المودة هي تقليد في مظهر او صورة التحول والانتقال من تقليد راهن او اعتبار اجتماعي قائم . ان اغلب الاسوياء من الافراد تحفزهم حـــوافز شعورية او لاشعورية لان يحيدوا او يخرجوا بعض الخروج على الانصياع الحرفي والمراعاة التامة للاعتياد او التقليد القائم. ان هؤلاء ، في الواقع ، ليسوا ثائرين متمردين على هذا التقليد والاعتياد ولكنهم يرغبون ، نوعاما ، بان يجعلوا حيودهم الشخصي مشروعاً دون ان يعرضـــوا انفسهم للاتهام بعدم الحساسية لاستشعار الـذوق الرفيع والشمائل البارعة . والواقع ، ان المودة هي حل حذر ، محتاط، لصراع

دقيق . ان التغيرات البسيطة التي تطرأ على ماهو متأصل قائم من ضروب واشكال السلوك الاجتماعي وطـــراز الملابس المرعي ، والحيود عنها قد تسبغ النصر ، ظاهرياً ، على الفرد ، في حين ان تمرد الناس ، على تلك الضروب وذلك الطـراز ، من حواليه في نفس الاتجـاه ، من شأنه ان يشعر كل فرد بطمأنينة المغامرة وسلامتها ، وهو شعور مصدره ، بالطبع هذا التدعيم الاجتماعي من حـواليه . وهكذا تصبح البادرة الشخصية ، التي هي في القرارة الخفية للمودة وجوهرها ، امراً فـوق ماهو شخصي « Overpersonalized » (١٨) اعني ان لها مسحة اجتماعية .

د ـ البدع [FADS] الموقتة والمودة :

ان الاندفاع الذوقي العابر (Fad) — وهو عبارة عن مودة موقتة تعيش قصيراً جداً ـ قد يكون محلياً او قومياً او وطنياً من حيث المدى ولـكنه دائماً موقت ولايمكن التنبؤ عنه . ان هذه الاندفاعـات الموقتة قد تبدأ على شكل تقليعات او هوايات شخصية موقتة عابرة ولكنها قد تنتهي صائرة مـــودة ، او تقليداً اجتماعياً او هواية واسعة الانتشار . ان من قبيل هذا الشعر القصير عند النساء ولعبة (البنكو) ، فقد ابتدأ كلاهما على شكل اندفاع موقت عابر ، ولكنهما استمرا في شكل وصورة اكثر ثبوتاً ودواماً (١٩) .

ان البدعة الموقتة العابرة (Fad) تشبه الاشاعة من حيث ان كليهما قد يكون مجهول المصدر او المبتدع في الاعم الاغلب ، ومن حيث ان كليهما

---

(18) - Ibid . , pp . 139 — 140 .

(19) - S.S.Sargent , Social Psychology (New York : The Ronald Press Co . , 1950) , p . 390 .

يجب ان ينسجما مع الوقت والمكان والملابسة .

ان من المهم ان يشار هنا الى أن آلاف البدع من هذا القبيل تخلق وتبتدع يومياً في الميادين المختلفة من حياة كل شعب . والسؤال الذي يحير الباحثين حتى اليوم : ترى لماذا تروج بدعة ما بين الناس من بين آلاف البدع الاخرى التي لا يكتب لها الرواج ؟ ولماذا يباع كتاب بالملايين في حين لايباع كتاب آخر افضل منه من عدة وجوه بمثل هذا النوع من الرواج ؟

هو الآخر سؤال من نفس الصنف ، وان كان بعض الباحثين يدعي انه كشف بعض اسرار هذا الموضوع الاخير الى حد ما .

وعلى كل حال ، فأن النفوذ يلعب دوراً ضئيلاً ، على ما يظهر في نشر البدع العابرة ، كما ان الزعامة عشوائية في هذا الميدان الى حد كبير وخصوصاً في تلك الميادين التي لايوجد فيها استغلال تجاري ملحوظ (٢٠) .

هذا ويؤكد « لابير » على ان حيود البدعة العابرة الموقتة عن العرف الاجتماعي هو حيود بسيط جداً ، وقد تكون البدعة العابرة (فريدة) في كونها عبارة عن تـــرابط جديد فيما بين عناصر عرفية معروفة لدى الناس . فالسيقان العارية ، كبدعة عـابرة ، ماكانت لتظهر لو لم تزل وتنعدم بين الناس فكرة : ان السيقان العارية ضرب من سوء الادب .

ان البدعة العابرة الموقتة التي تستحكـم في المجتمع وتدوم اطـول نوعاً ما من غيرها لابد وان تكون ذات منفعة استثنائية للناس أو لبعض الجماعات منهم . فانتعـاش استعمال الدراجة الهوائية مرة اخـــرى في امريكا بعد ان ازيحت تقريباً من الاستعمال لمدة عشرين عاماً من بعد شيوع السيارة ، امر وراءه العامـل الاقتصادي ومصالح جهات مصلحية في

(20)- Ibid . , p. 445.

هذا الباب (٢١) .

يذهب الباحثان (ترنر) و (كليان) الى ان (البدع المـــوقتة) التي هي الاخرى تدور حول الذوق ، لاتشبه المـــودة ، من حيث ان المودة هي عملية متصلة مستمرة ، حيث ان كل طراز فيها يتلو الطراز الذي سبقه عادة ويحل محله مع وجود استمرار في تغيرات الطراز نفسها حيث تطول الملابس قليلا فقليلا كل فصل او سنة ، او تقصر قليلا ، قـليلا ، او تصبح السيارة اوطأ فاوطأ او اكثر استطالة او عـرضاً سنة بعد اخرى ، وليس الامر كذلك في البدع والتقليعات .

زد على ذلك ان انتشار المـودة من شأنـــه ان يدعم بنية المنزلة الراسخة في المجتمع . في حين ان البدع والتقليعات (Fads) لاتقوم بهذه المهمة (٢٢) ، وبعبارة اخـــرى : ان المـودة تجنح لان تقوي وتدعم تمييزات المنزلة المرعية المتأصلة في حين ان البدع والتقليعات قد تؤسس او تقيم نفوذاً يختلف مع المعيار او الميزان التقليدي او العـرفي في المجتمع في هذا الباب . زد على ذلك ، ان الذين يبدأون هـــذه البدع والتقليعات قد يكونون من جميع الطبقات الاجتماعية ، وقد تتبنى هذه البـدع من قبل الطبقات الـــدنيا وتنتشر بينها بصورة اسرع من انتشارها بين الطبقات الاخرى ، في حين ان الامر ليس كذلك في المودة وعليه فأن النفوذ الذي تستتبعه هـــذه البدع والتقليعات ـ ذلك النفوذ الذي يقوم على اسبقية تبنيها وعلى شدة النشاط فيها ـ قد يكون بديلا معوضاً (Substitute) للنفوذ المرعي المتأصل في المجتمع .

---

(21) - Ibid . , p .446 .

(22) - Turner and Killian , Op . Cit . , p . 215 .

يتبين من هذه المقارنة البسيطة ان المودة هي عامل او مظهر من مظاهر المحافظة على البنية الاجتماعية عند مقارنتها ، من هذه الناحية ، بالبدع والتقليعات (Fads) التي تؤدي الى التغير وتنميه وتدفعه اسرع واكثر مما تدفعه المودة عادة .

ان البدعة او الهواية الشخصية قد تصبح في بعض الاحيان افتتاناً او مودة عند انتشارها بين الناس . ان من هذا القبيل تميز فنان ، مثلا ، بأسلوب معين ، يعتبر ملكه الخاص ، وميزته الشخصية ، ومن نتاج ابداعه هو . غير أن انتشار هـذا الاسلوب بين الناس قد يحيله الى افتتان او الى مودة منتشرة على نطاق واسع ، وهـو حدث نلحظه في كثير من المجالات الحضارية كالموسيقى ، والرقص ، والغنـاء ، والمسرح ، والسينما والادب والتزيين وغيرها .

هذا ويرى بعض الباحثين ان شيوع هذه الاساليب الشخصية والبدع السلوكية لايعدو الحـدود التي يسمح بها المجتمع للتغير نتيجة عـدم اكتراثه الخلقي او تسامحه الخلقي في بعض الميادين من الحضارة والحياة . ان لهذا الرأي دلالته الاجتماعية في شيوع مودات وغلبتها في المجتمع مع انها ضارة ، وربماكانت معارضة للاخلاق ولبعض الوجوه الحضارية الاخرى ، من قبيل شيوع الفستان القصير بين الفتيات المسلمات في امس القريب في حين أن الاخلاق الاسلامية والدين الاسلامي يحثان على التستر ، وعلى حجاب مواطن الاغراء والزينة عند المرأة .

إن البدع الموقتة تظهر من الاعم الاغلب ، في ميادين معينة ، خاصة ، حيث هي تظهر عادة في ميداني الادب والفنون ، اكثر من غيرهما . ان البدعة قد تستحيل الى مودة ، في بعض الاحيان ، كما حدث ذلك مراراً

وتكراراً في الشعر، والموسيقى، والرسم والغناء والرقص وماشاكل من ميادين.

إن مما يجب أن يشار إليه في هذا الصدد هو أن معرفتنا بأصل ومصدر ومدى هذه البدع هي معرفة قليلة، مضطربة، غامضة بوجه عام. فمن هم الذين كانوا يكتبون بعض (العبارات السياسية) على جدران الحدائق والبيوت من الخارج ؟ وكم هي نسبتهم الى مجموع هذا الصنف من الاولاد ؟ وما هي دوافعهم في هذا العمل ؟ الواقع، ان مما يجعل دراسة هذه البدع الموقتة العابرة، واجراء البحوث عليها، أمراً مشكلا صعباً هو طبيعتها الزائلة بسرعة، وكونها من الاحداث المستعصية على التنبؤ حتى الان.

ان كل مالدينا من معلومات قليلة حول هذا الموضوع هو نتاج دراسات بسيطة، ضيقة، منها على سبيل المثال، دراسة البدع والمودات في بعض المدارس المتوسطة في ضواحي (نيويورك) في شتاء (١٩٤٥ ـ ١٩٤٦) حيث وجد ان الفتيات كن يرتدين قميصاً ثخيناً مخططاً من الصوف، وكان معظمهن يطوين سراويلهن حتى الركبة. اما الاولاد فقد كانوا ينقسمون الى ثلاثة اصناف :

١ ـ الصنف الاول خاضع للعرف الاجتماعي متأنق في لباسه.

٢ ـ الصنف الثاني وهو غير متأنق يرتدي اغلبه سراويل بحارة من النوع الرخيص، وقد يرتدي قميصاً مخططاً.

٣ ـ الصنف الرياضي الذي كان يرتدي (فانيلة) ذات النصف ردان او سترة رياضة يشير لونها الى الفريق الذي ينتمي اليه.

لقد وجد باحثوا هذه الظواهر في هذه المدارس ان البنات اكثر تعاطياً للبدع في الملابس من الاولاد. وعلى كل حال، فان دراسات

من هذا القبيل كشفت لنا ان هذه البدع والمودات تجـري في اطار الآداب العامة المحلية ، الجماعية وتتأثر بها قوة وضعفاً .

كما ان هناك بعض الدراسات القليلة عن اصول ومصادر البدع الوقتية العابرة ، حيث يرى هؤلاء الباحثون ـ على قلتهم ـ ان مصادرها تمتد الى زعماء الطراز المحليين الذين هم الرواد الاوائل في هذا الباب او الى اعلانات الصحف والمجلات .

اما مايتعلق بالاجابة على سؤال : لماذا تظهر هذه البدع ، وتجتذب انتباه واولاع الناس وتنتشر بينهم ؟ فقد كان كثيراً مضطربا ، لعل من المفيد ايـراد بعض ما ينطوي عليه من فرضيات ، تؤكد على بعض العوامل ، فيما يلي :

١ ـ الجدة ، فلأ جل ان تنجح البدعة يجب ان تتسم بسمة الجدة والاصالة ، مما يؤكد ان هذه البدع لا يتكرر ظهورها الا اذا اجري فيها تغيير كبير .

٢ ـ انسجام هذه البدع مع الزمن وتمشيها معه والا خابت ، ولم تنتشر ، فللسلم بدعه ، وللحرب بدعها ، وللكساد الاقتصادي بـدعه ، وللازدهار الاقتصادي بدعه التي تنسجم واياه ، وهكذا .

٣ ـ ان البدعة يجب ان تنسجم مع واقع منتشر عادة او مع نمط من انماط الدفع .

٤ ـ ان الاعلان والنشر يلعبان دوراً كبيراً في شيوع وانتشار هذه البدع بالرغم من طبيعتها الموقتة العابرة . فنشر صور بدع الملابس في المجلات يؤدي الى شيوع هذه البدع بين القراء الى حد ما .

٥ ـ ان الحضارة المتغيرة بسرعة ، كالحضارة الامريكية ، مثلاً ، تكون ، على ما يظهر ، وسطاً خصباً لهذة البـدع ، خصوبتها للضروب

الاخرى من السلوك الجمعي ، كالافتتانات ، والحركات الاجتماعية ، وسلوك الكتلة ، والمودات والظواهر الجمعية الاخرى . ونحن لاندري فيما اذا كان هذا الامر دالة الملل وضعف المعنويات في المجتمع المعقد الحديث ام هو دالة الازدهار الاقتصادي ، او الفتوة المضطرمة او الروح الرائدة ، او الحرية من التقنين والضبط الشكلي الجامد . وعلى كل حال فان البدع طبيعة لازمة في الحضارات المعقدة المتغيرة بسرعة ، وكثيرة الحدوث ، وخاصة في المراكز الحضرية الكبرى (٢٣) .

هـ - الافتتان او الهوس الاجتماعي [CRAZE] والمودة :

يعرف البحاثة « بنروز L. S. Penrose » هـذه الظاهرة الجمعية كما يلي : ان الفكرة الجديدة التي تصبح فجأة مهمة في حياة الهيئة الاجتماعية والتي لاتعرض ، مع ذلك ، النظام الاجتماعي القائم الى اضطراب محسوس يمكن أن تسمى (الهوس او الافتتان الاجتماعي Craze). ان الامثلة في هذا الصدد كثيرة منها طغيان لعبة جديدة ، او اسلوب تسلية جديد يصبح شائعاً بين عشية وضحاها ، ومنها لغز الكلمات المتقاطعة ومايستجد من مودات في الطعام وملابس الرجال والنساء وما شاكل . ان لبعض انواع هذه الظاهرة دورية (Periodicity) تتوقف على فصول السنة . كما أن بعض ضروب هذه الظاهرة ماهي الا تعظيم وتكبير لبعض الفعاليات التي هي جزء من الحياة السوية المعتادة لاعضاء الهيئة الاجتماعية (٢٤) ان مفهوم الافتتان هذا دائماً مايرد مترابطاً مـع مفهوم البدع الموقتة

(23) - Sargent , Op . Cit . , pp . 392 — 393 .

(24) - See L . S . Penrose , On the Objective Study of Crowd Behavior (London : H . K . Lewis and Co . , 1952) , p . 18 .

العابرة (Fads) ، وهما ظاهرتان قريبتان من بعضهما البعض من حيث الشبه الى حد كبير .

يؤكد « ترنر » و « كليان » على ان هاتين العبارتين - اعني البدعة العابرة والافتتان - تشيران الى انشغال الناس انشغالاً استثنائياً بوجهة نظر معينة واحدة ، وبموضوع ولع واحد ، أو بخط سلوك ، لمدة محدودة . ان هذا الانشغال والانهماك يكون استثنائياً في شدته ، وفي وحدته التي يظهر بها ، وفي عدد الناس الذين ينتظمهم هـذا الانشغال والانهماك (Preoccupation) .

ان دراسات هذه الافتتانات والبدع المـوقتة لمدة طويلة لابد وان تكشف ان هذه الافتتانات تكثر وتتعدد في اوقات الازمات التي تواجههـا الجماعة ، ان كثرة الافتتانات الانعاشية في اوقات مثل هذه الازمات من شأنها أن تحول الانتباه عن المشاكل الراهنة التي تواجهها الجماعة .

ان ظواهر الافتتان والبدع الموقتة هذه تحدث في حقول وميادين كثيرة من السلوك ، ومن هنا كان منها ماهو انعاشي ومنها ماهو جدي يحدث في ميادين العمل والنشاط ، وعليه فهناك افتتانات وبدع موقتة في مجالات التسلية ، وافتتانات وبدع موقتة في لغة المراهقين ، وافتتانات في الموسيقى ، وماشاكل . ان الافتتان من شأنه أن يجعل من يشترك فيه يوحد نفسه مع المشتركين في مايسمى بجماعة نحن او الجماعة الداخلية (In - group) . ومن هنا يشعر الفرد بشيء من النفوذ وبشيء من التدعيم الاجتماعي . ان الذين يسهمون في الافتتان ينمون فيما بينهم مشاعر الجماعة الداخلية ويكونون عادة عبارات خاصة يطلقونها على الجماعة الخارجية (Out - group) .

ان من هـذه الافتتانات ما يسمى بجنون الخـزامى في هولندا (Holland Tulip Mania) حيث بلـغ ثمن زهرة الخزامى اكثر من

وزنها بالذهب ،ومنها ازدهار الارض في « فلوريدا » (Florida land boom) وماشاكل حيث تبلغ قيمة الشيء الذي هو موضوع الافتتان مبلغاً خيالياً . ان الخزامى ما كانت تشترى لتقتنى ، وانما كانت تشترى لتباع بين هؤلاء المرابحين من المفتتنين . وكذلك كانت الارض تشترى في « فلوريدا » لتباع بسعر اغلى ، وهكذا، دون ان ترى الارض في اغلب الاحيان .

غير ان انهيار السوق الخيالي في هذه الميادين ، واللجوء الى تسعير الشيء على اساس من فائدته واستعماله ، من شأنه ان يحطم الافتتان وينهيه .

والواقع ، ان كثيراً من المخاوف الجمعية، والاعتقاد بمفعول وتأثير بعض الادوية ، وطغيان موجات مشاعر وافكار جماعية وما شاكل هي ذات طبيعة او صفة افتتانية ان من هذا القبيل فكرة (التركي العنيد) عند الغربيين ، او (الرعب الاحمر) خلال العقد الثالث من هذا القرن وما شاكل . ان من الافتتانات ما يوجد للمخروج على حدود ومستلزمات الطرق الشعبية والآداب العامة من قبيل الاستعمال الشائع في الكليات الامريكية الذي يدعى (Panty - raids) .

ان من الملاحظ بأن هناك ميلاً غالباً للتأكيد على نشر الافتتانات بين المراهقين ، وبين الاشخاص المنعزلين نوعاً ما عن الوجوه المستقرة من المجتمع . وعلى اساس هذا النوع من التأكيد فقد نسجت نظريات راحت تعزي يسر التعرض للافتتان الى اسباب منهـا : تباين القيم وتعارضها (Value - Conflict) ،وانعدام الاطمئنان الشخصي (Personal insecurity) والامتلاخ او التجرد او الانفصال الاجتماعي (Social detachment) وما شاكل . ان مما لاشك فيه ان بعض الضروب من الانعزال الاجتمـاعي تيسر تعرض بعض الاشخاص للافتتان ،

في حين انها تقوي مقاومة الافتتان في بعض الاشخاص وعلى كل حال ، فان اختبار الوضعيات التي تيسر انتشار الافتتان لايبرر استلزام او ضرورة وجود درجة كبرى من الانعـــزال او انعدام الطمأنينة لحدوث السلوك الافتتاني .

لقد ذهب فريق من الباحثين الى ان التغير الحضاري انما يتم ويستمر بحدوث الاختراعات وطروء ما هو جديد من الافكار او الاساليب الفنية وما شاكل . ان مثل هذه المخترعات والامور الجديدة من شأنها ان توجد امكانات جديـــدة غير مطروقة ولا معروفة من قبل . ومن هنا يندفع الناس لاستعمال هذا الجديد بأساليب وطرق متعددة . حتى اذا استنزف الناس جميع هذه الامكانات هبط عادة منحنى الاقبال عليه . ان هذا بالطبع يمثل لنا منحنى الافتتان والولع فيه ولا يفسر لنا نشوء الافتتان نفسه .

إن معارضة البدع العابرة المؤقتة او عدم المبالاة بها والاكتراث لها لا يمكن ان يواجها بالتجاهل والتغافل عنهما . هذا ومع ان بعض ظواهر الافتتان هي ظواهر تنافسية بصورة واضحة (من قبيل مثلاً ازدهار العقارات) ، إلا انها مع ذلك تكون مصحوبة بصورة عامـــة بمحاولة اجتذاب الناس إليها ، وبتوقيع عقوبات على من يقاومها او يقاوم دعوة الانصياع اليها ، والانسياق في تيارها .

إن هذا الموقف ـ موقف اكتساب أعضاء جدد يتبنون الافتتان ـ هو في الواقع جزء اساسي في استمرارية الافتتان ، وتبرير سلوك المفتتنين به . وفي بعض الاحوال يكون نفوذ الاسهام في الافتتان الاخير (او في آخر افتتان) مهماً في حفز ودفع المفتتن على تبني الافتتان والانسياق في تياره . والواقع إن الافتتان لا يستتبع نفوذاً إلا اذا تبعه عدد كاف من الناس ،

ففي عملية المضاربة بالارض ، مما يؤدي الى شيوع ازدهار الارض ، انما تقرر الارباح التي يحصل عليها كل من يسهم في عملية الازدهار هـذه بعدد الذين يشتركون في هذه المضاربات . هذا ولعل رابطة نفوذ الافتتان بعدد المفتتنين به تكون اوضح في تلك الافتتانات التي يتحدى بها المفتتنون الآداب العامة والحدود العرفية في المجتمع او الاوامر والنواهي الاجتماعية حيث تكون العضوية في جماعة كبيرة مفتتنة بنفس الافتتان واقية للفرد من ان ينهمك في نقد نفسه على اساس من الحدود العرفية المرعية في المجتمع . على كل حال ، فان مـا يحصل عليه المشترك في الافتتان من مكافئات وعوائد (Rewards) مادية ونفسية تتوقف على تبني الاخرين للافتتان ، وعليه فان هـذه العوائد تتضائل وتنعدم عندما يبدأ التمسك بالافتتان يضعف ويتلاشى .

ان عدم التسامح مع غير المفتتنين والتعصب ضدهم يحقق على الاقل مهمتين في هذا الضرب من السلوك الجمعي :

١ ـ استجلاب اعضاء اكثر يتبنون الافتتان .

٢ ـ حماية المفتتن من ان يرى سلوكه بعيني غير المفتتن ، مما يؤدي الى تثبيطه عن تبني الافتتان . ان اعتبار الخارج عن الافتتان شخص لايدري بما يجري ، من شأنه ان يحول دون ارجاع المفتتن على احكم هذا الخارج على الافتتان . او اعارته أية أهمية او الالتفات إليه . يتبين من هنا ان الافتتان يشبه الجمهور من ناحية ان النـاس في كليهما يكونون جماعة داخلية ازاء الجماعة الخارجية ، ان هـذا الفصل والتباين من شأنهما ان يعزلا المشترك في السلوك عن تأثير غير المشترك فيه .

ان مما يجب ان يشار اليه في هذا الصدد هو ان البدع المؤقتة والافتتانات (Crazes) قد تظهر كوجوه في بعض السلوك المنظم من قبيل المساعي

الاقتصادية مثلاً (حيث يظهر ازدهار الارض) ومن قبيل بعض البحوث العلمية (٢٥).

ان الانهماك في هذه البدع (Fads) الموقتة في ميادين الصحة والرفاهية وتحسين العيش وفي مجالات كثيرة اخرى من شأنه ان يكون مدعوماً بايديولوجي ينطوي على المبررات وعلى التعليمات الخاصة بكيفية تحقيق هذه الممارسات اهدافها في حياة الشخص . . ان من أمثلة هؤلاء الابداعيين جماعة اسموا انفسهم(التنشيطيين) منذ سنة ١٩٤٨ في الولايات المتحدة الامريكية . لقد كان هدف هؤلاء التعبير الحر غير المكفكف عن النفس في مجالات الرياضة والرقص والفن والكتابة والأدب ، لقد كان هدفهم التعبير الذاتي غير المردوع (٢٦) .

الواقع ، إن علماء النفس الاجتماعي وعلماء السلوك الجمعي والحركات الاجتماعية قد وجهوا اهتمامهم الى هذه الاندفاعات الموقتة التي هي من قبيل الافتتانات (Crazes) اكثر من اهتمامهم بالبدع الشخصية الموقتة (Fads) ان هذه الافتتانات نبضية ، مفاجئة تنتشر آنياً بين الناس وتطغى عليهم بسرعة كالنار المستعرة في الهشيم ، لمدة قصيرة ، ثم تنحسر عن المسرح وتزول ، ان هذه الافتتانات قد تكون عامة أحياناً ، وقد تكون ضيقة خاصة بجماعات معينة . لقد كان بعض المراهقين في امريكا يلفون سراويلهم ويطوونها حتى الركبة ، ومنهم من كانوا يحفظون دراهمهم في احذيتهم في شق يعد لهذا الغرض ، ومنهم من كان يرتدي قميصاً نقش عليه اسم صديقه ، ومن هذا استعمال الاربطة التي تحمل الحرف الاول من الاسم وما شاكل من ممارسات عابرة .

---

(25) - Turner and Killian , Collective Behavior , p . 211 .

(26) - S .S . Sargent . Op . Cit . , p . 39 .

لعل من الضروري في هـذه المرحلة من البحث ان نميز بين البدعة من هذا النوع وبين الافتتان (Craze) . ان الافتتان هـو اعم واشمل واقوى عادة من البدعة . وبدلاً من ان يتركز الافتتان حول الطعام واللباس والتعابير ، كما هي الحالة في البدع الموقتة ، فان الافتتان يتميز بالحماس والاندفاع الجارف الذي يشبه وباء الحمى ، ويكون عادة فعالية تستهلك أكثر وقت الشخص ونشاطه ، وينتشر عادة بين الناس بسرعة مفرطة جداً . إن من أمثلته ، الجهاد المقدس في الحروب الصليبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، وجنون السحر الذي شاع في اوربا في القرنين السادس عشر والسابع عشر (٢٧) ، وافتتان الرسائل المسلسلة التي تميز بها القرن العشرون .

لقد طغى على الولايات الامريكية سنة ١٩٤٤ إفتتان مداره المغني المشهور « سناترا Frank Sinatra » الذي أصبح معشوق الملايين والذي صار الناس يتزاحمون على المسارح التي يظهر عليها والافلام التي يغني فيها . يخبرنا الذين كتبوا عن هذا الافتتان ان الفتيات دون العشرين من العمر بصورة خاصة كن يقفن الساعات الطويلة منتظرات دورهن لدخول المسرح الذي يغني فيه « سناترا » فاذا دخلن بقين هناك يسمعنه لعدة مرات ، وكانت الرسائل تنهال عليـــه بالملايين من المعجبات والمعجبين . وكانت النساء تتزاحم في المحلات العامة على صوره لتقبلها بحيث كان ذلك يؤدي الى كثير من الاضرار الصحية كالكسور والرضوض ومـا سواها . واذا حدث ان لاح « سناترا » في شارع او من باب فندق تجمهر الناس من حوله على شكل هجوم ليحصلوا منه على زر من أزراره او قطعة من ملابسه او

(27) - K. Young, Source Book for Social Psychology (New York : Alfred A. Knopf , Inc . ,1928) , Chap . XXIV , Mental epidemics.

قبعته او منديله ليحتفظوا بها تذكاراً له . وحدث مرة انه احتك عند مروره وسط هذه الجماهير المحتشدة بزند فتاة فأحاطت الفتاة موضع الاحتكاك منها به بلفافة لمدة اسبوعين احتفاظاً منها بأثره لئلا يمسه شخص آخر . إن إلتزامنا الايجاز يفرض علينا الكف عن التفصيل في آثار ووجوه هذا الافتتان فاذا اردت الاطلاع فارجع الى كتاب « كاهن Kahn » (٢٨) في هذا الموضوع وهو مجلد ضخم ، يتناول فيه المؤلف كثيراً من وجوه هذا الافتتان ، ومنها صيرورة « سناترا » صنماً او معبوداً يحتذى في ميادين كثيرة من النشاط البشري ، منها مثلاً ، انتخابه « روزفلت » لرئاسة الجمهورية حيث حذا حذوه كل المعجبين به في انتخاب « روزفلت » أيضاً لتعلقهم به .

ان بعض الافتتانات (Crazes) والازدهارات (Booms) تدور حول الاثراء الفاحش السريع . ان من هذا القبيل الاندفاع وراء الذهب في كاليفورنيا حيث اندفع الملايين اليها من كل بقاع الولايات المتحدة الامريكية بحثاً الذهب المتصور فيها وذلك على أثر شيوع الاخبار سنة ١٩٤٨ ـ ١٩٥٠ حول اكتشاف وجود الذهب فيها ، حيث ادى الامر أولاً الى اثراء قلة من الناس أثراءاً فاحشاً . كما أدى الى إفلاس عدد من كبار الاثرياء والتجار حيث اصبحوا من المعدمين لوضع ثرواتهم في هذا المشروع ، ومنها ايضاً ازدهار الارض في فلوريدا حيث بلغت قيمة الوحدة القياسية من الارض هناك حداً لا يتصور أبداً ، ثم انفجرت الفقاعة فعاد الازدهار على من اسهموا فيه بكوارث مالية فظيعة خلال العشرينات من هذا

(28) - E . J. Kahn , Jr . , The Voice ; The Story of an American Phenomenon (New York : Harper and Brothers Inc . , 1947) .

القرن . ومن هذا القبيل ايضا جنون البحث عن الذهب في ولاية (كاليفورنيا) سنة ١٨٤٨ وجنون البحث عن الماس في جنوب أفريقيا سنة ١٨٨٤ .

ان من هذه البدع والافتتانات التي انتشرت كالوباء في الماضي القريب (الهيلاهوب) ورقصة (الروك أند رول Rock and Roll) ، وألغاز الكلمات المتقاطعة ، وانهماك اصحاب الحدائق في بغـداد حديثاً باقتناء (الجهنميات) ، وما شاكل من إفتتانات .

يحدثنا البحاثة « ماك كي Mac Kay » عن افتتان بكلمة شاعت في انكلترا في أواخر الربع الاول من القرن العشرين ، كان يستعملها الناس في كل مناسبة تقريباً فتثير الضحك وتفحم المقابل وتثير عليه السخرية والازدراء بـه . فاذا حدث ان دخل مفكران في جدل ووجد احد الطرفين نفسه عاجزاً عن مجاراة الاول لأحاطته التامة بالموضوع ، وبراعته والمعيته ، فما عليه إلا ان يوجه له هـذه الكلمة ، ذات المقطع الواحد ـ أعني كلمة (Quoz) ـ ، فيهزمه في الميدان ، ويجعله في حيرة من أمره ، موضع سخرية من قبل الحاضرين ، ونهبة لمشاعر الخيبة والاهانة والاندحار . انها تعني ، وحدها : انك لا تفهم ، وانك لا تستطيع مجاراتي في هذا الميدان وانك بليد جاهل لا علم لك بهذا الموضوع ولا أدب ولا لياقة ، بل انك مجرد من كل ما يتميز به الانسان الفاضل . هذا ويؤكد « يونگ » انك لا تكاد توجه نظرك الى جهة في المدينة فلا ترى هذه العبارة قد كتبت في مكان ما على الاسيجة وجدران البيوت والمخازن ومنعطفات الشوارع وفي كل مكان ، كما انك لا يمكن ان تسير في شارع او تقف في مكان فلا تسمع هذه الكلمة تردد عشرات المرات بمناسبة وبغير مناسبة (٢٩).

(29) - C . Mac Kay , Memoirs of Extraordinary Popular Delus - ions . (London : Routledge , 1856) , Vol . II , pp . 240 — 244 .

إنني لأذكر شيوع عدة كلمات في العراق من هذا النوع ، كما اذكر شيوع كلمة (طز) ، ولعلها محرفة عن (Quoz) الانكليزية هذه ، فترة من الزمن بين سكان الحواضر العراقية .

غير ان هذه الكلمة وامثالها قد هجرت بعد ان شاع استعمالها زمناً قصيراً وفاتت فصولها ومواسمها ، وفقدت جاذبيتها وطلاءها بين الناس وحلت محلها عبارات أخرى ، لتزول من الميدان أيضاً بنفس الطريقة وبنفس الاسلوب .

إن من هذا القبل شيوع عبارة (هل باعت أمك مكواها ؟ !) ، ولكن هذه العبارة لم تنتشر انتشار العبارة التي اشرنا اليها من قبل ولا دامت دوامها لأنها ، على ما يظهر ، لا يمكن ان توجه للكبار من الناس ، وهم نسبة عالية من السكان .

ولكن تأريخ الافتتان والمودة لا يعرف عبارة نافست عبارة (احترق Flare up) من حيث امتداد شهرتها ورسوخها بين الناس ، وطول او امتداد عمرها بحيث مرت مودات كثيرة اخرى في هذا المجال ولم تستطع اقتلاعها من الجذور . لقد استمرت هذه العبارة الى يومنا هذا في الاستعمال الدارج بين الناس . لقد ظهرت هذه العبارة أول ما ظهرت بهذا الشكل في وقت جماهير التعذيب الاصلاحية التي تعرضت لها انكلترا عندما شبت النار في (برستول) واحرق ما يقارب من نصفها من قبل الجماهير الغاضبة المجنونة التي كانت تحتدم غيظاً . لقد كانت النيران تشب (Flare up) وتلتهم المدينة المقدسة المحترمة . ونحن لاندري ان كان هناك شيء من هذا الحدث الهياجي الهائل قد علق بجرس هذه الكلمة او بمدلولها او بالفكرة التي تنطوي عليها ، ومهما كان الأمر ، فان ما هو ملحوظ ان هذه العبارة كانت تدغدغ خيال الجماهير والغوغاء بشكل قوي

مؤثر، بحيث انها طردت امامها كل العبارات العامية التى سبقتها، بحيث انك لم تكن تسمع عبارة تردد بهذه الغلبة وهذا الاطراد في كل (لندن) مثل عبارة (احترق او توهج). انها كانت تجيب على كل سؤال، وتنهي كل خصومة، وتستعمل مع كل الاشخاص ومن قبل كل الاشخاص على السواء، وفي كل المناسبات ولكل الامور والاشياء، وفي مختلف الاحوال، بحيث اصبحت فجأة العبارة التى هي أعم واشمل العبارات إطلاقاً في اللغة الانكليزية فمن يتعدى حدود اللياقة والادب في كلامه يقال عنه (احترق او توهج) ومن تردد كثيراً على حانة الخمر فأفلس من جراء ذلك، قيل عنه (احترق او توهج)، وتقال لمن صرف نفسه في هواية او ركز نفسه في هوى، ولمن تمشى مساءاً ليشم النسيم فأزعج الجار، ولمن يقلق الآخرين ويخلق لهم مشاكل بأي شكل كان، ولغير هؤلاء وفي غير هذه الملابسات فاذا اختصم عشيق مع حبيبته قيل عنه انه (شب اواحترق او توهج) وتقال عند مشاجرة اثنين في الشارع، ولمن يحرض الامة على الهياج او الثورة، وهكذا. لقد اصبحت هذه الكلمات محور افتتان مفرط بحيث اصبح الناس يحبون اعادتها وتكرارها باستمرار للتلذذ بها وبسماع جرسها. ان السكران الملتخ، يعيدها بين حين وآخر وهو في طريقه الى البيت ليلاً، وكذلك الحارس الليلي يلجأ إليها ليخفف من وحشته ووحدته، ويقولها الشرطي عندما يجد سكراناً ملتخاً ملقى على قارعة الطريق، ويرددها المحتجزون من السكارى في مراكز الشرطة عند وفود محتجز جديد عليهم، مرحبين به بنفس العبارة صارخين سويه في تحيته (Flare up). هذا ومع ان العبارة قد تركت للاطفال مؤخراً، ثم انغمرت، الا انها لا تزال تستعمل حتى اليوم في لغة القوم فيقال

(شب او شبت) اذا اندلعت النار مباشرة او حدث اضطراب ما او داهم سوء .

ان من العبارات الاخرى التى شاعت وانتشرت في انكلترا بين الشبان في فترة من فترات التأريخ الانكليزي العبارة التهكمية التالية : (هل تدري أمك انك خارج ؟) ، اذ كانت تقال تهكماً وازدراءاً بالشبان الذين لما يبلغوا مرحلة الرجولة بعد ولكنهم كانوا يرتدون شوارب مستعارة ويدخنون الدخائن ويحاولون ، تصنعاً ، ان يسلكوا سلوك الرجال وان يظهروا بمظاهرهم . لقد كان يكفي ان تقال له هذه العبارة ليعرف حقيقته ويرجع الى واقعه ، عندما تمر بجانبه أمرأة فينظر اليها نظرة مفترسة من أعلاها الى أسفلها ، حيث يولي متصاغراً عند سماعه هذه العبارة . ولطالما نشب العراك في الشارع بين اثنين على اثر استعمال هذه العبارة التهكمية المثيرة التى تعني فيما تعني : انك لا تزال طفلاً قليل التجربة ولا يصح ان تترك حراً في الشارع دون رعاية الأبوين .

إن القراء العرب لا بد وان ألفوا كثيراً من هذه البدع الكلامية المحلية التى تطغى في استعمالها بين الناس فترة من الزمن ثم تزول او يكف عن استعمالها الناس بذلك الاطراد والتواتر .

وعلى كل حال ، فان هذه الاندفاعات والافتتانات هي من ضروب المودة التي تزدهر بشدة وافراط لمدة قصيرة حيث يهتاج الناس ويتحمسون لما يطرأ من جديد عابر يتعلقون به او يسعون لأقتنائه وتملكه او التمتع به والهيام فيه . ان التعلق الحماسي والهيام الاخاذ بهذا الجديد يتخذ شكل جنون جماعي وهياج عاطفي سرعان ما يبلغ الذروة من الاشباع في وقت قصير ، حيث يبدأ الناس بنبذ هذا الجديد ، وهجرانه ، والملل منه ، وتركيز ولعهم في جديد يليه .

ان عنصر الزمن هو من أهم معايير هذه الاندفاعات حيث لاتستمر هذه الاندفاعات طويلاً عادة . ان المـــودات هي الاخـرى - بالطبع - تتميز بارتباطها بأولاع عابرة غير ان حياة المـودة هي اطول بكثير من حياة هذه الاندفاعات العابرة . هذا ولما كان المعيار الزمني الدقيق الذي يمكن ان يركن اليه في التمييز بين المودة وبين هـــذه الاندفاعات غير معروف ولامقنن لحد الان كان التمييز بينهما اعتباطياً الى حد كبير .

ان مما يمكن ان يؤكد عليه بهذا الصدد هو ان هذه الاندفاعات هي اولاع (Interests) من مؤداها ان يندفع في تيارها متعلقون ، وان تطغى بين فئة من الناس على شكل مـوجة عـارمة من التعلق الجنوني ، ثم يفتر التعلق وينعدم الحماس ، وقد يجدد التعلق احياناً بعد مدة من الزمن ، من قبيل شيوع وطغيان مايلي مثلاً بين الناس واشتداد تعلقهم به : من قبيل الحياكة ، وركوب الدراجات ، والولع بالمهازل الموسيقية او الملاهي الموسيقية (Musical Comedies) ، ولعب لعبة كرة المنضدة وما شاكل .

ان هذه الاندفاعات هي في حركة مستمرة من الظهور والاختفاء لأن الناس ميالون دائماً لما هو جديد ولما هو مختلف عـما هو راهن ليجدد فيهم وينعش اولاعهم التي توشك ان تضعف وتموت ، اذا هي بقيت تخبر وضعية واحدة أكثر من المعتاد .

والواقع ، ان روحية عصر ما انما تعبر عنها هذه الاولاع العابرة المتجددة التي تسبغ على الحياة الرتيبة المملة حلاوة التنوع وبهجة التغير والتباين .

اننا اذا انفذنا النظر الى ما تتوخاه هذه الاندفاعات وجدنا ان وراء كل اندفاع هدفاً يبتغيه ويرمي اليـه او يستهدفه ، وربما كانت مجموعة من انواع الاندفاعات في حقبة من الزمن تتوخى نفس الهدف وتحوم حوله

ان من الملاحظ ان عدداً من هذه الاندفاعات في زمننا هذا يدور حول (الزهو الجسماني وجمال البدن وقوته) . ان من مظاهر هـذا الهدف ما نراه من شيوع مسابقات التحمل التي تبرهن قابلية الفرد على تحمل المشاق والصعاب من قبيل سباق الدراجات لمدة ستة أيام ، او الهرولة لمسافات طويلة في بعض الاحيان لمسافة ٢٦ ميلاً وهـو مـا يسمى بسباق « ماراثون » (٣٠) وما شاكل من سباقات تمتحن بها قابلية الافراد على التحمل والمثابرة . ان من هذا القبيل ايضاً السباقات التي تجري لمعرفة من هو الذي يستطيع ان يأكل أكبر عدد من نوع خاص من النواعم في وجبة واحدة ، او يأكل أكبر عـدد من البيض ، او السمك او الكباب او ما شاكل . ان سباقات من هذا النوع كانت تجري في أمريكا وكان بعض المتسابقين يتسابقون في ابتلاع الديدان والحيات والجراند والمجلات وما شاكل مما هـو مضر بالصحة ، وكانت الجرائد تنشر اسماء أبطال هذه السباقات كل يوم . أن من بعض هذه السباقات سباق شرب أكبر كمية من القهوة ، او البقاء من دون نوم لأطول مدة او تدخين أكبر عدد من السكاير في مدة معينة ، وماشاكل من تفنن في هذه السباقات التي كان العراقيون ولا يزالون يمارسون اشباهها في مناطق مختلفة من العراق ، كالتسابق في أكل اكبر كمية من البقلاوة او القيمر او اكبر عدد من البرتقال ، او اكل رمانـة كبيرة بكاملها دون ان يسقط منهـا المتنافس حبة واحدة على الارض على ان لا يستعمل في ذلك غير يد واحدة فقط ، وما شاكل .

إن هذه الاندفاعات تطغى في كل ميادين الحياة تقريباً . ففي ميدان

---

(٣٠) يسمى هذا السباق بسباق « ماراثون » تخليداً لذكرى الاغريقي الذي أسرع من « ماراثون » الى اثينا ناقلاً نبأ النصر .

الصحة مثلاً يلتجأ الذين يعتقدون بأنهم مصابون بمرض ما ـ وان لم يكونوا كذلك ـ الى الألتزام بعادات طعام سخيفة تافهة او الى تناول اطعمة لا تنفعهم في هذا الصدد اعتقاداً منهم بانهـا تشفيهم من عللهم وتزيد في نشاطهم . ان من امثلة هذه الأندفاعات ما نشره Dr . James H . Salisbury » في منتصف القرن التاسع عشر حين ادعى بأن اصح الطعام هو ما تكون من لقمة واحدة من الخضروات ولقمتين من الأغذية الحيوانيـة فقط . لقد زعم هـذا الرجل ان الغذاء الذي يشفي الأنسان من كل مرض هو ما تكون من كميات معينة من اللحم الخالي من اي سمن ومن الماء الحار . ومن الأندفاعات ما قام حول الأعتقاد بأن اللبن يطيل العمر حيث صار الناس يتنافسون في كميات اللبن التي يتناولونها حتى بلغت الكمية ثلاثة « كالونات » في بعض الحالات . لقد كان من الأندفاعات التي شاعت في اوائل هذا القرن في امريكا مثلاً عادة مضغ الطعام مضغا جيداً جداً قبل ابتلاعه . لقد ذهب المتفننون في هذا الباب الى الزعم بان الأنسان يجب ان يمضغ كل لقمة اثنين وثلاثين مضغة لأن له اثنين وثلاثين سناً . فاذا حدث ان كانت بعض الأسنان غير موجودة عند بعض الناس فيجب عند ذاك ان يزاد عدد من المضغات معينة بدل كل سن مفقود . لقد كان « William James » احد اقطاب علم النفس ، احد الذين تعلقوا بهذا الأندفاع حيث مارسه لمدة ثلاثة أشهر ثم اقلع عنه قائلاً : لقد كاد هذا المضغ ان يودي بحياتي . لقد اعتاد هؤلاء المندفعون ان يقوموا حتى بمضغ الحليب . لقد عاف هؤلاء كل انواع الطعام التي لا يحيلها المضغ المفرط الى حالة السيولة .

ومن هذه الأندفاعات ايضاً الدعوة الى تعاطي الحبوب بصورتها الطبيعية وتناول الطعام من غير طبخ على اساس ان الله لم يخلق الأنسان ومعه مطبخ

لطبخ طعامه ، بل كان هذا الأنسان يأكل الغذاء الطبيعي كما هو . لقد كان هذا الأندفاع وجهاً من وجوه الدعوه الى الرجوع الى الطبيعة . وعلى هذا الأساس بدأ حتى العقلاء من الناس يتناولون في طعامهم على الأقل شيئاً من هذه المواد الطبيعة الخام ، كما هي من دون طبخ ، مما أدى الى كثير من امراض المعدة والأمعاء . وعلى كل حال فان المندفعين في هذا الأندفاع كانوا قد انشعبوا الى شعب منها : الفاكهيون الذين تعلقوا بالفاكهة كغذاء طبيعي ، ومنها الذين تعلقوا بأكل الجوزيات وما إليها من لوز و(بندق) وما شاكل ، وهكذا .

ان من هؤلاء « الاندفاعيين » في ميدان الغذاء هم النباتيون الذين يذهبون الى أن المبادىء التي يقوم عليها سلوكهم في الغذاء هي ذات مضامين خلقية وغذائية ، ان هؤلاء النباتيين يصرون على أن الاغتذاء على اللحوم ينطوي على فعل غير انساني في ابادة الحيوانات ، وان اكل اللحوم يؤدي الى تكوين خصائص القسوة والوحشية عند الذي يتناولونه . لقد ذهب بعض الغلاة من هؤلاء النباتيين الى أن استمرار الناس على اكل اللحوم سيؤدي في النتيجة الى انقراض الانسان . لقد عاف المطترفون من هؤلاء حتى تناول البيض والحليب ، وذهبوا الى أن تناول الحليب باستمرار بكميات كبيرة يؤدي الى أن يكون دماغ الانسان وعقليته دماغ وعقلية بقرة .

كما أن الاقلال من اكل الموز وتناول بعض العصائر كان قد شاع بين بعض النباتيين أيضاً . وذهب بعضهم الى أن الجمع بين النشويات والزلاليات في الطعام أو بين السمك والحليب أو بين الفواكه الحامضة والحليب هو ذو آثار ضارة في الصحة ، وذهبوا في تعليل ذلك مذاهب شتى . ليس هذا وحسب بل أن بعض هؤلاء الاندفاعيين كانوا يعتقدون بأن تناول ملعقة من الرمل كل يوم يومياً هو أمر مفيد من الناحية الصحية .

ان بعض هؤلاء الاندفاعيين ينهمكون في التمارين الرياضية بغية بناء

عضلات ضخمة في حين أن آخرين ينهمكون في ما يسمى بالحمام الشمسي الى درجة أن البعض منهم يعتقد بأن التعرض الى الشمس يشفى من كل داء .

ان الاندفاعات لا تقتصر على الميادين المارة الذكر بل أنها تشيع في ميادين كثيرة الاخرى ، فالالعاب والتمارين الرياضية وحل الالغاز المختلفة وما شاكل هي من هذه الميادين . ان مما يشيع عادة انباء الكساد في بلد ما ، تنمية خطط للكسب السهل ، والثراء السريع في بعض الاحيان ان من هذه الخطط الأفتتان بالعاب الرهان من قبيل سباق الخيول وسباق الكلاب وشيوع لعبة (البنكو Bingo) وما شاكل من خطط والعاب يتعلق بها الناس تعلقا طوبائياً . لقد شاع الأفتتان والهوس الاجتماعي بما يسمى بالرسائل المسلسلة (Chain letters) في ربيع سنة ١٩٣٥ في امريكا ، وطغى منها على اغلب بقاع العالم يومذاك . ان الايحاء يلعب دوره في هذه الضروب من الجنون الجمعي التي كان من امثلتها ضروب جنون الرقص التي انتشرت في القرن الرابع عشر ، والانبعاثات الدينية التي طغت في القرن الثامن عشر ، وما طغى على اتباع « وليم ملر William Miller » سنة ١٨٤٠ في امريكا من الاعتقاد بقرب نهاية العالم وظهور المسيح في حينها مما أدى الى ارتفاع سعر الحرير الابيض ارتفاعاً خيالياً في نيويورك من جراء اقدام هؤلاء الاتباع على شراء الحرير لارتدائه عند لقاء المسيح .

لعل ميدان الفن هو من اكثر الميادين معاناة لهذه الظواهر . ففي حوالي سنة ١٩٠٨ طغت طريقة التكعيب أو المكعبات في الفن ـ تلك الطريقة التي يتزعم حركتها فنان اسباني اسم « پابلو پيكاسو Pablo Picasso » الذي قاد الحملة ضد الذين يلتزمون الامور كما هي داعياً الى الأمور والأشياء كما يجب أن تكون . لقد كان هذا الفنان يرى أن الصور يجب أن تتكون من اشكال مجردة لا تتضمن غير المحتوى الجمالي الخالص من ان يخلط بغيره . هذا

وبعد ان استنفد هذا الأفتتان كل طاقته، وجه المعنيون بالفن انتباههم واولاءهم منذ سنة ١٩١٠ إلى افتتان جديد اطلق عليه اسم (Futurism) وهو عبارة عن حركة في الفن دعت الى نبذ العرف والتقاليد المتعارفة في الفن والى بذل المساعي لجعل الفن يعبر عن الطاقة الحركية الديناميكية في الحياة المعاصرة . لقد بدأ هذا الأفتتان وولد في ايطاليا. سمي هذا الأفتتان (مذهب المستقبل) لأن انطباعات الماضي المباشر كانت قد ضمنت في منتوجاته . (٣١) لقد كانت هذه الحركة تتطلب من الفنانين ان يدعوا الغريزة تصبح شاعرة بنفسها شعوراً ذاتياً ، (Self - conscious) وأن توجه بحالات الروح الراهنة فقط، في تصوير وكشف المشاعر الباطنية ، وفي تصوير الواقع الخارجي أيضاً .

وعلى هذا الاساس سميت هذه الحركة (المستقبلية) لأنها كانت تعنى هجران ما كان متعارفاً في الماضي الموروث من اسس الفن واساليبه واغراضه ، وهكذا دعا هؤلاء الى أن الدافع للفن الخلاق يجب أنه ينبعث ويتأتى من العجلات والأسطوانات والصمامات التى تتميز بها الماكنة في القرن العشرين ، لامن الغابات والحقول والأنهار والجداول وجسم الأنسان كما كانت الحالة خلال قرون طويلة حيث كانت هذه وحدها هي مبعث الألهام الفني ومصدره . ثم ماعتم أن وهن هذا الافتتان ليحل محله افتتان آخر ولد في المانيا على يد « ماكس ارنست Max Ernst » خلال الحرب العالمية الاولى اطلق عليه اسم (Dadaism) الذي كان من بعض معالمه تقطيع نقش أو تمثال قديم ثم تنظيم اجزائه تنظيماً جديدا ، ورسم صور من قبيل نمو اشجار في ظهور الخيل أو تصوير أمرأة وهي عارية نوعاً ما ولها رأس اسد . حتى اذا وهن هذا الافتتان اعقبه افتتان آخر في الفن والادب سمي في تأريخ الفن بـ (Surrealism)كان التأكيد فيه على التعبير عن

---

(31) - J . B . Manson , « Painting, » Encyclopedia Britanica (14th edition) , 1929 .

مكنونات العقل الباطن أو اللاشعور على اساس من مذهب فرويد وعرضها من دون أن يربط بينها نظام معقول كما هي الحالة في الحلم مثلاً. لقد أكد اقطاب هذه الحركة على التعبير عن الفكر من دون ان يخضع ذلك لضبط العقل ، وعلى الكشف عن العقل الباطن ، وعلى مايثار من الردود العاطفية والانفعالية عنـــد رؤية اشياء وضعت بجوار بعضها البعض بطريقه لامنطقية .

يحدثنا « سارجنت » ان الألتزام ببعض هذه البدع والأفتتانات قد يتخذ شكل الالتزام بالعبادة في بعض الحقول كما هي الحالة في الميدان الغذائي والميدان الصحي ، مثلاً . إن من هذا القبيل ، إلتزام تناول الأغذية الصلبة ، او التزام الاغذية النباتية فقط ، او الأقتصار في الطعام على المنتوجات الحليبية ومـا شاكل . اما في الميدان الصحي فمن الأمثلة فيه الحمام الشمسي ، او العري ، او السبح بالماء البارد وما شاكل .

و ـ الازدهار [BOOM] والمودة :

ان الأزدهار (Boom) يحدث تغيراً حيويا في السلوك الأجتماعي والشخصي ، اذا هو قورن بالبدعة المؤقتة العابرة ، ولكنه يتميز عنها بأنه يصفي نفسه وينهيها ، فهو من هذه الناحية اشبه بالنار التي تهفت ثم تخمد نهائيا بعد استنفادها المادة المحترقة الضرورية لدوامها ووجودها. اما الخاصية الثانية التي يتميز بها الازدهار عن البدعة المؤقتة العابرة فهي انه ينطوي على بعض وجوه السلوك الأقتصادي. ان ازدهارات الأرض في « كاليفورنيا » وفي « فلوريدا » والأندفاع وراء الذهب الى « الاسكا » ، سنة ١٨٩٨ والى كاليفورنيا في منتصف القرن التاسع عشر وازدهار الخزامى في « هولندا » ، حيث صارت الزهرة من الخزامى تباع بأكثر من وزنها من الذهب هي بعض الامثلة التي تبين دور العامل الاقتصادي في هذا النوع من السلوك .

ان الافكار البسيطة التي يقبلها الناس على انها صحيحة والتي تعتبر الاساس لقيام (ازدهار) ، ولما يتمخض عنه من اعمال تستبين تفاهتها وزيفها بعد أن يبلغ الازدهار نهايته المحتومة ويموت ، ويبدأ الناس يندهشون كيف سولت لهم انفسهم الثقة بصحة مثل هـــذه الاراء . والواقع ، ان الازدهار هو كالاشاعة من ناحية أن في كليهما (نواة) صغيرة جداً من الصحة أو الحقيقة أو المبرر يبدآن بها . إن هذه النواة قد تكون اكتشفاف بعض الذهب في منطقة ما ، او ارتفاع بسيط في قيمة الارض ، أو الأمل في أن تعود الاسهم على اصحابها بأرباح طائلة . إن هذه النواة الصغيرة التافهة قد تتضخم تضخماً هائلاً اذا تناولتها الاشاعات وتناقلتها الالسن ومن وراءها الطمع ، وذوو المصالح ، والأمل البراق ، والحلم الباسم بثروة طائلة بين عشية وضحاها . وكلما أمدت الفرص هؤلاء الناس بما يبرهن على صحة هذه الامال كلما انضم أناس جدد الى هذا المعترك والقوا بثرواتهم في هـذه الميدان بغية الفوز بأعلى الارباح . إن الاعادة المتكررة والبلورة المحكمة لقضية الازدهار من شأنها أن تصعد آثارها ومفعولها بين الناس . والواقع أن هـــذه الازدهارات مغرية ، جذابة ، لاينجو من آثار اغرائها الا القليل من الناس . أن أول المتأثرين بقصص الازدهارات والذين يرجعون عليها بسرعة هم الاشخاص الاقل استقراراً من غيرهم ، والاكثر تأثراً بالايحاء من غيرهم من اعضاء الهيئة الاجتماعية .

ان الازدهـار على مـايظهر ، خاصة من خواص النظام الرأسمالي ، وكـل ازدهار يحدث يضيف دليلاً أخر للفقرة التالية التي مؤداها : ان كل مايتعلمه النـاس من التأريخ هو أنهم لايتعلمون من التأريخ أبداً . (٣٢)

(32) - LaPiere and Farnsworth , Op . Cit . , pp . 446 — 447 .

ز ـــ مقارنة موجزة بين هـذه الضروب من السلوك الجمعي :

انه مما يجب أن يلاحظ أن هذه المفاهيم ـ اعني مفهوم البدعة الموقتة العابرة (Fad) والافتتان ، والازدهار(Boom) ـ هي مفاهيم متداخلة الدلالة ومن ثم فان تعاريفها ليست (مانعة) بدقة فيما بينها . فالبدعة العابرة تشير الى اكثر الحيود تفاهة عن السلوك السوي المعتاد ، في حين ان الازدهار (Boom) يشير الى ضروب من الحيود حيوية مهمة واطول دواماً نوعاماً من البدعة الموقتة ، أما (الافتتان Craze) فهو يشير او يدل على ضروب من الحيود والزيغان هي بين ذينك الطرفين من حيث الاهمية ومن حيث الدوام . (٣٣) زد على ذلك ان من المعلوم أن البدع الموقتة تنتشر ببطء لكنها قد تصبح في بعض الاحيان جزءاً من التراث الاجتماعي . في حين ان الازدهار هو الاخر قد يتولد ببطء ، ولكنه ينهار وينعدم فجأة وبسرعة مدهشة غريبة . أما الافتتانات فانها تولـد بسرعة وتختفي بسرعة وبصورة مفاجئة أيضاً . ان المنطقة التي يشملها الافتتان من الحياة تكون محدودة عادة ، والناس الذين يتأثرون بالافتتان يكرسون لـه وقتاً كبيراً نسبياً ، وهم يفتتون الى حد الجنون عادة في بعض الاشياء غير المهمة من الناحية الواقعية الفعلية ، في الاعم الاغلب .

ان الافتتان في بعض الاحيان قد يشتمل على سلوك شبه اقتصادي ، كما هي الحالة في الافتتان الذي شاع في امريكا سنة ١٩٣٥ ، اعني افتتان (ارسل دايماً واحداً) . ومع هذا فان الافتتان يكاد يقتصر في الاعم الاغلب على الفعاليات والنشـاطات الانعـاشية ، المسلية ، الجديدة منها والمبعوثة

---

(33) - Ibid . , p . 444 .

من جديد .

إن الافتتان ، يشبه الازدهار ، من حيث أنه ينهي نفسه ، والسبب في هذا الانتهاء (الاوتوماتيكي) ينطوي عليه عامل النفوذ ، وليست العوامل الاقتصاديـة كما هي الحالة في الازدهارات ، إن من أهم آثار الافتتان في الشخص عند البداية في اسهامه بالافتتان ، انه يميز الشخص عن رفاقه ومعارفه وعمن حواليه ، فيضفي عليـه بعض النفوذ ، ويستشعره ببعض الشهرة والبروز . فاذا عم الافتتان وانتشر بين الناس جميعهم او اغلبهم ضاعت قيمته النفوذية هذه . هذا ولما كانت هـــذه القيمة النفوذية هي قيمته الأساسية أو اساسه ، فان من المحتمل أن يهجر الافتتان ، وأن يتخلى عنه كل فرد ، فيندثر ويموت ويختفي من المسرح الاجتماعي عند انتشاره بين الناس وشيوعه فيما بينهم .

ان من طبيعة المودة انها لاتـدوم طويلاً ، وعلى هذا الاساس فـان المودة تجيء لتذهب وتستجد لتنعدم وتطرح . ان هذه الخاصية هي التي دفعت البحاثة « لاپير LaPiere » أن يطلق على هذه الضروب من السلوك « الانماط الآنية من السلوك » (٣٤) ان ممـا يجب أن يشار اليه بهذا الصدد هو أن مايسمى بالاندفاعات الذوقية الموقتة (Fads) هي في الواقع اسرع زوالاً من المودة ، انها في الواقع أضيق تأثيراً في الناس من المودة حيث يتأثر بها عدد من الناس هو أقل من الذين يتأثرون بالمودة عادة ، كما أن حياتها هي اقصر من حياة المودة .

ان مما يجب أن اشير اليه في خاتمة المطاف عن هذه الظواهر من ظواهر السلوك الجمعي هو ان الناس الذين يسهمون في هذه الافتتانات والازدهارات

---

(34) - See R.T. LaPiere, Collective Behavior (New York : Mac Grow - Hill Book Co. ,1938), pp. 192+

يأتون عادة من كل دروب الحياة . ان هذه الازدهارات تؤدي في بعض الاحيان الى حركات هائلة في السكان اشبه ماتكون بالهجرات العظيمة في تأريخ البشرية حيث يبيعون بيوتهم واملاكهم وأثاثهم ويهيأون انفسهم للاثراء الفاحش المتخيل في منطقة الازدهار التي ركزوا فيها كل مطامحهم وامالهم في العيش الرغيد في المستقبل القريب .

إن من السهولة ان نلاحظ بأن وراء هذه الازدهارات وبعض الافتتانات من قبيل النوادي الهرمية (٣٥) ، مثلاً ومن قبيل الرسائل المتسلسلة (٣٦)

---

(٣٥) ان نوادي الصداقة الهرمية هذه قد بدأت سنة ١٩٤٩ في كاليفورنيا ثم انتشرت منها الى كل الولايات المتحدة الامريكية والى خارج امريكا. ان قصة هذه النوادي هي ان يدعو شخص ما صديقين له الى مقهى او مطعم او اي مكان آخر ، حيث يتكون من ذلك ناد ، ويدفع كل من هذين الصديقين دولاراً او دولارين توضع في صندوق النادي . وفي الاجتماع الثاني يدعو كل من هذين الصديقين صديقين آخرين لهما وفي الاجتماع الثالث يدعو كل من هؤلاء صديقين آخرين وهكذا . وبعد عدة اجتماعات يأخذ المؤسس الاول ، الذي يكون إسمه في رأس القائمة ماتجمع من نقود في الصندوق ، ثم يأخذ ما يتجمع في الصندوق من نقود للمرات القادمة الاصدقاء الذين دعاهم المؤسس ، وهكذا بالتسلسل الهرمي هذا . ان هذا يعني من الناحية النظرية ، ان كل هؤلاء المشتركين يربحون ، ولكن الواقع ، ان هذه السلسلة لابد وان تنقطع عند احد منهم ، فتنتهي الاحبولة بخسارة قسم منهم من دون ان يربحوا شيئاً .

(٣٦) ان الرسائل المتسلسة هذه انتشرت من امريكا وشاعت في اغلب —

وما شاكل دوافع الكسب والاثراء السريع تدعمها الاحباطات الكثيرة التي يتعرض لها هؤلاء الناس في المجتمع الحديث وتمدها الآمال ـ آمال الناس في تحسين احوالهم بين عشية وضحاها. والواقع ، ان هناك عوامل واحداثاً تتضافر جميعها في تصوير الوضعية كلها على انها فرصة ذهبية يجب اغتنامها. ان من هذه العوامل: الاشاعات ، والدعاية والاعلانات ووسائل النشر واساليبه . ان من ابرز ما يتميز به الازدهار والافتتان هو إتسامه بالجدة والطرافة ، ومن هنا كان تكرر الازدهار والافتتان على نفس الشاكلة يكاد يكون نادراً في تأريخ هذه الظواهر في المجتمع الواحد. ولذا وجب اجراء بعض التغيير والتحوير فيها عند تكرر حدوثها .

ح ـ المودة والطراز [STYLE] :

هذا وبغية ايضاح ظاهرة المودة وتمييزها ، تمييزاً اكثر من قبل ، عن بقية الظواهر القريبة منها او المشابهة لها في بعض الوجوه لا بد لي من تمييز المودة عن الطراز (**Style**) فالمرأة التي تلتزم المودة مثلاً ، ترتدي مـا يكون مودة من اللباس الشائع بين الناس سواء جعلتها تلك المودة

ـ بقاع العالم بحيث وصلت حتى العراق في حينه . وخلاصتها ان المؤسس يكتب رسالة الى خمسة من اصدقائه الذين يكتب كل منهم بدوره رسالة الى خمسة من اصدقائه وهكذا . ان الشخص الذي يستلم الرسالة يضع اسمه عادة في آخر قائمة الاسماء بحيث يكون هو الخامس بعد ان يحذف الاسم الاول ويرسل الى صاحبه درهماً مثلاً ، وهكذا . ان كل من يكون لسمه في رأس القائمة في هذه الرسالة يستلم مبالغ طائلة في بعض الاحيان ، ولكن الاحبولة قد تصيب المتأخرين من المشتركين بالخسارة لانقطاع السلسلة .

جميلة جذابة او لم تجعلها كذلك مـــا دامت هي مطبوعة على تبني أخر المودات . ان هذا الوجه هـو من أبرز وجوه هذا النوع من السلوك ، إذ قد يكون لباس المودة هذا لا يناسب جسم هذه المرأة ولا شكلها العام . اما (الطراز) فهو أمر آخر يختلف عن المودة اختلافاً كبيراً . ان مما يوضح ذلك هو عناية المرأة التي تتعلق بالطراز بانتقاء ملابسها حيث هي تشتري تلك البدلات التى يناسب (فصالها) بدنها والتى تتميز بابراز فرديتها ، وتحقق لها مظهراً شخصياً فريداً (Unique) . هذا ولما كانت المرأة التى يتحكم في ملابسها (الطراز) تهوى الراحة في لباسها ، لذا فانها تلبس ملابس مختلفة في الوضعيات المختلفة ، كل منها يناسب الوضعية الملائمة ـ حيث هي ترتدي ملابس قصيرة في لعبـــة التنس وملابس فضفاضة تناسب العمل البيتى وما شاكل . وبعبارة اخرى ان وجهة النظر الوظيفية هي التى تتحكم في الانتقاء لا ظاهرة المودة .

إن هذه المرأة تستطيع ان ترتدي ملابسها هذه مدة طويلة ما دامت هي تتوخى من هـذه الملابس ان تظهر جمالها وفتنتها بصرف النظر عن المودة المتبدلة . ان هذا الفرق بين المودة والطراز مهم جداً وهو لا يصدق على ملابس النساء وحسب بل هـو يصدق على ملابس الرجال ويصدق على اختيار المهنة ، او الكلية التى يدخلها المرء ، او على اي وجه من وجوه السلوك الاجتماعي . وعلى كل حال فان إلتزام الطراز دون المودة يحتاج الى جرأة وشجاعة ادبية لمقاومة الضغط او التيار الاجتماعي .

إن المودة تملي على هوياتهـا اسلوب سلوكهم ، فهي تملي على النساء مثلا ان يكون لون محفظة اليد من لون الحذاء مثلا ، او تملي على الرجل ان لا يرتدي معطف شتاء السنة الماضية لانه ذو حزام في حين ان مودة العام الراهن تستلزم المعطف من دون حزام وهكذا .

ط ـ المودة وآداب اللياقة [ETIQUETTES] والعرف الاجتماعي :

ان مما اود ان اشير إليه في هذا الصدد هو ان هناك ظواهر إجتماعية متعددة ، غير التقاليد ، قد تختلط بهـا ظواهر المودة ، وهي ظواهر لما تدرس بعد دراسة كافية من قبل علماء الاجتماع ، ومن هنا كانت المفاهيم التي تشير اليها مفاهيم تعوزها الدقة العلمية التي من شأنها ان تعزل الظاهرة عما سواها من الظواهر الاخرى . ان مما يزيد في اشكال هذه المشكلة هو ان هذه المفاهيم محملة تحميلاً اجتماعياً يركبه كثير من الغموض والابهام. ومع هذا كله فلابد لي من إلتفاتة عابرة اميز فيها المودة عن (الاتيكيت) او آداب اللياقة وعن الاعراف الاجتماعية (Conventions) .

ان اساليب السلوك التي تقوم على اجماع الناس او فريق منهم ، والتي يوصى باتباعها في مناسبات وملابسات معينة هي التي تطلق عليها بالانكليزية عبارة (ايتيكيت Etiquette) . ان هذا الاجماع من شأنه ان يضفي على الاسلوب السلوكي هذا مسحة التأدب ، او مسحة خلقية الى حد ما . ان هـذه المجموعة من الاساليب السلوكية كبيرة ، ومتعددة الضروب والاشكال ، وتزاول في ميادين مختلفة من ميادين العلاقات والحياة الاجتماعية . فوضعية المأتم الحزينة تستلزم الاقلاع عن الثرثرة ، وعن الدخول في تفاصيل لا موجب لها ، ولا تجوزها الوضعية الحزينة . وقد تتطلب بعض الوضعيات تغافل الفرد وتجاهله لبعض الامور وإلا ادى الامر الى خلق مشكلات وصعوبات في الوضعية الاجتماعية . وفي بعض الوضعيات يكون النـاس اميل الى جعل علاقاتهم سطحية ، مصطنعة الى حد كبير ، قوامها المجاملة التي تنطوي على كثير من الدماثة المصطنعة حتى لكأن الفرد يعمل بوحي

من بواعث مثالية خيالية تبعده عن واقع الانسان الاناني الذي نعرفه في الحياة الواقعية . إن من امثلة هذه النماذج السلوكية تأدب استاذ في حفلة جامعية مع زميل له يكرهه كرهاً شديداً ، وتظاهر طالب بالادب امام استاذ يتحداه او يهينه ، وما شاكل من اساليب سلوكية .

إن فريقاً من الباحثين يرون ان مراعاة هـذه الاساليب السلوكية والانصياع لها والاخذ بها من شأنه ان يحقق التماسك والتضامن بين اعضاء الجماعة . وعليه ، فان هذه الممارسات لا تخلو من وظيفة وفائدة مع انها سطحية ، مصطنعة ، (٣٧) في اغلب الاحيان .

وعلى كل حال ، فان آداب اللياقة هذه لا توجد في المجتمع الحديث وحسب بل هي موجودة حتى في المجتمعات البدائية حيث يحدثنا البحاثة « هرلوك Hurlock » إن الرعايا في عـدد من القبائل الافريقية لا يستطيعون ان يواجهوا الملك الا وهم عراة ، كما ان ملكة الزنوج من قبائل الـ(Balonde Negrose) كانت قد قابلت « لفنكستون Livingstone » وهي عارية تماماً عندما استدعاها ، وكان معنى ذلك انها منحته اكبر شرف ممكن واجلال في مثل هذه الزيارة (٣٨) .

وعلى كل حال ، فان (آداب اللياقة Etiquettes) هـذه هي التي تمدنا بحدود وتفاصيل ما ينبغي ان نقوله او نقوم به في مناسبات اجتماعية مختلفة ، إذ هي مجموعة من القواعد والحدود والتعاريف الاجتماعية المحددة تحديداً دقيقاً والتي ترسم التصرف والسلوك ازاء الآخرين في الوضعيات المتباينة . إن آداب اللياقة هـذه مظهر من مظاهر التمييز السطحي بين

---

(37) - R . M . Mac Iver and H . C . Page , Society (New York : Holt , Rinehart and Winston Co . , 1961) , p . 183 .

(38) - E . B . Hurlock , The Psychology of Dress (New York : The Ronald Press Co . 1929) p . 31 .

الطبقات الاجتماعية وبين الجماعات المهنية ، والجماعات الحضارية ، والجماعات السلالية . ان من هذا القبيل ما نجده من تمايز في هذه الآداب بين ضباط البحرية ، مثلا ، وبين سائر الضباط الآخرين ، وبين سكان شارع (هل) في مدينة (يانكي) وبين سائر السكان الآخرين . ان آداب اللياقة هذه مظهر من مظاهر التجانس النفسي ، الى حد كبير ، بين اعضاء الطبقة الواحدة او الجماعة الواحدة التي تشترك في تعاطيها ، ومن ثم نجد ان بعض اعضاء هذه الجماعات الاجتماعية تعمل كل جهدها على استبقائها ودوامها كمظهر من مظاهر التمييز والتماسك الجماعي .

إن ظاهرة المودة قد تتناول هذه الآداب بالذات ايضا من قبيل تغير اسلوب التحية او التقبيل في المجتمع من شكل لآخر مما يبين لنا اهم فارق بين المودة وبين آداب اللياقة هذه حيث ان الاولى متغيرة ، في حين ان الثانية اكثر دواما واستقراراً ورسوخا منها في المجتمع . ان المودة اساليب وحدود موقتة في السلوك ، في حين ان الثانية تتميز بالاستمرار والثبوت . وعليه ، فعندما لا يكون هناك مجال للتصرف والتغيير في البزة العسكرية ، وفي البدلة الرياضية للمرأة ، مثلا . فلا مجال للتحدث عن المودة في هذه الاحوال .

اما فارق المودة عن العرف الاجتماعي (Convention) فهو ان المودة تنطوي على نوع من المنافسة لا يتسم بها العرف الاجتماعي عادة . فان من العرف ان يرتدي الناس ملابس لستر عوراتهم ولأمور اخرى (٣٩) ولكن من المودة ان يتزيا بعضهم للتمايز والانفراد والتباهي والظهور

---

(٣٩) إن للملابس مهام لا تتعدى الوقاية والاحتشام والتزين والجذب الجنسي ، ومن هنا كانت مهامها نفعية وحضارية ورمزية في نفس الوقت ، في الاعم الاغلب .

بمظاهر التفوق في ميادين الجمال والشبيبة والحداثة والنفوذ وما شاكل عن طريق لباس خاص .

ان بعض الباحثين يضيفون فارقاً آخر بينهما ، إذ هم يؤكدون على ان المودة هي اوغل في اللاعقلانية من العرف ، وان كان كلاهما لاعقلاني (Irrational) الى حد كبير . ان مما يجب ان يشار اليه في هذا الصدد هو ان مفهوم اللاعقلانية هذا يركبه الغموض والاضطراب في هذه المجالات اذا نحن نظرنا اليه من وجهة النظر الوظيفية (Functionalism) التي ترى ان لكل ما يوجد اجتماعياً وظيفة او وظائف يؤديها في حياة المجتمع . ان هذه النظرة الوظيفية تتسم بالغائية ، على كل حال ، سواء كانت هذه الغاية مقصودة او غير مقصودة فيما يوجد او يمارس اجتماعياً .

من هنا يتبين ان اضطراب مفهوم (اللاعقلانية) هذا وغموضه انما يتأتيان ، عند استعمالهما للممارسات الاجتماعية ، من هذا التعارض الدقيق الخفي بين العشوائية واللاقصدية من ناحية وبين الوظيفية والغائية من ناحية اخرى (٤٠) .

لعل من المفيد في ايضاح خصائص المودة ومميزاتها ، في هذه المرحلة من البحث ، ان ألخص وجوه المقارنة بينها وبين انماط سلوكية موحدة اخرى من قبيل التقاليد (Customs) او العادات الاجتماعية المتسحكمة ، والاعراف الاجتماعية (Conventions) والآداب العامة (Mores) . وعليه فان التقاليد الاجتماعية هي اشكال مستديمة نوعاً ما من السلوك تصبح

---

(٤٠) اذا أردت استيعاب تفاصيل هذا الموضوع فارجع الى :

I . C . Tarvie , The Revolution in Anthropology (London : Routledge and Kegan Paul , 1964) .

محترمة عادة بتقادم العهد عليها ، في حين أن المودات هي اشكال عابرة موقتة . أما من ناحية مقارنة المودات بالاعراف الاجتماعية فان الاعراف الاجتماعية تتميز بأنهـــا غير تنافسية في حين ان المودات هي تنافسية ، ذلك ان المودة هي الاسلوب الراهن الشائع بين الناس آنياً ، فاذا شاع مثلاً ارتداء نوع القبعات وكانت السيدة من متبنيات المودة فهي لا بد وان تتبنى هذا اللباس الشائع . ان هذا الوجه التنافسي الذي تتميز به المودة لا يوجد في الاعراف الاجتماعية . ان من العرف الاجتماعي ، مثلاً ، ان ترتدي السيدة مثلاً بدلة مساء فيما اذا هي كانت مدعوة الى عشـاء رسمي ، لا توجد في هذا الامر حرية اختيار او انتقاء لان هذه القاعدة من شأنها الالزام في حالات كهذه . أما في المودة فان الفرصة للتنويع والتنـافس مهيئة . وعلى هذا الاساس فقد ترتدي السيدة بـدلة مسائية غير ان هذه البدلة تتحكم فيها المودة حيث قد تكون الشائعة في وقت ما ان تكون هذه البدلة طويلة وردية اللون مفتوحة من الخلف في فصل من الفصول ، وقد تكون هذه المودة الشائعة على شكل بدلة قصيرة غير مفتوحة من الخلف في فصل آخر او وقت آخر . وعلى هذا الاساس فان السيدة التي تظهر وهي في بدلة السنة الماضية تكون قد حققت العرف الاجتماعي ولكنها تكون خارجة على المودة المتعارفة الراهنة في هذا العام .

هذا من ناحية ، أما من الناحية الثانية فان المودة تتميز عن العرف الاجتماعي بأن الاخير خاضع للاخلاق المتعارفة في المجتمع ، في حين أن المودة لا تخضـع لها . لقد مر في بعض البلدان وقت كان يعتبر فيه استعمال المساحيق أمراً غير خلقي ، وأتاح العرف الاجتماعي استعمال (أحمر الشفايف) على شرط أن تصبغ الشفاه بصورة غير واضحة ، في حين أن هذه الحدود كلها قد انهارت من بعد واصبحت مزاولة هذا النوع

من السلوك خلواً من اي شرط أو تحديد من هذا القبيل . وقد يكون من المودة الشائعة أن يستعمل اللون القرمزي أو الوردي او الاحمر من صبغ الشفاه أو لا يستعمل اي صبغ . ان الاخلاق لا علاقة لها عادة بأي من هذا النوع من المزاولة ، او لا يتضمن الامر وجهاً خلقياً . وبعبارة أخرى : ان المودة هي ما يزاوله الناس آنياً وينهمكون فيه ، بصرف النظر عن الاخلاق .

أما الفرق الثالث بين المودة والعرف الاجتماعي فهو أن المودة هي تمييزية يتبناها بعض الناس ليتميزوا بها على انهم من المتعلقين بالجديد أو انهم ينتمون الى طبقة معينة من الناس أو ليعرف بأنهم من جماعة معينة منهم .

أما الفرق الرابع فهو أن المودة تقوم على اساس (لاعقلي **Irrational**) هو ابلغ من اللاعقلية التي تقوم عليها التقاليد والاعراف الاجتماعية ، ذلك أن هناك ، في بعض الاحيان ، اسباباً معقولة نوعاً ما تبرر التزام العرف أو التقليد ، في حين ان المودات ـ وان كانت لها بالطبع اسباب ـ لا تتميز باسباب تقرب معقوليتها من مستوى معقولية اسباب العرف والتقليد. ان مما يجب ان يشار اليه في هذا الصدد هو ان المودات تتبنى سواء كانت جميلة مفيدة أو لم تكن كذلك . يقول احد اقطاب مودة ملابس النساء في فرنسا في هذا الصدد ـ اعني « پويريه **Poiret** » ـ ان لا جدوى في ان تقاوم المرأة مودة هي تافهة في نظرها لانها لا بد وان تستجيب لها لما يرافقها من ضغط اجتماعي عاجلاً أو آجلاً . وفي هذا المعنى بالذات تقريباً يقول الشاعر الانجليزي ما معناه : « لن ألبس الفساتين الطويلة » صرخت الآنسة « بلو **Kitty Blue** » وهي غضبى . ان معنى هذا هو :

« انني لن البس مثل هذه الفساتين حتى يلبسها الاخرون »(٤١) .

ان الاساس اللاعقلي الرئيس للمودة تتضمنه رغبة الانسان في ان يعمل ما يعمله الآخرون سواء كان ذلك يصلح له او لا يصلح . ان من السهولة ان ندرك بأن المودة التي تخلق لكل النساء بصورة عامة - في مجتمع ما - قد لا تصلح لابراز مواطن الجمال في بعض النساء ، ومع ذلك فان هاته النسوة انفسهن يتبنين هذه المودة في اللباس . فاذا كانت مودة القبعات مثلاً هي ارتداء قبعة تشبه سندان الورد فان هاته النسوة يلبسنها وان كانت تحيلهن الى مخلوقات تثير السخرية والازدراء وتطمس معالم الجمال فيهن الى حد كبير . يظهر من هذا ان الانسان يحس بشيء من الاشباع في مزاولته المودة الغالبة بصرف النظر عن آثارها الأخرى لأن المهم - على ما يظهر - هو ان يسهم في التيار الذي يسهم فيه المجموع .

هذا ولا بد لي في آخر هذا المطاف ان اشير ، ولو اشارة عابرة في سياق هذه المقارنة بين انماط سلوكية موحدة متعددة ، الى ما بين المودة والآداب العامة (Mores) من علاقة ، بشكل مقتضب عابر .

ان المودات لا تجري ضمن نطاق الآداب العامة (Mores) ، بل هي ، على النقيض من ذلك الى حد ما ، طرائق شعبية غير خلقية . ان الآداب العامة لا تتغير الا ببطء في الاحوال الاعتيادية ، اما المودات فانها تتغير بسرعة ومن ثم فهي موقتة الى حد كبير . ان المودات جزء من الطقس الاجتماعي ، ومن هنا راح « سبنسر » يؤكد على ان لها وجهاً احتفالياً ، او مسحة احتفالية (Ceremonical aspect) موقتة عابرة .

---

(41) - « I will not wear the long skirts ,

Cried angry Kitty Blue ;

« That is , I will not wear them unless the others do . »

ك ـ ميادين المودة :

ان عبارة (مودة) توحي اول ما توحي في الذهن التنويع في ملابس النساء . الواقع ان المودة لا تقتصر على ملابس النساء وملابس الرجال وحسب بل انها ظاهرة تحدث في ميادين كثيرة منها ميادين الادب والدين وعلم النفس والطب والتدخين وهندسة البيوت وتأثيثها وما شاكل . ان عبارة المودة انما اصبحت لصيقة بملابس النساء لأن المودة في هذا الميدان اوضح وأعم واسرع تغيراً واكثر اطراداً في هذا التغير .

ان من اليسير ان نستنتج بان هذه الظاهرة ـ اعني ظاهرة المودة ـ هي من اهم عوامل تدوير دولاب العمل والانتاج ، واحـــداث ما هو جديد في العصر الحديث ، كما انها من اهم ميزات المجتمع الحديث اذا هو قورن بالمجتمع القديم او المجتمع البدائي من حيث أن المجتمعات الاخيرة هي مجتمعات تقاليد في حين ان المجتمع الحديث هو مجتمع مودة . والواقع ان المودة هي اسلوب ووسيلة ومظهر من مظاهر التغير الاجتماعي في المجتمع الحديث .

لعل من اقدم معامل التبغ هو المعمل الذي كانت تمتلكه شركة اسكوتلاندية حيث كان ينتج مسحوق التبغ (أو ما يسمى محلياً عندنا ، البرنوطي) الذي كان يستعمله بعض الناس استنشاقاً من انوفهم . لقد سد هذا المعمل سنة ١٩٢٠ لاضمحلال هذا النوع من المودة في وجه طغيان مودة اخرى هي مودة التدخين التي ربما تنقرض يوماً ما بحلول مودة (علك التبغ) محلها .

أما في الادب وميدان الكتابة والنشر فان المقالات ، والقصص الرخيصة وتواريخ الحياة المصطنعة المتخيلة ، وتصوير المعارك والحروب ووصفها ، والقصص القصيرة ، والروايات المطولة ، والشعر الحر ، واستغلال التحليل

النفسي في كشف اسرار اللاشعور ، والروايات الغرامية ، والمؤلفات التي تدور حول بعض المشاكل الاجتماعية الواقعية ، والروايات التي تدور حول المغامرات التي تنتهي بالتوفيق والنجاح ، والروايات التأريخية ، والتقارير التي تعرضها المجلات حول الشؤون السياسية ، والاخبار العلمية وما شاكل ـ كل منها في الواقع يتمتع بحياة قد تقصر او تطول في سوق الانتاج والذيوع في مجتمع ما . وعلى هذا الاساس فان الكاتب الناجح هو ذلك الذي يستشعر جو العصر وروحه فيكتب للناس على ضوء ذلك ومستلزماته مستغلاً ميول الناس واتجاه رغباتهم .

اما في حقل الظاهرة الدينية فان من ابرز حركات المودة هي حركة التسلح الخلقي ، او النقاش حول حرية الارادة ، او الانشغال بفكرة الاثم ـ كما حدث في اوروبا خلال العصور الوسطى ـ او الانشغال بشكل من اشكال الجهاد ضد بعض ضروب الاثم او الآثمين ، او التنديد بالترف وطعن الحياة المترفة في هذه الدنيا بأنها حياة من خصائصها انها حياة لا خلقية ، وما شاكل من تغير اهتمام واولاع الناس المعنيين بالدين .

اما في حقل علم النفس فان من المودات ذيوع وانتشار الفيزياء النفسية (Psychophysics) ، وعلم النفس الاستبطاني ، والمذهب الوظيفي ، والتحليل النفسي ، والمذهب السلوكي ، ومذهب الگشتالت وما تفرع منه ، وما شاكل ، في فترات معينة من تأريخ هذا العلم . ان تأريخ هذا العلم يرينا ان بعض الباحثين قد كرسوا جهودهم في هذه الفترة او تلك لموضوع العلاقة بين العقل والجسم ، او لموضوع فسلجة الاحاسيس او لموضوع الافعال المنعكسة او لاختبار الذكاء ، او لموضوع الصحة العقلية او ما شاكل .

اما من ناحية الاطار النظري العام فان علم النفس كان جزئياً

(Elementaristic and atomistic) فصار كلياً (Holistic) ثم اصبح عضوياً ثم اكد على ما هو شخصي (Personalistic) ثم صار يؤكد على العلاقات الشخصية وهكذا ، حسب المودة الراهنة . وفي مرحلة من المراحل كان الانشغال طاغياً بين بعض علماء النفس بتصنيف الناس الى نماذج شخصية ، وفي مرحلة اخرى طغى الانشغال بالفروق الفردية .

أما من ناحية طرائق البحث فقد كان علم النفس استبطانياً ثم غلبت عليه طرائق الملاحظة والمشاهدة ثم خضع لطرائق التحليل النفسي ومن بعد ذلك شاعت طرائق البحث التجريبي وطرائق الاحصاء وما شاكل . وهكذا تتابعت على هذا الميدان موجات من المودة مختلفة كلما طغفت منها واحدة اغلقت سابقتها ونبذت بعض النبذ ، فانكمشت بذلك شهرتها وتقلص ذيوعها ،

ان هذا بالطبع يصدق على المفاهيم التي يتكون منها هذا العلم حيث يعرض لنا تأريخه المتغير هذا مفاهيم من قبيل (العقل الجماعي او الجمعي) و (الارواح الشعبية) و (الغريزة) و (العقل) و (اللاشعور) و (المنبه ـ رجع) و (المحدد) و (الموجه) و (الموقف) و (العادة) و (المواهب او القابليات العقلية) وما شاكل مما ساد هذا العلم في فترة من الزمن لم تلبث ان حلت محله مفاهيم اخرى في فترة اخرى تمتعت بالأهمية والذيوع بين المعنيين بهذا الموضوع .

ان المتتبع لتأريخ علم النفس الحديث في حقل الدوافع منه يجد ان المعالجة الفرويدية القائمة على التأكيد على اهمية دور واثر الغريزة الجنسية في السلوك البشري ـ شخصية واجتماعية ـ قد شرقت وغربت في كل العلوم الاجتماعية منذ العقد الثاني من هذا القرن ، ولا تزال بقية قليلة جداً من الباحثين تتعلق بهذا المنحى من التفسير والمعالجة . كما يجد هذا

المتتبع تأريخ هذا الضرب من التفاسير ان المذهب الذي بلوره « وليام اسحاق توماس W.I.Thomas » ـ اعني مذهب الرغبات الاربعة ـ في اواخر العقد الثاني من هذا القرن قد اصبح مودة العلوم الاجتماعية في تفسير السلوك منذ ذلك الوقت واستمر قرابة عقدين من الزمن تقريباً .

أما في حقـــل السلوك الجمعي الذي هو فرع من فروع علم النفس الاجتماعي فقد تتابعت محاولات نظرية متعددة مختلفة على شكل مودات فكرية في هذا الميدان .

ولعل ما يوضح ما نحن بصدده من الكلام عن تلك المحاولات لتفسير ظواهر السلوك الجمعي ما جرى في حقل الدين كظاهرة من هذه الظواهر الجمعية . وهنا لا بد لي أن اشير الى أن النظريات والمحاولات الفكرية التي تشيع في زمن ما هي رهينة الجو الفكري السائـد في تلك المرحلة من الزمن . هذا ولما كان السواح الاوروبيون الاوائل الذين هم الرواد الاوائل من علماء الانسان او الانثروبولوجيين أقول هذا ولما كان هؤلاء مسيحيين لم يجدوا الشعوب البدائية تدين بالمسيحية او بدين يداني المسيحية بعض الشيء فقـد ذهب هؤلاء الى أن الشعوب البدائية هي شعوب أبعد مـا تكون عن الدين . غير أن توسع تعريف الدين حيث اصبح ذلك التعريف يشمل عبادة الاجداد والطقوس والمراسيم التي تقوم بها الشعوب البدائية نحو الطوطم والتعزيم (Fetishism) والسحر بضروبه المختلفة ، غير نظر الانثروبولوجيين بهذا الصدد نحو الشعوب البدائية حيث صار هؤلاء الانثروبولوجيين يدعون بأن الدين ينتظم حياة هذه الشعوب في وجوهها المختلفة . هذا ولما ظهر « كومت Comte » زعيم المذهب الوضعي أو الايجابي بفلسفته الايجابية التي تذهب الى أن العقل البشري قـــد مر بسلسلة تطوريـة تنقسم مراحلها الى ما يلي : المرحلة الدينية ، المرحلة

الميتافيزيقية والمرحلة العلمية الموضوعية الحديثة ، او مرحلة العلوم الايجابية تغير رأي المفكرين حول ظاهرة الدين في الشعوب البدائية وراحوا يدعون ـ نتيجة تأثرهم بآراء كومت هذه ـ الى أن الدين هو ضرب من التفكير يتميز به الناس في مراحلهم التأريخية الاولى ، وعليه فان الشعوب البدائية غير المتحضرة ـ التي هي تمر في هذه المرحلة من مراحل التقدم الانساني هي شعوب يسيطر على حياتها الدين سيطرة تامة . ولذا رأينا « فريزر Sir James Frazer » يؤكد عند كلامه عن دين هذه الشعوب البدائية بأن حياة هذه الشعوب مشبعة بالدين كل الاشباع ، كما اننا رأينا « ليفي ـ بريل Levy - Bruhl » يعلن بأن الواقع الذي تعيش فيه الشعوب البدائية وتحيا هو واقع ديني .

هذا ولما كان التحيز يفعل مفعوله في صياغة الاراء في هذا الحقل من حقول الحياة الاجتماعية رأينا كثيراً من الرواد الاوائل في علم الانسان ينكرون على هذه الشعوب البدائية ان تكون قد تدينت بدين موحد (Monotheistic religion) او اديان موحدة ، او أن تكون قد ادركت فكرة الله لان مثل هذا الدين الموحد وقبل هذه الفكرة ـ على ما ادعى « تايلر Sir Edward Tylor » ، زعيم الانثروبولوجيين الانكليز في منتصف القرن التاسع عشر ، هي من ميزات المراحل الاخيرة من التأريخ البشري وهي الحلقة الاخيرة في نمو وتحول وتطور (التفكير الاحيائي Animistic thought) . ان هذه الوجهة من الرأي قد غلبت في ميدان تفسير الظاهرة الدينية وسيطرت على آراء المفكرين بحيث لم يجرؤ احد من المفكرين لان ينصت او يتبنى رأي « لانج Andrew Lang » و « شمدت Wilhelm Schmidt » حينما أعلن هذان المفكران وغيرهما بأن الشعوب البدائية المعاصرة تبرهن على ان ما ادعاه « تايلر Tylor » هو على النقيض

مما هو واقع بين هذه الشعوب . يحـــدثنا عالم الانثروبولوجي المشهور « ايفانز - پرجارد Evans - Pritchard »(٤٢)ان غلبة نظرية التطور قد أعمت الكثيرين من المفكرين آنذاك لأن ينتبهوا الى البراهين الواقعية بهذا الصدد . فقد انهمك الكثيرون من علماء الانثروبولوجي في اواخر القرن التاسع عشر ، مثلاً ، في البحث عن الاصول الاولى التي تطورت منها المؤسسات الاجتماعية المختلفة ، والتقاليد والمعتقدات مفترضين أن تلك الاصول التأريخية هي الاشكال البدائية الاولى لما يشيع في المجتمع من عقائد ومؤسسات اجتماعية وتقاليد وما شاكل . ان من امثلة هذه المحاولات ما قام به عالم الانسان المشهور « سمث William Robertson Smith » من الدعوى عند بحثه عن الضحية (Sacrifice) عند اليهود والساميين بأن الصورة الاولى لهذه الضحية عند اليهود قائمة على الاعتقاد بان تقديم الضحية وأكلها ما هو الا عشاء رباني ، او مائدة ربانية ، يجتمع عليها اليهود وإلاههم القبلي او إله قبيلتهم ليغتـــذوا على لحم الضحية ، التي هي بحد ذاتها الاله ولكن بشكل آخر ، أو بعبارة أخرى : التي هي بحد ذاتها ضرب آخر من الاله ،هو الاله الطوطمي أوالطوطم.لقد كان لهذه النظرية تأثير كبير في المحاولات الفكرية التي كانت تبغي الكشف عن الاصول الحضارية الاولى لمختلف المعتقدات والمؤسسات والعادات الاجتماعية وهي محاولات تتصف بكونها منصبغة بالانصياع لمنطوق نظرية التطور ، وهي محاولات يشيع فيها الوهم والتخيل الى حد بعيد ويعوزها الدليل الواقعي .

لقد كان من أثر شيوع هذه النظرية في حقل البحوث الدينية ان انهمك الباحثون في البحث عما يسمى (الاصول النفسية Psychological origins) ولا يزال هذا المنحى من البحث شائعاً حتى يومنا هذا . لقد

(42) - E. E. Evans - Pritchard , Social Anthropology (London: 1951), pp. 1 — 10 .

حاول علماء الانسان في القرن التاسع عشر أن يكشفوا عن هذه الاصول النفسية بطريقة الاستبطان (Introspection) حيث كان يحاول هؤلاء الباحثون الكشف عن الاصول النفسية للظاهرة الدينية وذلك عن طريق التصور حيث يحاول الباحث ان يرى كيف يتوصل الى المعتقدات الدينية البدائية الشائعة بين الشعوب البدائية فيما لو كان هو أحد هؤلاء البدائيين . أو بعبارة أخرى يحاول الباحث ان ينزل نفسه منزلة هؤلاء البدائيين ثم يرى كيف توصل هؤلاء البدائيون الى مثل هذه المعتقدات البدائية التى تشيع فيما بينهم . ان المحاولات الاولى التي تمخضت عنها التفاسير للظاهرة الدينية بين هذه الشعوب كانت قائمة على اساس افتراض العقل (Intellect) . وعلى هذا الاساس رأينا « تايلر Tylor » مثلاً يذهب الى ان الدين قد بدأ وجوده عندما حاول الانسان ان يفسر تفسيراً عقلياً او معقولاً ـ وان قد حدث ان كان تفسيره ذلك خاطئاً ـ حوادث من قبيل الموت والنوم والاحلام على اساس الزعم بان للانسان روحاً من خواصها الانفصال عن الجسم (Detachable) . يذهب « Tylor » هذا الى ان الانسان الاول عندما توصل الى مثل هذا النوع من التفسير والاعتقاد راح يسبغ الروح على الحيوانات والنبات وحتى على الاشياء الجامدة مدعياً ان لهذه كلها ارواحاً . وانتهى به هذا المنحى من الاعتقاد الى الاعتقاد بكائنات عظمى لها ارواح من قبيل الآلهة والجن والمردة والشياطين وما شاكل . ان مما ينساق مع هذا المنحى من التفسير ما ذهب اليه « Frazer » من أن الانسان الاول كان ذا ثقة عمياء بالسحر ولكن الاذكياء من الناس الاول رأوا ان السحر لا يحقق الاهداف التي يتوخاها الانسان ولذا عمدوا الى الاعتقاد الى ان هناك كائنات حية جبارة تشبه الانسان في بعض الوجوه وهذه الكائنات هي التي تشرف على الكون وتسيره .

غير ان هـــذه الكائنات يمكن ان تستغل لمنفعة الانسان بوسائل مختلفة ان أقطاب هـذه المدرسة من الرأي ـ وهي المدرسة التي يمكن ان ندعوها مدرسة خرافة الطبيعة (Natural Myth School) ومنهم « ملر Max Müller » المشهور ـ راحوا يفسرون الدين على اساس تشخيص (Personification) الظواهر الطبيعية من قبيل الشمس والسماء والمطر مثلاً .

غير ان مثل هذا المنحى من التفسير لم يقنع الجيل اللاحق من المفكرين خاصة وان علم النفس نفسه قد غير مجراه واسسه فقد انهار الاعتقاد بأن الانسان مسير بعقله وحل محله الاعتقاد الجديد بأن الانسان مسير بشهواته وعواطفه . ومن هنـا تحولت وجهة تفسير الدين من كونه ظاهرة قائمة على اساس العقل والادراك الى كونـه ظاهرة يجب تفسيرها على اساس العواطف والانفعالات ومايجري هذا المجرى. ان الاستبطان قد استمر في هذه المرحلة الطريقـة التي يستخدمها الباحث في البحث عن الاصول النفسية للظاهرة الدينية ولكن بدل ان كان يسأل الباحث نفسه كيف كان يفكر لو كان رجلاً بدائياً صار الباحث يسأل نفسه : كيف كان يشعر (Feel) لـو كان رجلاً بدائياً . وعلى هذا الاساس رأينا أقطاب المفكرين يرون ان قوام الدين من حيث الاساس حالة شعورية من أهم خصائصها النفسية الشعور بالاجلال (Emotion of awe) ان هذا التعريف للدين هـــو تعريف « Dr . Marett ». ولكن « مالينوفسكي Malinowski » كان هو الآخر الذي ذهب الى ان الدين انما يظهر ويفعل مفعوله او يقوم بمهمته في احوال الضيق العاطفي (Emotional stress) او الشدة او الازمات العاطفية خاصة عند وقوع ازمات او كوارث حياتية من قبيل الموت ومن قبيل حفلات الادخال والقبول (Initiation) حيث يقوم الدين في هذه الاحوال باعداد طريق وسبل للتنفيس والهرب التصوري (Escape) من

الواقع المحض حيث تعز الطرائق العملية امام الانسان وتسد امامه السبل الواقعية للخلاص من شدة الموقف وورطته وثقل وطأته النفسية . ان مثل هـذه المذاهب من التفسير لم تقدم الدلائل والبراهين على صحة نظرتها او محاولاتها في تفسير الظاهرة الدينية على اساس المشاعر والاحاسيس ومهما يكن من امر فقد عانى علم النفس تحولاً آخر كان من فحواه ان هجرت مفاهيم الدهشة والاجلال والرهبة النشوة او والهزة (Thrill) حيث ظهرت نظرية «فرويد» بمفاهيمها وتفاسيرها الجديدة ولذا انقلب علماء الانسان منقلباً جديداً في تفسير الدين على اساس الاسقاط (Projection) ذلك ان « فرويد » كان يرى ان الدين ما هو إلا وهم يلازم عدم نضج الانسان كفرد او كنوع (Human race) .

غير ان « دوركهايم » واتباعه انكروا كل هذه المحاولات في تفسير الدين على اساس نفسي سيكولوجي مدعين ان الحقائق الدينية ما هي إلا حقائق اجتماعيه (Social facts) يجب تفسيرها على اساس اجتماعي لا على أساس من علم نفس الفرد (Individual Psychology) ذلك ان الدين ليس أمراً فردياً او ظاهرة من ظواهر الافراد ولكنه ظاهرة اجتماعية ، عامة ، تقليدية (Traditional) ومن خصائصها الجبر والاكراه او الالزام (Obligatory) .

ولذا راح هؤلاء يؤكدون على مهمة عالم الاجتماع عند البحث عن الظاهرة الدينية ان يكشف عن علاقات المفاهيم الدينية بنسيج الحياة الاجتماعية وعن أثر الملابسات الاجتماعية المختلفة في إحداث هذه المفاهيم وتلك الطقوس والمراسيم التي يتميز بها الدين . ان مما يدعم واقعية هذه النظرة للظاهرة الدينية هو ان علماء الانسان قد وجدوا ان الدين ـ تفكيراً وعملاً ـ يتأثر تأثراً كبيراً بما يشيع في هذه الشعوب البدائية من ظروف

واحوال سياسية واقتصادية ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بما يسود فيها من ظروف اجتماعية وانه يمارس ويظهر جلياً في حوادث الولادة والزواج والمرض والموت وما شاكل من مناسبات إجتماعية .

ومن قبيل المودة هذا التأكيد المفرط المتعاقب على العقلانية (Rationality) تارة وعلى اللاعقلانية (Irrationality) تارة أخرى في تفسير السلوك البشري كما فعل « افلاطون » في تفسيره تعاقب نماذج السلطة وكما فعل « ماركس » في تفسيره وجهة التغير التأريخي ، وكما فعل « فرويد » في نظريته المعروفة القائمة على أهمية ودور الجنس وحده في الحياة البشرية ـ الشخصية والاجتماعية ، وكما فعل « هيكل » عند تعرضه لتغير الفكر وتطوره ، ومن ثم للتغير بصورة عامة .

واذا نحن تدبرنا اي وجه من وجوه علم الاجتماع في تأريخه القصير القريب وجدنا هذه الظاهرة ـ ظاهرة المودة ـ بادية للعيان فيه خذ لذلك مثلاً حتى تعريف المجتمع نفسه ، فهو مرة كائن عضوي كبير عندما تطغى الفكرة البايولوجية العضوية على تصوير المجتمع ، وهو ماكنة كبيرة ، عندما يطغي التفسير والتصوير الميكانيكي ، وهو مجال او حقل (Field) من القوى الاجتماعية عندما يصور على أساس من مبادىء (الكهرومغناطيسيه) (٤٣) ، وهو منظومة حضارة ، او بنية طبقية ، او تنظيم من المؤسسات ، او هو بنية أدوار ، او عبارة عن مجموع العلاقات الاجتماعية او ... او ... حسب وجهة النظر الطاغية او التي كانت موضع التأكيد ، او كانت هي (عدسة العصر) .

وفي ميدان طرق البحث في العلوم الاجتماعية تطرف بعض الباحثين في عبادة بعض الطرق فيها دون عبادة العلم نفسه مما دعا النقاد الى السخرية بهم ونقدهم نقداً لاذعاً مما حفز البحاثة « هايك Hayek » الى

(43) - See Jarvie , Op . Cit . , p . 112 .

بلورة مفهومه الخاص في هذا الصدد ـ اعني المذهب العلمي « Scientism » الذى ضمن فيه تعليلاً لعدم حصول هؤلاء (المتعبدين المؤلهين) لطرائق العلم على ما يتوقعونه من عبادتهم والتزام طقوسهم ببطلان هذه العبادة وفساد هذا الدين ، وبخطل الاعتقاد بأن العلوم الاجتماعية تشبه العلوم الطبيعية (٤٤) . ومنهم من راح يعبد طريقة معينة من هذه الطرائق قد لا تنسجم مع طبيعة موضوع البحث في أكثر وجوهه ، فراحوا يزعمون ان كل ما لا يتوصل له بها وبواسطتها فهو ليس من العلم في شيء ، كما فعل « لندبرگ G . A . Lundberg » واضرابه ، مثلاً ، في التأكيد على الطريقة الاحصائية ، وكما فعل بعض الباحثين في التأكيد على الطريقة الوصفية وحدها دون الاعتماد على أية فكرة سابقة تتحكم في الانتقاء ودون التقيد بفرضية او نظرية ، إذ ان الأمر كله لا يعدو تسجيل (الاحداث والوقائع) (كما هي) من دون تمييز او انتقاء ، وبصورة عشوائية عفوية ، وهو ما يقوم به بعض الانثروبولوجيين مثلاً في دراساتهم الميدانية (٤٥) ومن هذا القبيل الافتتان المفرط الذي انهمك فيه بعض علماء النفس الاجتماعي منذ العقد الثاني من هذا القرن في (قياس المواقف Measurement of attitudes) ووضع الموازين والمعايير وتهيئة الاستبيانات والاستفتاءات لهذا الغرض ، بحيث ان علم النفس الاجتماعي لم يكن ، عند هذا الفريق من الباحثين ، إلا قياس هذه المواقف وحسب .

ان الشواهد على تدسس هذه الظاهرة الى الميدان الفكري كثيرة متعددة على مر القرون . يذكر لنا البحاثة « لكي Lecky » تبدل الجو الفكري ، الذي كان سائداً على أوروبا في العصور الوسطى والذي كان قوامه الأعتقاد بالسحر والخرافات والعرافات ، في عصر التنوير (Enlightenment)

(44) - Ibid., p. XIII.

(45) - Ibid., p. 24.

حيث أطرح هذا الاسلوب اللاعقلاني من التفكير لتحل محله العقلانية والموضوعية والطريقة العلمية منذ بواكر القرن الثامن عشر .

ان تأريخ الفكر البشري يرينا تأكيداً بالغاً عند بعض الشعوب القديمة على التأمل المجرد الخالص ، والتفكير النظري بحيث انها كانت تعتبر حياة التأمل أسمى وأرفع ما يزاوله الاحرار ، او الاتقياء . لقد كان هـذا التأكيد بالغاً عند اليونان القدماء مما نلمسه بوضوح فيما كتبه « افلاطون » و « أرسطو » وغيرهما ، وكان هذا الأمر بيناً في الديانة المانوية التي كانت تنظر الى العمل اليدوي نظرتها الى الخطيئة ، وكان هذا من سمات ما يجري عليه الفكر الهندي القديم أيضاً .

ثم تغير الأمر في العصر الحديث فأصبح التأكيد بالغاً على الحياة العملية وعلى التجريب ، وأخيراً على العمال ودورهم في المجتمع والحياة ، مما نراه ونشهده اليوم من نظم وحركات وفلسفات تدور حول أهمية هذه الطبقة ، ودورها ، وحقوقها وحرمتها ، بعد ان كان العمال وكان العمل اليدوي في العصور القديمة من سقط المتاع ، إذ العامل عبد محتقر ، او مغلوب مسخر ، او هو من طائفة الانجاس الذين تتنجس منهم الطوائف التي هي أرقى منهم في سلم نظام الطوائف كما هي الحالة في الهند قديماً لقد كان حتى المهندس مهاناً محتقراً عند اليونان قديماً ، إذ هو يعتبر ، من هذه الناحية ، من طبقة العبيد ، من طبقة الصناع اليدويين ، كما أشار الى ذلك « افلاطون » في محاورته المشهورة (جورجياس) ، التي بين فيها إحتقار المجتمع اليوناني لـه بحيث لا يود الحر ان يزوج ابنه من ابنة مهندس او يتزوج هـو من ابنة مهندس . وهكذا احتقر اليونان (علم الميكانيك) واعتبروه مجلبة للعار لمن يزاولونه ، فانحط المهندسون الى مرتبة الصناع .

غير ان هـذا التأكيد البالغ على احترام التأمل والنظر المجرد وعلى احتقار العمل والعمال والصناع والميكانيكيين بدأ يتغير شيئاً فشيئاً منذ النهضة في أوروبا بحيث اصبحنا نشهد بعد مضي ثلاثة قرون على بواكير تلك النهضة تبدلاً أساسياً في النظرة الى العمل اليدوي والى التجريب والممارسة العملية ، وأصبح التأكيد بالغاً على أهمية الصناعة والصناع في حياة المجتمع الحديث منذ بواكير القرن الثامن عشر تقريباً .

هذا ولا أظنني بحاجة الى الاشارة الى شيوع ظاهرة المودة في الانتاج الصناعي وفي استعمال هـذا الانتاج مما جعل (موديلات السيارات) الامريكية يتغير أربع مرات في السنة الواحدة ، مثلاً .

كمـا ان تغير المودات شائع في الاغاني وفي القطع الموسيقية او في نوع الموسيقى ، وفي شكل الشوارب واللحى عند الرجال ، وفي تصفيف الشعر عند النساء ، وفي تأثيث البيت والمطبخ ، وهندسة البيوت ، وفي الانتاج الادبي والروائي والقصصي ، وفي وسائل التزيين والتجميل واساليبهما وفي الرقص والالعاب ووجوه التسلية والانعاش الاخرى .

وتتناول المودة طرق التربيـة والتعليم ، واساليب المشي والوقوف وتسريحات الشعر ، والجلوس ، والمصافحة ، والأكل والشرب ، واظهار الاحترام ، واساليب التحية ، والاطعمة ، وميدان الحب ، والعشيق المفضل او الحبيبة المفضلة من ناحية لون البشرة وهيئة القوام وشكله ولون الشعر وما شاكل (٤٦) ، واساليب التجميل ووسائله ، والمثل الشائعة ، والقيم المتعارفة ، والمهن المختلفة ، وتفاضلها النسبي ، وكل ضروب النتاج .

(46) - W. G. Sumner, The Folkways and the Mores (New York : Ginn and Co., 1934), p. 191.

لقد حدثني الاخصائي المختص بتغذية الحيوان عند زيارتي لمشروع ضخم لتربية ضروب مختلفة من الحيوان خارج مدينة « شيكاغو » سنة ١٩٥٢ أن وزن الخنزير المفضل عند عرضه للبيع كان (٣٠٠) پاوناً قبل شهرين أما اليوم فأن الوزن المفضل هو (٢٥٠) پاوناً ، وعليه فان ما كان أكثر من ذلك يكون سوقه غير رائج ، على كل حال .

ومع هذا كله فان إشارة « أدوارد ساپير » وامثاله من الباحثين الى أن المودة ألصق وأكثر شيوعاً في ملابس النساء وفي ميدان التزيين والتجميل ، هي إشارة لا تخلو من الصحة إلى حد كبير .

الفصل الثاني

نبذ موجزة

في بعض المفاهيم والمبادىء الرئيسة التي
استغلت في تحليل وتفسير المودة

نبذة موجزة

في بعض المفاهيم والمبادىء الرئيسة التي استغلت في تحليل وتفسير المودة

سأحاول في هذا الفصل إستعراض ومعالجة بعض المفاهيم والمبادىء النظرية التي اتخذ منها المفكرون والباحثون في موضوع المودة أساساً او محوراً او نقاط انطلاق لتحليل هذه الظاهرة او تفسير بعض وجوهها منذ بدأ الأهتمام بهذه الظاهرة الاجتماعية من حيث هي وجـــه من وجوه السلوك الجمعي . والواقع ، ان المفاهيم والمبادىء ، التي سأعالجها فيما يلي ، كانت قد اتخذت ، في حقبة او أخرى من تأريخ الاهتمام بهـــذا الصنف من الظواهر الاجتماعية ، أدوات فكرية لتفسير كل ظواهر السلوك الجمعي هذا ، وليست ظاهرة المودة وحدها منه .

وعليه ، فسأحاول في هذا الفصل ان أركز الحديث حول ما يلي بصورة رئيسة :

أولاً ـ مفاهيم العقل الجمعي ، والتقليد والأيحاء .

ثانياً ـ لا عقلانية هذه الظاهرة وأمثالها ، وسمتها العاطفية والانفعالية

ثالثاً ـ نظرية (أو بالاحرى) فرضية التوتر .

أما الآراء الاخرى ذات العلاقة بهذا الجانب من الموضوع فقد استعرضتها وتناولتها في ثنايا الفصول القادمة بغية اكمال صورة هـذه المحاولات بمجموعها في هذا الميدان .

أولا : مفاهيم العقل الجمعي ، والتقليد ، والايحاء .

أ ـ العقل الجمعي والجماعي (Collective or group mind) :

ان شيوع هذا المفهوم في حقل السلوك الجمعي (١) ، واتخاذه مفتاحاً سحرياً من قبل بعض الباحثين لتحليل وتفسير ظواهر هذا السلوك ، ومنها المودة ، في مرحلة من مراحل نموه ونشوئه ، واحتدام النقاش حـول وجود هذا العقل الجمعي ، وحول ما اذا كانت الجماعة شيئاً غير مجموع الارجاع الفردية لاعضائها ، وحول أمور ومسائل كثيرة من هـذا القبيل تلزمنا ان نعالج هذا الموضوع معالجة وافية . هـذا ولما كانت دراسات سلوك الفرد ودراسات السلوك الجماعي تلتقي عادة في هـذا الحقل من حقول علم الاجتماع ، لذا فقد ركز الانتباه والاهتمام البالغ حول هذه

---

(١) السلوك الجمعي هـو مجموعة الظواهر التلقائية ، في الاعم الاغلب والتي تطغى على المشتركين فيها حالة نفسية مشتركة واحدة كمواكب الزفاف ، ومواكب الدفن والجماهير والاضرابات وما شاكل . إن حركات المودة هي نوع من الحركات الاجتماعية وهذه بدورها ضرب من ضروب هذه الظواهر التى نطلق عليها اسم (السلوك الجمعي). ومن هنا تجوزنا استعمال اسم هذه المجموعة كلها من الظواهر في هذا الفصل أحياناً حينما يصدق عليها جميعاً مـا يصدق على المودة من رأي في سياق هذه المعالجة .

القضايا المشار اليها أعلاه ، وتبودل التجريح والطعن والاتهام بين الاطراف المعنية بهذه المواضيع ، حيث ذهب فريق منها الى بطلان ما يسمى بالعقل الجماعي وذهب فريق آخر يؤكد على بطلان كل ما هو فردي حيث أطلق على هذا النوع من المعالجات اسم (المغالطة الفردية او الباطل الفردي Individualistic fallacy) .

لقد نشأت فكرة العقل الجماعي من اختلاف سلوك الجماعات المختلفة عن سلوك افرادها ، ذلك ان الجماعة قد تجنح ، حين تكون جمهوراً ثائراً ، مثلاً ، الى سلوك اعتدائي شاذ وقد تقسو قسوة وحشية ، وتخرج على كل الحدود المتعارفة بين افرادها في الاحوال الاعتيادية فيرتكب هؤلاء الاعضاء ، جرائم منكرة ، ويقومون باعمال لا يمكن ان يقوموا بها لو كانوا بمعزل وعلى إنفراد بعيدين عن التأثير الجماعي الذي شملهم وغلب عليهم فلفهم في التيار الجماعي او الجمعي ، وجعلهم يتصرفون مثل هذا التصرف الذي يعد ناشزاً في الاحوال الاعتيادية . ان مثل هذه الظواهر هي التي دفعت المتعلقين بهذا المفهوم ان يفترضوا وجود مثل هـذا العقل بحيث أصدر « مكدوكل W . McDougal » كتاباً سنة ١٩٢٠ بهذا العنوان (٢) . يحدثنا البحاثة « لاپير LaPiere » الذي يعتبر من مشاهير الكتاب في موضوع السلوك الجمعي ، ان مفهوم العقل الجماعي قد تمخض عنه الاعتقاد بأن تفاعل الناس في جماعات اجتماعية يؤدي الى ظهور صفة جمعية (Collective Ethos) سميت بأسماء مختلفة منهم من سماها (عقلاً) ومنهم من سماها روحاً (Soul) او نفساً (Spirit) . ان هـذا العقل المزعوم كان قد اعتبر القوة الموجهة المهيمنة على كل الفعاليات الجمعية . وبعبارة اخرى : ان الناس عندمـا يتفاعلون جمعياً (Collectively)

(2) - W . McDougal , The Group Mind .

فانهم يفقدون ، على حد زعم هذه الفئة من الكتاب ، استقلالهم الذاتي وشعورهم بأنهم افراد مستقلون ومندمجون متحولين الى كل - تهيمن عليه هذه الروح او هذا العقل او هذه القوة (Force) وتملي على الاعضاء فيه سلوكهم .

لقـــد استغل الفلاسفة هذا المفهوم لتبرير أي سلوك جمعي يريدونه تبريراً فلسفياً ، ما دام العقل الجماعي هو الذي يقرر ويملي سلوك تلك الجماعة . وعليه ، فـلا يجوز لأي عضو في الجماعة ان يحاول مقاومة او معارضة الأمر الجمعي ، لأنه أمر يمليه العقل الجماعي لها . زد على ذلك ان زعيم الجماعة ما هو إلا ممثل لهذه الروح الجمعية ومعبر عنها ، ومن ثم فلا يجوز إنتقاده مطلقاً . ان العقل الجماعي هذا ذو علاقة تأريخية وثيقة من حيث النسب والتسلسل الفكري بمفهوم روح الشعب او الأمة (Volk Giest) الذي بلور في عهـد « هيكل » و « كانت » من قبل ، والذي كانت له أهمية بالغة في عملية رص وتماسك الشعوب الجرمانية تحت زعامة « بروسيا » على عهد عاهلها « فردريك الكبير » (٣) .

لقد وجد هؤلاء المتعلقون بهذا المفهوم ، ان الانسان بصفته الجمعية - اعني من حيث هـو فرد في جماعة - يمكن يقوم بأعمال مستهجنة من دون ان يؤنبه ضميره عليها في حينه ، وهو لا يمكن ان يقوم بمثل هذه الاعمال لو كان منفرداً لوحده (٤) .

لقـــد اختلف الباحثون الذين ادعو اوجود مثل هذا العقل ، حول طبيعته ومنشئه ومصدره وخصائصه ومستقره ، فذهب بعضهم الى انـه

---

(3) - See LaPiere , Collective Behavior , (New York : McGrow - Hill Co . , 1938) p . 5 .

(4) - See G . LeBone , TheCrowd ; A Study of the Popular Mind (London : Fisher and Unwin , 1920) p . 29 .

بجموع عقول الافراد الذين يكونون الجماعة ، وذهبت فئة ثانية الى انه معدل او محصلة تلك العقول ، وذهبت فئة ثالثة الى ان العقل الجماعي يمثل أذكى او أغبى عقل بين عقول افراد الجماعة ، وارتأى آخرون بأنه من نوع التمثلات الجمعية التي تعلق بها « دوركهايم » من حيث انه عقل مستقل منفرد بذاته فهو ليس بجموع عقول الافراد الذين يتكون منهم الجمهور ، ولا هو محصلة تلك العقول وانما هو عقل مستقل عنها خارج تلك العقول ولكنه مع ذلك يهيمن عليها في مثل هذه الاحوال والظروف . وذهب « سبنسر » ومن شايعه الى نكران وجود مثل هذا العقل على أساس ان لابد للعقل من جهاز عصبي وليس للجماعة من جهاز عصبي يستقر فيه هذا العقل المزعوم ويكون مظهراً من مظاهر نشاطه .

هذا ولعل من المفيد ان أشير في هذا الصدد الى ان هذا النوع من العقل كان ذا دلالات مختلفة عند جمهرة من الكتاب الذين تمسكوا به واستخدموه في تفسير بعض ظواهر السلوك الجمعي . ان مراجعة المؤلفات التي عرض فيها هذا المفهوم ترينا انه استعمل فيها على ثلاثة ضروب او اشكال لعل من المفيد ان أشير إليها فيما يلي :

---

١ ـ عقل الجمهور (Crowd mind) : لقد استعمل مفهوم العقل الجماعي بهذا المعنى من قبل « لوبون G.LeBon » في كتابه الجمهور (The crowd) حيث ضمنه « لوبون » هذا رأياً خلاصته ان الناس في الجمهور (٥)

(٥) ان مما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد هو ان مفهوم (الجمهور) عند « لوبون » ليس مفهوماً دقيقاً في دلالته ، وهو ما يبرر حشر هذه المعالجة في تفسير ظاهرة المودة . ذلك ان الجمهور ، عند « لوبون » هذا ، هو بجموع من الناس يتظاهرون ، او هو بجموع طلاب صف ، او أعضاء برلمان ، او اثنان يتحدثان في الفلسفة او حول اي موضوع آخر ، او أية جماعة يسلك اعضاؤها سلوكاً متشابهاً الى حد ما .

يظهرون بالشكل الذي هم فيه لأن الوعي او الشعور الشخصي لكل فرد (Personal consciousness of each individual) ينطمس ويعوض بوعي او شعور جماهيري (Crowd consciousness) . وعليه فان الناس في مثل هذه الحالة يصبحون منجرفين او مأخوذين (Seized by) بهذا العقل الجماعي الذي يتحكم فيهم ويسيطر عليهم . ان بهذا النوع من الافتراض نستطيع ان نفسر سلوك هؤلاء الناس في مثل هذه الحالات ، والا اعوزتنا امكانية تفسير سلوكهم ، كما يدعي اصحاب هذا المفهوم .

ان من البين الواضح بأن اللجوء الى الخرافات من هذا النوع هو أمر غير علمي وغير ضروري ، ذلك ان الوعي - كما سبق ان اشار الى ذلك « هربرت سبنسر » في نقده هذه الوجهة من الرأي - يتوقف على وجود جهاز عصبي والجمهور ليس له جهاز عصبي .

٢ - العقل لجمعي او العقل الطبقي (Collective or class mind) : لقد اسبغ على الجماعة في اهذه الحالة عقل لمجرد ان هناك شبهاً وتطابقا في التفكير والعمل بين اعضائها كما هي الحالة في الجيش ، وفي الحزب السياسي ، وفي النقابة وما شاكل .

٣ - العقل الجماعي اوالعقل الاجتماعي(Group or social mind): لقد افترض من قبل بعض الكتاب في هذا الباب بأن التنظيم الثابت المستمر من شأنه ان يولد عقلا جماعياً (Group mind) او عقل جماعة من هذا النوع .

لقد حاول « مورس كنز بركث » انتقاد القائلين بنظرية العقل الجمعي الاجتماعي (Socail or collective mind) او من يسمون بالواقعيين الاجتماعيين (Social Realistic) احياناً بالشكل التالي (٦) :

---

(6) - See M . Ginsberg , The Psychology of Sooiety (London : The Methuen and Co . , 1964) , pp . 40 — 43 .

١ ـ ان الذين يزودون المجتمع او الجماعة بعقل (Mind) يخلقون من المجتمع او الجماعة وحدة وهمية خيالية لا يتسم بها المجتمع عادة ويجعلون له ذاتية من شأنها أن تؤدي الى التقليل والتهوين من فردية الفرد فيه أو اية جماعة أخرى فيه . إن مما لا شك فيه أن المتمسكين بنظرية العقل الاجتماعي او الجمعي يؤكدون على أن العقل الجمعي موجود في عقول الافراد الذين يتكون منهم المجتمع ، مع العلم ان الفرد قد دمج ـ في نظر هذه النظرية ـ وصهر في الكل الاجتماعي .

٢ ـ ان هذه النظرية تمكن الحكم المطلق (Autocracy) لان يبدو لنا في زي الدمقراطية ، ذلك لان (العقل الجمعي) الذي هو اعلى وأجل من عقول الافراد لا يمكن ان يعبر عن نفسه بحد ذاته ، إن العقلاء او المتنفذين او القلة الحكيمة هي التي تمثل هذا العقل الجمعي المعصوم عن الخطأ . وعلى هذا الاساس يبرر حتى الحكم الجائر الـــذي يهدد حريات الافراد على الاساس ان الدولة هي اعرف بمصلحة الفرد وما يحتاج اليه .

٣ ـ إن نظرية العقل الجمعي لا بد وان تؤدي حتماً الى تأليه المجتمع والى اسباغ العظمة والسلطان عليه ، والى جعله أجل واقدس من الافراد ، والى انه مصدر السلطة الخلقية والمعايير والقيم السامية(٧) .

٤ ـ إن هذا التأليه يؤدي بالطبع الى محافظة (Conservatism)

---

(٧) وهذا في الواقع هو ما ذهب اليه ((دوركهايم)) حيث أله المجتمع وزعم (أن الله هو المجتمع) . راجع في هذا كتابه التالي :

E . Durkheim , The Elementary Forms of Religious Life . Trans . by J . W . Swain (New York : Macmillan Co . , 1915).

قوية ، والى الميل لتبرير الوضع الراهن . والواقع اننا حين نبدأ بافتراض ان للمجتمع عقلاً جباراً هو اسمى من عقول الافراد بكثير ، وهو يتميز بغاية العقلانية (Rationality) ، فلا بد من ان ننتهي ، ولو بصورة لا شعورية ، الى التسليم والخضوع والطاعة له أو جعله الاهاً بازاء الانسان الضعيف . إن هذه المحافظة هي من خصائص وسمات كل الذين اتبعوا « هيكل » وائتموا به في هذا الصدد .

وهنا تثار اسألة اعتراضية كثيرة حول هذا العقل الجمعي منها ما يلي : ترى هل المجتمعات شاعرة واعية بنفسها ؟ واذا كانت كذلك فلماذا كان من الصعب ان نعرف ماذا تفكر هذه المجتمعات ؟ (٨) وإذا كان للمجتمع وعي وعقل وشعور فأين هو مركز هذا العقل والوعي في المجتمع ؟ او اين ما يسميه « هربرت سبنسر » مركز هذا الـ (Social Sensorium) ؟

يرى البحاثة « مورس كنزبركث » أن من اهم هفوات المتمسكين بنظريات العقل الجماعي او الجمعي انهم يخلطون بين العمليات او الوظائف من ناحية وبين المحتويات او القيم من ناحية اخرى (٩) . فما يخبره الانسان من عمليات شعورية وعقلية هو عبارة عن عمليات ، غير ان القيم والقوانين والوجوه الحضارية الأخرى كالتقاليد والدين والفن وما شاكل هي عبارة عن محتويات (Contents) . إن العمليات الشعورية على رأي « مورس كنزبركث » تحدث في عقول الافراد عادة (١٠) . ومن هنا يطري « كنزبركث » مسعى « زمل Simmel » في ضرورة تمييز وفصل العمليات (Process) عن المحتويات . إن المحتوى يمكن ان يكون

---

(8) - Ginsberg , Op . Cit . , p . 46 .

(9) - Ibid . , p . 46 .

(10) - Ibid . , p . 46 .

عاماً (Universal) - على ما يرى « كنزبركث » ولكن العمليات (Processes) لا يمكن الا ان تكون فردية لانها تحدث في عقول الاشخاص (١١) . وعلى هذا الاساس يرى « كنزبركث » ان آراء « دوركهايم » في التمثلات الجمعية يجب ان تنصب على المحتويات فقط لا على العمليات والا انتهينا الى ما انتهى اليه « دوركهايم » من اغفال اهمية الفرد تماماً إزاء المجتمع (١٢) .

ب - التقليد :

منذ كتب « تارد Tarde » كتابه (The Laws of Imitation) سنة ١٨٩٠ مبيناً اهمية التقليد والاختراع على انهما العمليتان الاجتماعيتان الاساسيتان حذا حذوه كثير من علماء النفس والاجتماع مبينين ان السلوك الاجتماعي بضروبه المختلفة انما يقوم على التقليد . غير ان الكتاب في هذا الموضوع قد اختلفوا حول طبيعة عملية التقليد هذه . فـ « جيمس W. James » و « بالدوين Baldwin » واضرابهما قد اعتبروا عملية التقليد عملية غريزية ولكن (McDougall) يذهب الى ان هذا الاعتبار اعتبار خاطيء ذلك ان ليس هناك انواع من السلوك خاصة يظهر فيها هذا التقليد . ان اغلب علماء النفس في الوقت الحاضر ينكرون تفسير التقليد على اساس غريزي . إن « تارد Tarde » الذي سعى لتكوين نظرية عامة عن طبيعة المجتمع قوامها التقليد كان قاضياً ساقته ظروف مهنته هذه لبحث طبيعة الاجرام مكوناً نظريته المعارضة لنظريات « لمبروزو Lombroso » التي فحواها ان الاجرام هو نتيجة الطبيعة البيولوجية للانسان ، اي انه ظاهرة موروثة . ولكن « Tarde » الذي تأثر الى حد

---

(11) - Ibid . , p . 50 .

(12) - Ibid . , pp . 48 — 51 .

كبير بما كان شائعاً في حقل الامراض العقلية في زمانه خاصة بما كان يدور حول التنويم المغناطيسي وما يتصف به سلوك المنوم تنويماً مغناطيساً من قابلية للايحاء والتقليد صار يدرس الموجات الاجرامية او الوباء الاجرامي (على ما سماه هو) على ضوء هاتين الظاهرتين : التقليد والايحاء . ولكن « تارد » لم يقف عند هذا الحد بل انه استخدم نظريته هذه لتفسير كل ضروب السلوك الاجتماعي بحيث انه اعتبر التقليد الحقيقة الاجتماعية الجوهرية ، ولهذه الحقيقة قوانين تصف طبيعتها وآثارها وعليه فان التغير الاجتماعي انما كان ممكن الحدوث لان الناس يقلدون ما هو جديد وكل ما هو بارز . والنتيجة فان المجتمع لا يمكن ان يوجد من غير تقليد .

انه لمن السهل ان نلاحظ بأن اغلب الاعمال التي يدعي اصحاب مبدأ التقليد بأنها انما أديت بتأثير التقليد يمكن تفسيرها تفاسير اخرى بعيدة كل البعد عن التقليد . ذلك أن الناس اذا ضحكوا في الصف او في السينما عند سماعهم نكتة او مشهداً ما انما يضحكون لانهم تعرضوا لوضعية خارجية واحدة ، وعندما يقلد لباس ممثلة من الممثلات او تصفيف شعرها فان هذا التقليد لا يثيره التقليد ذاته وانما تحفز مثل هذا العمل قيمة يسبغها الفرد أو المجتمع على ما كان قلد . وبعبارة اخرى يصعب جداً ايجاد دافع خاص معين يدفع الناس على التقليد ذلك ان هذه الدوافع تتعدد بتعدد المواقف والاوضاع .

لقد المعنا سابقاً الى ان مفهوم التقليد كان قد انتزع من ظاهرتي التنويم المغناطيسي والايحاء تينك الظاهرتين اللتين وصفتا من قبل علماء الامراض العقلية . حاولت فئة من المفكرين التمييز بين الايحاء والتقليد ، وان كان بعض الكتاب قد ادعى ان الظاهرتين متداخلتان بحيث لا يمكن

فصل الواحدة عن الاخرى ، ان من الكتاب الذين حاولوا التمييز بين هذين المفهومين هو « سترن William Stern » حيث ادعى هذا الكاتب أن الايحاء ضرب من السلوك اكثر تعقداً من التقليد حيث انه يتضمن شيئاً من التفسير . فاذا صفق رجل واعاد عمله طفل فهذا تقليد من قبل الطفل ، اما اذا كان هذا الرجل يبكي وفهم الطفل ان هذا الرجل انما يبكي لشقائه وبؤسه فبكى الطفل نفسه فان هذا البكاء قد سبب بتأثير الايحاء . يعترض آخرون على « سترن » مدعين ان عامل التفسير هذا لا يمكن ان يميز الايحاء عن التقليد ذلك أن الايحاء في كثير من الاحيان يخلو من مثل هذا التفسير حيث يدعي « ألپورت F.H. Allport » ان الايحاء يقوم على قبول ما يوحى به من غير تفكير وهذه الخاصية هي من اهم خواص الايحاء.

لقد تأثر « روس E.A. Ross » بـ « تارد » تأثراً بالغاً حيث استورد منه مفهوم (التقليد) في تفسير ظواهر السلوك الجمعي كافة تقريباً . فهو يقول مثلاً : ونحن نرى ان الغوغاء (Mob) (١٣) انما تهتاج بسرعة وسهولة لان الانسان يصبح مقلداً (Imitation) بدرجة عالية عندما يسيطر عليه الهياج (١٤) .

---

(١٣) إن كلمة (Mob) عند الكتاب المحدثين الذين يلتزمون دقة الاصطلاحات في السلوك الجمعي تعني الجمهور في حالة تفرقه ، غير ان « روس » يستعملها هنا بمعنى جمهور وحسب إذ هو يعرف الغوغاء كما يلي : « انهم جمهور من الناس يظهر عليهم الاتفاق في الرأي والاجماع فيه ، ان سبب ذلك هو العدوى العقلية » . اقتطفت هذه الفقرة من المرجع التالي :

E . A . Ross , Foundations of Sociology (New York :1905) , p . 102

(14) - Ibid . , p . 103 .

جـ ـ الايحاء :

ليس من السهل ، في هذه المرحلة من البحث ، تعيين دلالة واضحة لمفهوم الايحاء حيث ان هذا المفهوم كان قد استعمل من قبل الكتاب المختلفين لدلالات مختلفة لعل من المفيد ان اشير الى البعض منها لابراز الارتباك والتباين الذي يعتري هذا المفهوم في كتابات الكتاب والمؤلفين في هذا الميدان .

هذا ولعل من المفيد ، في هذا الصدد أن أورد تعريف احد علماء النفس المحدثين للايحاء وهو الباحث « ڤوغان Vaughan » الذي يذهب الى أن الايحاء هو « تهيئة واعداد منبه من شأنه أن يحفز الرجع المرغوب فيه بحيث يؤدي ذلك الى قبول معتقد ما او امر ما قبولاً غير قائم على النقد والروية والتمحيص فيكون اساساً للعمل » . (١٥)

يؤكد لنا الباحثون (G . Murphy , L . B . Murphy , Newcomb) في كتابهم الموسوم (علم النفس الاجتماعي التجريبي Experimental Social Psychology) على ان مفهوم الايحاء (Suggestion) قد استعمل في تسمية ثلاثة ميول مختلفة من قبل علماء النفس وعلماء النفس الاجتماعي . ان هذه الميول هي ما يلي : (١٦)

١ ـ الميل لأن يرجع الانسان لوضعية ما نفس الرجع الذي قام به من قبل في وضعية مشابهة سواء كان هذا الرجع مناسباً لهذه الوضعية الجديدة او غير مناسب .

٢ ـ ميل الانسان للاستمرار في عمل كان يعمله حتى ولو كان خطأ .

---

(15) - W. F. Vaughan , Social Psychology (New York : Odessey Press , 1948) , p . 221 .

(16) - See G . Murphy , L . B . Murphy and T . M . Newcomb , Experimental Social Psychology (New York : Harper and Brothers , 1931) , pp . 169 — 171 .

ان مثل هذا الاستمرار مدفوع بدافع الايحاء .

٣ ـ الميل للاعتقاد بكل ما يقال او القيام بعمل كل ما يوعز الى الفرد القيام به بدافع بعض الدوافع الاجتماعية من قبيل الخوف من شخص او احترامه ، او حبه مثلاً . ان هذا النوع يسمى احياناً الايحاء بواسطة النفوذ أو الايحاء النفوذي ان من الامثلة التي تورد على الاستعمال الاول والثاني لعبارة ايحاء هو ما قام به « بينيه Binet » حيث عرض هذا مجموعة من الخطوط كل منها اطول من سابقه امام شخص اجريت عليه التجربة . وبعد عرض هذه الخطوط مرات متعددة بدأ « بينيه » يعرض له خطوطاً متساوية في الطول الواحد بعد الآخر . ولكن الشخص المجرب عليه استمر يرى ما يعرض عليه من الخطوط الواحد اطول من سابقه .

ان ما يسمى بالايحاء النفوذي (Prestige Suggestion) قد استغل استغلالاً كبيراً في حقل السلوك الجمعي خاصة في تفسير الدعاية والرأي العام والمودة ان « لوبون G . LeBon » كما ذكرنا قد استغل مفهوم الايحاء هذا لتفسير ظاهرة السلوك الجمهوري كما ذكرنا ذلك من قبل ، اذ قد تأثر بما كان شائعاً عن الايحاء في حقل الامراض العقلية .

ان التجارب التي قام بها « هـــل Hull « و « أيڤلنج Aveling » و « هاركريڤز Hargreaves » في الايحاء برهنت على ان الناس الذين يخضعون للتجربة حول هذا الموضوع ينقسمون الى قسمين :

١ ـ أولئك الذين يؤثر فيهم الايحاء تأثيراً ايجابياً .

٢ ـ « « « « « « « سلبياً حيث وجد ان بعض الناس يعتقدون مثلاً اشياء هي عكس ما دعى اليه ناشر الدعاية .

يذهب بعض الكتاب حول ما يسمى بالايحاء النفوذي بأن التجريب في هذا الباب برهن على ان الرجل المشهور في حقل ما او وجه مـا من

وجوه الحياة يعتبره الناس ذا قابلية في فروع او وجوه اخرى من الحياة، مع ان الفرضية قد لا تصدق في اغلب الاحيان .

زد على ذلك ان العدد الكبير او الاغلبية من الناس تتصف آراؤها او اعمالها بالنفوذ بحيث ان لها خاصية الايحاء النفوذي ايضاً . اذ قد وجد ، نتيجة تجاريب متعددة ، بأن معرفة الرأي العام لها تأثير كبير في الموقف الفكري للفرد .

يستنتج بعض الكتاب بان تأثير الايحاء النفوذي مقصور على الوضعيات الغامضة . ان احتمال نجاح الايحاء كبير عندما يكون هذا الايحاء مؤكداً او مدعما معتقدات يتمسك بها الناس . لقد استطاع « هتلر » ان يجر المانيا كلها وراءه لانه بنى دعوته على استغلال مخاوف الالمان حيث ثبت في اذهانهم ان العالم كله هو ضد الالمان . ان هـذا هو ما رص صفوف الالمان وشد من عزائمهم لأن هذه الدعوة كانت منسجمة مع الانماط التي كانت شائعة بين الالمان . والواقع ان من يشير الى الناس بـان يعملوا عملاً هم موجهون له ومهيئون لعمله تكون اشارته تلك ايذاناً بانطلاق الناس ودفعهم على ذلك العمل . يضاف الى ذلك ان الناس عـادة ينجذبون نحو من يعبر عن معتقداتهم وما يخالجهم من مخاوف وآمال . ان هذا المنحى هو في الواقع المدخل الى قيادة الناس وزعامتهم .

وهنا قد يثار السؤال : ترى اذا كان الايحاء مهماً الى هذا الحد في بلورة بعض ضروب السلوك الجمعي وفي نشر وذيوع المودة فما هي اذن السبل والعوامل التي تساعد على جعل الايحاء ناجحاً موفقاً نافذ المفعول ؟ . للاجابة على هذا السؤال أود ان اشير الى العوامل والاساليب التالية التي ترى جمهرة من الكتاب في هذا الباب نفوذ مفعولها في انجاح الايحاء .

لقد وردت في الكتاب اخطاء لا يخفى صواب اكثرها على القاريء اللبيب ، وفيما يلي اهمها :

ص	س	الخطأ	الصواب
٦	٢٢	هذا بصرف	هذا وبصرف
٩	٢	معايره	معاييره
١٠	٩	ما حواليه	ما حواليهم
١٤	٧	شتر	شتى
٢٠	١٢	يحضر	تحضر
٣٢	١٩	(Fashion)	« Fashion »
٣٦	١٤	ظاهر	ظاهرة
٣٧	١٢	هنا	هناك
٣٨	٤	من حواليه	من حواليهم
٣٩	٨	ان هذا السطر كله هو تكملة للجملة التي قبله ، وليس هو بداية جملة .	
٤١	٢٠	من الاعم	في الاعم
٥٠	١٦	مراة	مرات
٥١	١٤	بحثا الذهب	بحثا عن الذهب
٥٩	١٢	الذي	اللذين
٥٩	١٤	المطرفون	المتطرفون
٦٠	٤	الاخرى	أخرى
٦٠	٥	مما يشيع	مما تشيعه
٦٠	٢٠	اسم	اسمه
٦١	١٤	انه ينبعث	ان ينبعث

ص	س	الخطأ	الصواب
٦٣	٧	اكتشفاف	اكتشاف
٦٣	١٣	هذه الميدان	هذا الميدان
٦٤	١٦	يفتتون	يفتتنون
٦٦	٣	يهيأون	يهيئون
٧٢	٢٢	Tarvie	Jarvie
٧٣	٥	نوع القبعات	نوع من القبعات
٧٣	١١	مهيئة	مهيأة
٧٣	١٢	تكون الشائعة	تكون المودة الشائعة
٧٨	٩	طففت	طغت
٧٨	١٠	اغلقت	اغفلت
٧٩	٢٠	الانثروبولوجين	الانثروبولوجيون
٨٠	١٥	قبل هذه الفكرة	مثل هذه الفكرة
٨٤	٦	النشوة	والنشوة
٨٥	١٧	منظومة حضارة	منظومة حضارية
٨٧	٢	بواكر	بواكير
٨٨	٩	يتغير	تتغير
٩٤	٦	والجماعي	او الجماعي
٩٦	٢	ومندمجون	ويندمجون
٩٦	١٦	يمكن يقوم	يمكن ان يقوم
٩٧	ينقل الخط الموجود تحت سطر ١٥ ويوضع تحت سطر ١٨ من نفس الصفحة		
٩٨	٢١/٢٠	الجمعي الاجتماعي	الجمعي والاجتماعي

ص	س	الخطأ	الصواب
٩٨	٢٣	Sooiety	Society
٩٩	١٣	الاساس	اساس
١٠١	١٥	أليس	ليس
١٠٩	١٨	كند نكز	كدنكز
١١١	١٤	تثير ،	تثير ، في
١١٢	٤	على اسباغ	على اساس اسباغ
١١٦	١١	تفكر	تفكير
١٢٢	٧	الرسمي	الرسي
١٢٣	٢٢	ان المباديء	ان هذه المباديء
١٢٤	١٨	فعيلة	فعلية
١٢٤	١٩	نتائج	نتاج
١٤٨	١٦	للمشى	للتمشي
١٤٩	٩	التغيرات	الثغرات
١٤٩	١٥	توافه	بتوافه
١٥٣	١٣	تأريخ البشرية .	تأريخ البشرية :
١٥٤	٢٢	داسته	دراسته
١٥٩	١٧	الرئدات	الرائدات
١٦٩	١٥	شكله	شكل
١٨١	١٠	هنا	هناك
١٩١	١٦	لويد دارنر	لويد وارنر
٢٠٤	١٣	Cast	Caste
٢١٣	١٦	أثار	آثاراً

ص	س	الخطأ	الصواب
٢١٧	١	تزورها	تزودها
٢٢٢	٢١	زائفة	زائغة
٢٣١	٧	الصدور فلا	الضمائر، لا
٢٣١	٧	يكفا	يكافا
٢٣١	١٤	افصل	افضل
٢٣٣	٢٢	Leterature	Literature
٢٣٣	٢٤	Hoolywood	Hollywood
٢٣٥	٢	اعتداء	حشد
٢٣٥	٣	حشد	اعتداء
٢٣٥	١١	الطوائف الاجتماعية	المجتمع الطائفي
٢٣٨	٧	التمثين	التثمين
٢٣٩	٢٠	Maina	Mania

اعتذار

لقد ظن مرتب الحروف أن عبارة (ولايصلح العطار ما أفسد الدهر) الواردة في صفحة ٨ ، هي بحد ذاتها شعراً فقطعها تقطيع الشعر ، وفات على المشرف على طبع الكتاب سهواً هذا التقطيع ، فأعتذر الى القاريء الذي لابد وأن يعلم أن هـــذه العبارة عجز لبيت مشهور يروى بأشكال مختلفة منها ما يلي :

وجاءت الى العطار تصلح شأنها ولايصلح العطار ماأفسد الدهر

ان هذه العوامل والاساليب هي كما يلي :

أ ـ اثارة حاجات الناس ودوافعهم العاطفية ومعتقداتهم الراهنة وآمالهم ومخاوفهم .

ب ـ الاشتراك بواسطة المقاربة وهو اسلوب يقوم على مبدأ الوحدة الجزئية من قبيل مثلاً : ان نفط السيارات المبرد هو افضل من غير المبرد لان المسكن المبرد هو افضل من غير المبرد عادة .

جـ ـ الامتداح والاطراء من قبل ذوي النفوذ او من قبل من هم حجة في الميدان أو ذوي سلطان . ان هذا الاطراء والامتداح او التفضيل قد لا يكون مصيباً او معقولاً في الواقع ، ولكن الناس يتقبلونه لان الناس لا يسلكون على اساس من العقل دائماً وخاصة في هذا الباب من السلوك الذي يقوم عادة على اعتبارات غير منطقية في الاعم الاغلب .

د ـ وسط الايحاء ، أهو وسط سمعي ؟ أم وسط بصري ؟ . ان الدراسات التي اجريت حول تأثير الراديو وتأثير الصحف بينت لنا ان بعض الناس يتأثرون بالسماع اكثر من تأثرهم بالقراءة في حين ان بعضاً آخر هم على العكس من ذلك . وعليه فان معرفة هذه الحقيقة تعين كثيراً في استخدام الايحاء عن طريق السماع (في الراديو ، او المحاضرات او الاشاعات وما شاكل) او عن طريق القراءة (في النشرات والصحف والمجلات وما شاكل)(١٧) ، او عن طريق رؤية القدوة او الصورة كما هي الحالة في ظاهرة المودة .

هـ ـ وهناك عوامل تفعل مفعولها في تيسير عملية الايحاء في بعض

---

(17) See P . F . Lazarsfeld , Radio and The Printed Page ; An Introduction to the Study of Radio and Its Role in the Communication of Ideas (1940) ; See also G . Alport and H . Cantril , The Psychology of Radio (New York : Harper , 1935) .

الحالات الشخصية او الجماعية الخاصة ، منها : عامل الجهل ، والعمر ، والجنس ، والهياج العاطفي ، وتهيؤ الفرد للاعتقاد . فالطفل مثلاً قد يصدق حتى بمنطويات الخرافات والاوهام ، والبنات والبنون الصغار اكثر تأثراً بالايحاء ممن هم اكبر سناً ، والنساء بصورة عامة اكثر تأثراً بالايحاء من الرجال ، والمرء المنفعل المهتاج اكثر تأثراً بالايحاء مما لو كان هادئاً ، ومن يعتقد بانه يشكو من داء يصبح اعتقاده اعمق من ذي قبل واقوى عندما يخبره الطبيب بانه مريض وان لم يكن مريضاً حقاً .

وعلى كل حال فان محاولة التأثير في الناس لحفزهم على شراء بضاعة ما ، او تبني مودة ما ، او قبول فكرة ما ، او تدعيم ومساندة امر من الامور او حركة من الحركات تستلزم غالباً اللجوء الى الفنون الدقيقة في استخدام الايحاء ، واستعمال الاساليب التي بواسطتها نستطيع ان نعد (المنبه) المناسب للحصول على الرجع المرغوب فيه . من هنا يتبين ان ضبط سلوك الاخرين والسيطرة عليه يتوقفان الى حد كبير على الاستعمال الماهر الموفق للايحاء .

وعلى هذا الاساس فقد اجريت دراسات كثيرة حول علاقة الايحاء بالرغبة او الموقف (Attitude) حيث كشفت لنا تلك الدراسات ان الناس يقبلون عادة ، وبصورة عامة ، تلك الايحاءات التي تنسجم مع مواقفهم الراهنة (١٨) .

لقد اسهبت في الكلام عن الايحاء لان هذا المبدأ قد أتخذ مفتاحاً سحرياً من قبل كثير من الكتاب في حقل السلوك الجمعي بصورة عامة

---

(18) - See , for example , T . F. Coffin , « Some Conditions of Suggestion and Suggestibility ; A Study of Certain Attitudinal and Situational Factors Influencing the Process of Suggestion , » Psychological Monographs , No . 241 (1941) .

وفي مواضيع الرأي العام والمودة والدعاية بصورة خاصة ، كما انه استغل استغلالاً كبيراً من قبل بعض علماء الحضارة البشرية ، وعلماء السلالات البشرية في تفسير قابلية المعتقدات على التأثير في السلوك بين افرادالشعوب البدائية . لقد بالغ بعض الكتاب المتعلقين بالايحاء في التأكيد عليه في تفسير شتى الظواهر الى درجة انهم صاروا يفسرون حتى مرض البحر او دوار البحر بل حتى الشلل على هذا الاساس .

ان فريقا من هؤلاء الكتاب يعتقدون بأن الايحاء يتم بتأثير مؤثر خارجي على الشخص - من قبيل فكرة او منبه ما يتعرض له الفرد - في حين ان كتاباً آخرين يرون ان المنبه الايحائي قد يؤثر على الفرد من الداخل ايضاً كانشغاله بفكرة هو يخلقها لنفسه مثلاً ، ولذا فهم يسمون هـــذا النوع من الايحاء بالايحاء الذاتي (Self suggestion) .

يتبين مما مر ان المحاولة التي كان محورها (العقل الجماعي) لم تكن هي المحاولة الوحيدة لتفسير ظاهرة المـــودة وسببيتها ، بل كانت هناك محاولات عديدة أخرى منها ما كان قائماً على افتراض غرائز معينة ، كما فعل « تروتر Trotter » مثلاً حيث زعم ان (غريزة القطيع The herd instict) هي اساس كل ظاهرة اجتماعية . ومنهـا محاولـة « تـــارد » القائمة على اساس (التقليد) ، ومنها المحـاولات التي تضع أهمية بالغة على (الايحاء) ، ومنها ما زعمه « كندنگز Giddings » من ان الناس انما يعملون سوية (Act together) لأنهم يتشابهون في عقلياتهم (Like - mindedness) . أما « دركهايم » فقد راح يؤكد على ان الناس يعملون سوية لا لأنهم ذوو غايات واهداف متشابهة بل لأنهم ذوو غايات مشتركة (Common purposes) . ان هذه الغاية المشتركة تفرض نفسها على كل فرد في المجتمع او الجماعة ، وتظهر فيهم ، بنفس الوقت ، على

شكل مثل أعلى او رغبة او التزام (Obligation) . وعليه فان الضمير - الذي هو الحس بالالتزام الذي يشعر به اعضاء الجماعة عندما يكون هناك تباين واختلاف (Conflict) بين رغبات الفرد وبين ارادة الجماعة - ما هو إلا مظهر للعقل الجمعي (Collective mind) وإرادة الجماعة (Group will) في شعور الفرد (Individual consciousness) (١٩) .

يتبين مما مر ، بصورة موجزة ، ان الخلاف بين هؤلاء الباحثين لم يكن دائراً حول موضوع واحد فقط بل انه تناول عدداً من المسائل والامور . وعليه فان تدبر بعض هذه المسائل - كل منها على حدة - قد يمكننا من عزل المسائل والامور المصطنعة - غير الهامة - وقد يمكننا أيضا من ايضاح النقاط المعقولة في الخلاف بين الفرقاء من الباحثين في هذا الموضوع .

ان من هذه المسائل التي اثيرت في هذا الصدد هي : كيف يجب ان يوصف نشاط الجماعة او توصف الفعالية الجماعية ، ذلك ان الجماعة هي عدد من الافراد قائمين بفعل ما (Acting) وهي ، في نفس الوقت مجموع هؤلاء الافراد او كليتهم (Atotality) . ان الجماعات تجنح لان تطبع المشاهدين من حيث هي كليات (As wholes) ، وهذا مما يؤدي بالطبع الى ضرورة وضع اوصاف الجماعة بشكل بحيث تبدو انها تتكون من اعضاء فاعلين ورادين للفعل (Acting and reacting) ، لا على انها تتكون من أعضاء منعزلين منفصلين عن بعضهم بعضا . وعلى هذا الاساس بالذات صرنا نسمع في مثل هذا النوع من التصوير بأن الغوغاء قد هاجم ضحيته ، وان العموم قد انتقى مفضلاً مسلكا معيناً من العمل . والواقع ان هذا الاسلوب الشائع في وصف سلوك الجماعة لا يخلو من مخاطر ذلك انه :

(19) See Park and Burgess , An Introduction to the Science of Sociology (Chicago : The Univesity of Chicago Press , 1924) p. 33.

١ ـ تبسيط مبالغ به في الاعم الاغلب بحيث يمكن ان يورطنا في كثير من المزالق والاضرار ذلك اننا اذا صورنا الجماعة مثل هذا التصوير فاننا سوف نغفل اختلاف وتنوع السلوك الفردي او تباين درجات الاعتقاد الفردي الذي يدعم السلوك الظاهري للجماعة .

٢ ـ ان وصف سلوك الجماعة على انـــه افعال (Actions) وحدة بمجموعها او كليتها يؤدي بنا في الغالب الى تصور الجماعة على اساس من الشبه المستخرج او المستنبط من السلوك الفردي حيث نجد الاعتبارات من هذا النوع تضفي على الجماعة عقلاً ، او ضميراً ، او حساً او شعوراً بالمسؤولية ، او فقداناً لضبط النفس ، او حساً بعظمة النفس وحرمتها ، وما شاكل . وعلى هذا الاساس فان أي تبدل في سلوك الجمهور يعتبر نتيجة لتبديل الجمهور عقله حيث تعتبر الجماعة من هذا النوع قادرة على تغيير عقلها قدرة الفرد على تغيير عقله . ان مثل هذه الاتجاهات من الوصف القائمة على تشخيص الجماعة او جعل الجماعة ذات شخصية بينة واضحة تثير ، كثير من امثلة سلوك الجمهور ، سخطنا وتجعل هذه الجماهير موضوع سخطنا الخلقي (Moral blame) .

هذا ولأجل ان يتخلص من هذه الاباطيل فقد راح فريق من الباحثين يؤكد على ان سلوك الافراد وحده هو الذي يمكن ان يوصف . غير ان هـذا الحل لا يخلو من محذور أيضاً حيث انه يصبح ، في أبلغ صوره ، سذاجة ومجرد تخريج لغوي لا غير حيث يطبق نشاط الجماعـة على كل عضو من أعضائها . وعلى هذا الاساس يخبرنا هذا الفريق بأن اعضاء الجمهور قد هاجموا ضحيتهم ، وما شاكل . يضاف الى ذلك ان محذور اغفال التعقيد او تبسيطه يصدق هنا ايضاً كما يصدق على وصف الجماعة ، كما ان محذور التفكير على أساس الشبه بين الفرد والجماعة يبقى في مثل هذه المعالجات

وان تغيرت صيغة هذا الشبه او شكله . ان مثل هـذه المعالجات تنطوي على اسباغ الدوافع والمواقف على أعضاء الجماعة - تلك المواقف والدوافع التي يزعم أنها تفسر فعالية او نشاط الجماعة ككل - كما لو كان هذا النشاط نشاط فرد او انسان . وعليه ، فان الحرب تفسر على اسباغ المواقف العدائية على اعضاء الأمم المتحاربة . هذا ولما كان الافراد يقاتلون بعضهم بعضاً عادة عندما يشعرون بالعداء نحو بعضهم . لذا فقد افترض بأن الحرب هي نتاج العداء الذي يشعر به أعضاء الامم المتحاربة نحو بعضهم . غير ان البحوث التي اجريت على الحروب كانت قد برهنت بوضوح خطل هذا النوع من التفسير ومع هذا فان هذا النمط من التفكير لا يزال مستخدماً في معالجة سلوك الجماعة بطرق مختلفة ، منها المستتر ومنها الصريح الواضح .

ان من الملاحظ ، ان هذه الاباطيل او التفاسير الباطلة حتى وان تجنبت فان الوصف البسيط للافعال الفردية يبقى غير كامل على اكبر احتمال ، ذلك اننا نرى ان وجود مجموعة من الناس بشكل هو غير الحشد (Aggregation) لابد وان يؤدي حتماً الى ظهور تقسيم العمل فيما بينهم ، وينطوي على تنميط (Patterned) السلوك الفردي وظهوره على شكل أدوار يكمل بعضها بعضا بشكل او بآخر لتحقيق ضرب من هدف جماعي . ففي جمهور التعذيب مثلاً لا يكون الافراد الذين يستجلبون الحبال مولعين بالحبال ذاتها ، كما ان أولئك الذين يهددون محافظ المدينة ، مثلاً ويمنعونه من الظهور في مثل هـذه الوضعية ، لا يتميزون عادة عن غيرهم في الجمهور بكراهية محافظي المدن . والواقع ، ان في كل من هذه الامثلة مهام ، كل منها هو جزء من الهدف العام للتعذيب ، وما يقوم به كل فرد انما يقرره ، جزئيا على الاقل ، ما تركه الآخرون لان يعمل او يقام به . وعلى كل حال ، فان تعيين الغاية العامة والنمط العام

لسلوك الجماعة قد يكون أكثر فائدة من المعالجات لتفسير الاخير ـ أعني السلوك الفردي .

وخلاصة القول ، ان هناك مجالاً لكل من نوعي الوصف ـ اعني الوصف الفردي والوصف الجماعي ـ عندما يمكن ان تتجنب التفاسير الباطلة في كل من نوعي الوصف هذين . وهذا يعني ان ليست المعالجة الوصفية الفردية ولا المعالجة الوصفية الجماعية هي بحد ذاتها أخلى من الاخرى من الخطأ ، ذلك ان كلاً من نوعي هـذا الوصف يكمل النوع الآخر ، وتتوقف أفضلية كل منهما على الغاية التي يتوخاها الباحث . ان الجماعات من حيث هي كليات . ذات آثـار في المجتمع ، وهي تجنح لأن تدرك ككليات . وعليه ، فان الوصف الفردي انمـا يخضع للوصف الجماعي بمقدار درجة اهتمامنا بالمجتمع ، وعندما يكون اهتمامنا بالجماعات من حيث هي أطر لدراسة العمليات السايكولوجية الفردية فقط فان الوصف الجماعي يخضع للوصف الفردي ولكنه لا يحذف او يغفل .

يضاف الى ذلك ان هناك مسألة أخرى تنطوي عليها هذه القضية ، قضية الجماعة بازاء الفرد (Group - versus individual) وهي المسألة التي فحواها مـا يـلي : هل يسلك الفرد في الجماعة سلوكا يختلف عن سلوكه فيما لو لم يكن عضواً في الجماعة او بمحضر منها ؟! إن الاجابات على هذا السؤال كانت قد اختلفت اختلافاً كبيراً وتباينت فمنها ما هو مفرط يرى ان الجماعة تزود اعضاءها بالمواقف والدوافع التى لا يوجد لها مثل في نفوسهم الفردية (Individual psyches) ومنها مـا يذهب الى خلاف هذا الرأي حيث ترى ان الجماعة هي ليست أكثر من عدة أفراد تربطهم غايات مشتركة ويقومون بأفعال يقوم بها كل منهم على كل حال . والواقع ان كلا من هاتين الاجابتين لم يوضع بشكل مبالغ فيـه

في أغلب الاحيان ، فالفرديون يعترفون بأن هناك تقسيم عمل في الجماعة وان شدة السلوك وحدته قد تعلو وتقوى بوجود أشخاص آخرين ذوي مشاعر مشابهة ، ولكنهم مع هذا يرون ان السلوك يبقى تعبيراً عن مواقف الفرد التي كانت موجودة عنده في الاصل . وعلى كل حال ، فان المنافحين عن « عقل الجماعة او العقل الجماعي » يعنون فيما يذهبون اليه (في الاعم الاغلب) ان هناك عملية توصل الى تصميم (Decision - making process) تحدث على اساس اجتماعي بحيث يتوصل بنتيجتها الى نتائج لا يتوصل اليها نتيجة التصميم الفردي .

ان كثيراً من نقاط الخلاف بين هاتين النظرتين تنمحي وتضمحل في ضوء بعض المشاهدات . من اولى هذه المشاهدات هي ان الشخص نادراً ما يكون عنده موقف واضح ، محدد ، واحد حول امر ما . فالامريكي الابيض مثلاً هو في نفس الوقت مع وضد منح الزنوج مساواة مع البيض ، والعامل النموذجي يتصور نفسه ضد صاحب العمل وهو في نفس الوقت يوحد او يدمج نفسه مع صاحب العمل ، وهكذا . يضاف الى ذلك ان ليست كل المواقف حول مسألة ما مدركة ادراكا جيداً متساويا من قبل الفرد . ففي الحالة المفرطة من الكبت مثلا يكون الفاعل ذا مواقف تؤثر في سلوكه ولكنه ينكرها بشدة . والخلاصة ، فان كل فرد يمكن ان يجد سناداً موقفياً لعدد متباين من وجوه العمل نحو هدف ما . ولكن في الوضعية الجماعية نجد ان بعض المواقف تبعث وتظهر وتقوى وتدعم بحيث ان الافراد ينطلقون عاملين على وفق مواقف قد لا تكون هي المسيطرة عليهم ضرورة فيما لو كان هؤلاء الافراد يفعلون او يسلكون كمجرد أفراد فقط .

ثاني هذه المشاهدات هي ان « الفعل » ليس هو نتيجة المواقف نحو

شيء ما او أمر ما وحسب ، بل هو أيضاً نتيجة المواقف نحو الجماعة ، ونحو الذات ونحو أشياء عديدة اخرى . فالسياسي الذي يخشى الجمهور قد يتخذ مسلكا من العمل لا ينسجم مع أي من مواقفه تجاه الامر الذي هو مدار الوضع الراهن . والشخص الذي يعتقد انه زعيم قد يرى الاتجاه الذى يتجه نحوه تصميم الجماعة وعليه فهو يستحسن مثل هذا الاتجاه في العمل لكي يبقى في موضع الزعامة ، وان كانت مواقفه الخاصة تجاه هذا الاتجاه من العمل هي على خلاف ذلك تماما .

لهذه الاسباب صار من المناسب الحديث عن ما يسمى بالتوصل الجمعي للتصميم او القرار (Collective decision - making) حيث لا يمكن ان يتنبأ عن تصميم الجماعة وعن عملها او فعلها عن طريق جمع او اضافة المواقف الفردية لبعضها البعض نحو الامر الراهن . كما ان مواقف الافراد نحو الامر الراهن ونحو الامور الاخرى التي يشملها ذلك الامر بصورة غير مباشرة ، من شأنها ان تجعل التصميمات على العمل في بعض الوجوه اسهل من تصميمات اخرى في وجوه أخرى ، وهكذا تجعل التصميمات المحتملة الاخرى مستحيلة . وعليه فان عمليات توصل الجماعه الى تصميم او قرار وكذلك مواقف الافراد كلاهما يجب ان يؤخذا بنظر الاعتبار في تدبر هذه الامور ، وعلى كل حال ، فان من البديهي ان الفرد في الجماعة يسلك سلوكا يختلف عن سلوكه فيما لو كان وحده .

ثانيا ـ اللاعقلانية والعاطفية (Irrationality and Emotionality) :

ان القضية الاخرى المتكررة في السلوك الجمعي هي قضية الميل لانتقاء تلك الظواهر الجمعية التي يستخدمها الناس عادة وتصوير عمليات السلوك الجمعي بعبارات محملة تحميلا (قيمياً Value - laden terms) . فالذعر الاخاذ ، من أفعال الجماهير المخربة والحركات الثورية ، ومن ظاهرة

المودة التى تهدد التقاليد الموروثة وتنذر بالتحلل ، ينعكس في مثل هـذا النوع من المعالجات . وعلى هذا الاساس صـار السلوك الجمعي يعتبر في الاعم الاغلب ، خطأ ، مناقضاً للسلوك (العقلي او العقلاني Rational) واصبـح يوصف بأنه « لا عقلي » او « عاطفي » . ان هناك على الاقـل خطأين هامين في مثل هذا النوع من تصوير السلوك الجمعي ، هما :

أ ـ ان مفهوم « لا عقلي » أو « عاطفي » يتصل عادة بالسلوك الفردي . ان استعمال هذين المفهومين من قبل المتعلقين بمسألة « العقل الجماعي) يعني احد أمرين :

١ ـ إما أنه تلخيص للقول بان كل فرد من اعضاء الجماعة الجمعية يسلك لا عقلياً .

٢ ـ أو انه تفكر على اساس الشبه (Analogy) ، أي ان الجماعة تشبه الفرد من حيث هي يمكن ان تكون لا عقلية أو عاطفية . ان الشق الاخير من المعنى هو بالطبع باطل ، كما ان الافتراض الأول الذي ينطوي على الانسجام والتشابه (Homogeniety) بين اعضاء مثل هذه الجماعات الجمعية لم تدعمه المعرفة البشرية في هذا الباب لحد الآن .

ب ـ ان التمييز بين دلالتى هذين المفهومين هو تمييز صعب ، خاصة وان العاطفة والعقل لا يعتبران اليوم متناقضين او متعارضين ، ذلك ان العاطفة قد تصحب تنفيذ مشروع او خطة مدروسة دراسة عقلية جيدة . وعلى كل حال ، فان تصنيف السلوك الى « عقلي » و « لا عقلي » يعني على ما يظهر نوعين متميزين من المعنى :

١ ـ ينعت السلوك على انه (عقلاني) عندما يكون هذا السلوك طريقة ناجعة نافذة في تحقيق هدف ما ، ان هـذا التقييم يقوم على معايير خارجية (Based on external criteria , Behavior can be

called rational) ، وعليه فان كثيراً من السلوك المؤسسي ـ على اساس هذا التعريف ـ يكون لا عقلياً في حين يكون كثير من السلوك الجمعي عقليا . وعلى هذا الاساس هل من الممكن ان يدعي مدع بأن التعذيب الذي كان يواجه به الزنوج لم يكن وسيلة ناجعة لعدة عقود من الزمن في اخضاع الزنوج والزامهم بمنزلة اجتماعية واطئة ؟ !

٢ ـ وأما على اساس المعايير الداخلية (Internal) او الباطنية فان السلوك يكون لا عقلياً عندما لا يزن الفرد كل الاحتمالات الممكنة ، التي يمكن ان يدركها ، في التصميم او الجزم او القرار على مسلك عمله او مجراه . وعلى هذا الاساس يكون اغلب السلوك المؤسسي لا عقليا ما دامت القواعد الاجتماعية تضيق من مدى الاحتمالات التي يمكن ان يأخذها الفرد بنظر الاعتبار ، والتي هي نافذة المفعول او ناجعة . هذا ولما كانت النماذج الرئيسة من السلوك الجمعي لها اساليبها وطرقها المميزة الخاصة في تضييق وتحديد الانتباه ضمن مدى الاحتمالات الممكنة ، لذا كان السلوك الجمعي لا يختلف عن النماذج الاخرى من السلوك في هذا الوجه . ان اساس هذه الاخطاء يمتد الى الحقيقة التي فحواها اننا نجنح في الاستعمالات الشعبية الاعتيادية ان نسبغ العقلية على السلوك الذي ينسجم مع مستلزمات الحضارة واوامرها وينصاع لها . فنحن مثلاً نعتبر الشخص عاقلاً عندما يقوم بالعمل ـ من غير نقد ولا تمحيص ـ متبعاً ما يقره المجتمع فيه وذلك لان هذا الشخص يشبهنا ، ولأنه يمكن أن يتنبأ عنه ، ولذا يسهل التعامل معه . اما الشخص الذي يناقش الاوامر او الملزمات (Dictates) الحضارية الراسخة او انه اكره او اضطر لان يعمل او يسلك في وضعية لا وجود للملزمات الحضارية فيها ، او انها كانت غامضة مبهمة (اعني تلك الملزمات) ، او انها كانت متناقضة

متعارضة ، فان التنبؤ عن سلوكه يصبح غير ممكن من قبل من هم حواليه ، وهذا ما يجعل التعامل معه صعباً ، وقد يجد هؤلاء الأخرون صعوبة في « فهم » سلوك مثل هذا الشخص . وعليه فان هذا الشخص ينعت سلوكه بأنه عاطفي او لا عقلي .

ان الغرض من هذه المناقشة هو الرجوع الى تعريف السلوك الجمعي من حيث أنه عمل جماعات (Action of groups) تسلك من دون ان يكون هناك توجيه واضح من قبل الحضارة التي توجد فيها تلك الجماعات . وعليه فان نعت مثل هذا النوع من السلوك بأنه عاطفي ـ أو لا عقلي ـ اما ان يكون باطلاً او انه تكرار لا معنى له في هذا الصدد لان اغلب الافعال البشرية هي من هذا القبيل (٢٠) .

ثالثا : نظرية التوتر :

ان من القضايا النظرية المتكررة في حقل السلوك الجمعي بصورة عامة وفي ميدان المودة بصورة خاصة استعمال وتطبيق مختلف ضروب « نظرية التوتر » كأداة تفسيرية (٢١) . ان نظرية التوتر هذه قد استخدمت لتفسير ما يدفع

---

(20) - Turner and Killian , Collective Behavior , pp . 16 — 17 .

(٢١) ان نظرية « فرويد » في الغرائز هي من ابرز امثلة هذا الصنف من النظريات ، ولقد تفرعت عنها نظريات مختلفة من هذا القبيل ، منها ما هي مستترة في جذورها التي تصلها بفرويد ، ومنها ما هي صريحة . إن من هذه المذاهب او النظريات ، مثلاً ، نظرية او فرضية (الاحباط فالاعتداء (Frustration - Aggression hypothesis) التي يتزعمها « جون دولارد J . Dollard » . راجع كتابه في هذا الموضوع تحت هذا العنوان بالذات باللغة الانكليزية .

الافراد لان يسهموا في السلوك الجمعي - خاصة عندما يكون هذا السلوك عدائياً وتخريباً او معبراً بشراسة ووحشية . يضاف الى ذلك ان نظرية التوتر هذه (Tension Theory) قد استخدمت لتفسير بعض الاتجاهات غير الاعتيادية التي تنتهج في السلوك الجمعي .

ان مما يجب ان يشار اليه في هذا الصدد هو ان مختلف ضروب نظرية التوتر هذه تتصف بانها جميعاً تذهب الى ان السلوك من اي نوع كان إنما ينتج من حالة توتر يعانيها الفرد ، او بعبارة اوضح من حالة توتر في دخيلة الفرد او باطنة . ان هذا التوتر بدوره ينتج من وجود بعض الحاجات غير المشبعة (او من وجود دافع ، او غريزة او ما شاكل) . ان اشباع هذه الحاجة من شأنه ان يهون التوتر ، ومن ثم ان يقضي على المنبه (أو المثير) للعمل او التفكير . ان هـذا التوتر يصبح ملحاً ، ومؤذياً ، ومتراكماً عندما لا يمكن تسكينه وتهدئته باشباع الحاجة . وعليه فان معاناة الخيبة ، وعرقلة هذا الاشباع او انعدام الوسائل والاسباب الظاهرة لاشباع الحاجة ، من شأنها ان تؤدي الى تراكم التوتر ، الذي يعبر عن نفسه ، عند اشتداده وتراكمه ، بشكل سلوكي عدائي هائج او بشكل سلوك عشوائي ! ان هذه النظرية - كما وصفت هنا بايجاز - وان اختلف ايرادها بعبارات مختلفة من قبل الباحثين في هذا الباب ، هي جزء من كل معالجة للسلوك البشري تقريباً ، او هي جزء من كل مذهب يتوخى تفسير هذا السلوك .

ان مضامين هذه الصورة المبسطة من نظرية التوتر للسلوك الجمعي بصورة عامة وللمودة بصورة خاصة هي الاشارة الى اهمية الخيبات المتكررة المستشرية والحادثة على نطاق واسع من حيث هي تفسر وتهيء الصورة الحادة وغير المألوفة من السلوك الجمعي . ذلك أن الاحباطات والتخييبات

المتكررة للحاجات الهامة لعدد كبير من الناس ولمدة طويلة من الزمن من شأنها ان تؤدي الى تراكم التوترات . ان هذه التوترات هي التي تصبح القوة الدافعة للسلوك الذي يشذ عادة وينحرف (Deviates) عما هو مألوف . أما من ناحية النظام الاجتماعي ، فان فشل النظام المؤسسي لان يعد ويهيء الاسباب والوسائل لأشباع الحاجات المتولدة فيه يؤدي الى تراكم التوترات ، مما يجعل الناس معرضين لضروب من العمل لم ترسمها ولا تدعمها الحضارة المحلية عادة . وعلى هذا الاساس فان الباحث يلجأ ـ عندما يريد أن يفسر موجة تعذيب أو اضراباً ، أو جنوناً جمعياً أو اجتماعات كنلية او سلوكاً هائجاً بشكل من الاشكال ـ للبحث عن مصدر الاحباط والخيبة المستديمة المستشرية المتولدة في النظام الاجتماعي القائم .

يتبين من هذا الموجز ، أن « نظرية التوتر » هذه قائمة ، في الاعم الاغلب ، على فرضيات مشكوك فيها ولا تزال موضوع نقاش بين العلماء . وعليه فان الطالب يجب أن يكون قادراً على ادراك هذه الفرضيات غير المختبرة اختباراً كاملاً ، وان يتجنب استخدامها وتصديقها بشكل مطلق . ان من اولى هذه الفرضيات ما يسمى عادة عند المتعلقين بهذه النظرية با (الثبوت الكمي Quantitative constancy) للتوتر . ان هذا ينطوي على افتراض أن التوتر يمكن ان يزاد او ينقص وذلك بالاضافة او الطرح ، وعليه فان كمية السلوك او مقداره الذي يلزم للتخلص من التوتر يزداد او ينقص على اثر ذلك . ان التوتر في (النفس البشرية Human psyche) يشبه الماء في اناء مغلوق ، ان هذا التوتر موجود بكمية قابلة للقياس ، وان هذه الكمية تبقى غير متغيرة ما لم يضف اليها او ينقص منها . إن هذه النقطة بالذات تغفل أن الانسان قد يخيب ومع ذلك ينسى هذا الامر لمدة من الزمن قد تقصر او تطول ،

ولا يتأثر به ، ان هذه الوجهة من النظر ترى ان التوتر يبقى في مستوى ثابت الى ان يتاح لذلك التوتر السلوك الذي يعبر عنه . فاذا غضب شخص ما فانه يبقى غضباً (سواء كان هو يدرك هذا او لا يدركه ، شاعراً به او غير شاعر به) الى ان يعبر عن كمية من العداء كافية لأن تصرف كل ذلك الغضب .

ان الملاحظة البسيطة ترينا ان الذهاب الى ان الغضب او أية حالة توتر عاطفي أخرى يمكن في بعض الاحيان ان تتراكم وتتجمع الى درجة ان التوتر لا يمكن ان يطرد إلا بالتعبير عنه بكمية كافية ، وان الميول غير المعبر عنها ، تتجمع وتتراكم بدقة حسابية ، ماهي إلا خطوة مفترضة او افتراضية ، إذ لم يبرهن على ان التوترات ، سواء كانت عامة او خاصة ، يمكن ان تطرد او تزاح من دون ان يعبر عنها . ان الاعتقاد السائد الذي فحواه ان الشخص قد يصبح أقل غضباً عندما يرى سبب غضبه في مجال او ملحظ آخر (In a changed perspective) هو اعتقاد لم يبرهن خطأه لحد الآن . كما ان الاعتقاد السائد الذي فحواه ان المثير قد ينعدم عندما ينشغل الفرد بفعاليات أخرى ، هو الآخر لم يبرهن على ضلاله . يضاف الى ذلك ان التأكيد على ان التوتر لابد وان يهون (او يضعف او ينقص) بالتعبير عنه ، هو الآخر لم يبرهن عليه أيضا ، ذلك اننا يعوزنا البرهان ـ على كل حال ـ فيما اذا كان الفرد الذي يهاجم شخصاً آخر مهاجمة بدنية يشعر أقل حقداً وعداءاً نحوه بعد هذا الهجوم او الاجهاز عليه .

وعلى كل حال ، فان هذه العملية المفترضة ـ أعني عملية التنفيس عن التوتر (او تهوين المثير وما شاكل من مفاهيم تتعلق بها هذه النظرية) وذلك بالتعبير عنه على شكل سلوك ـ تسمى عادة عند أصحاب هـذا المذهب بعملية « التطهير Catharsis » ، وعليه فان الانسان الذي يطرد

الغضب من كيانه بواسطة مهاجمته مهاجمة بدنية شخصاً آخر يكرهه ينعت بأنه يعاني التطهير في هذه الحالة . ان هذا المفهوم ـ أعني مفهوم التطهير ـ غالباً ما نجده في المعالجات النظرية وتحليل السلوك الجمعي . ذلك اننا نجد كثيراً من الكتاب يدعون بأن الاشخاص يعبرون عن مشاعرهم المكبوتة ومن ثم يحققون لانفسهم التطهير وذلك بمشاركتهم واسهامهم في سلوك جماهيري او في حركات اجتماعية ، او في حركات مودة وما شاكل . يظهر بوضوح ، ان من غير المحتمل ان يضعف الاجهاز الرسمي غير المكفكف (Uninhabited one - sided race riot) شعور العداء والكراهية نحو الجماعة المهاجمة ، وان أقحمت عوامل وحركات معقدة أخرى في هذا الباب لتجعل الحقائق منسجمة مع النظرية .

ومع ذلك فان هناك ما يكفي من البرهان على ان فرضية « الثبوت الكمي » وعملية التطهير لايمكن ان تطرد او تنبذ بسهولة . غير ان هناك ما يكفي من البرهان للشك في صحة هذه الفرضية وتلك العملية ، بحيث من الافضل ان لا تقوم على أساسهما تعاميم في السلوك الجمعي (٢٢) ، او أي وجه منه على أساس من الاطلاق أيضاً .

ان هناك وجهاً آخر من نظرية التوتر هذه يؤكد على امكان نقل التوتر من موضوع لآخر ، فالغضب على شخص ما ، يمكن ان يطرد بمهاجمة شخص آخر متيسر ، او الاجهاز على شخص ما . ان استعمال مثل هذا التخريج في حقل السلوك الجمعي يعني ان الاعتداء الرسي على صورة تعذيب (Race riot) يمكن ان يعزى الى تراكم وتجمع المناهضة لأصحاب العمل ، او لأعضاء الاسرة ، او لأشخاص آخرين لا يمكن أن يهاجموا من دون ان تستتبع المهاجمة نوعاً من العقوبة . ان مثل هذه الكراهية المتراكمة لأمور وجهات مختلفة ، توجه كلها على ما يتيسر من الاشياء

(22) - See Turner and Killian, Collective Behavior, pp. 17 — 19.

والجهات. ان تفاسير من هذا القبيل قد استخدمت بخصوص من يسمون بالاراذل والانذال والعبيد في ايديولوجيات الحركات الاجتماعية.

ان لهذه الفكرة سناداً من ملاحظة الناس في الحياة الاعتيادية اليومية ذلك ان الزوجة التي تكون غضبى على زوجها قد تكون غير متسامحة مع اطفالها، وصاحب العمل الذى خسر في لعبة « رهان » مثلاً خسارة مخزية قد يهز السوط او العصا لعماله غاضباً. ان توجيه مشاعر السخط والعداء ضد أشخاص آخرين او أشياء أخرى متيسرة تسمى عادة بظاهرة (خروف النذر) أو كبش الفداء.

هذا ومع ان هذه الظاهرة، ظاهرة توجيه التوتر نحو أمور او أشياء أخرى ظاهرة معتادة في بعض اوضاع الحياة اليومية، الا ان هناك دلائل أخرى تبرهن على ان تعميم هذا النوع من التفسير على ظواهر السلوك الجمعي هو أمر غير مبرر ومع هذا فاننا نجد الجمهرة الغالبة من الكتاب في موضوع المودة تفترض ضرباً او آخر من ضروب هذه النظرية وتستند عليه، بصورة صريحة او غير صريحة، في تفسير الاقبال على المودة وتبنيها ومن ثم ذيوعها وانتشارها.

ان ما آخذه على كل هذه النظريات والفرضيات والتفاسير يمكن تلخيصه بما يلي:

١ ـ ان أغلب هذه المبادىء التي تتخذ مفاتيح نظرية لتفسير السلوك الجمعي، كله او بعض وجوهه، هي مبادىء مستقاة من علم نفس الفرد او من حقول اخرى، فهي وان صدقت في هذه الحقول او في علم نفس الفرد فلا يعني هذا صدقها وصحتها في حقل السلوك الجمعي. ان أهم نقاط الضعف في هذا الاستيراد هي ان المبادىء في الاعم الاغلب ليست ذات علاقة فعلية او واقعية بالظواهر الجمعية التي افترضت ان تكون

مفسرة لها . مثال ذلك ، اتخاذ التقليد تفسيراً لحركة المودة ، واتخاذ ما يسمى بالعقل الجمعي مبدأ تفسيرياً للسلوك الجماهيري ، واستيراد الايحاء من بحوث الهستيريا لوصف بعض خصائص الجماهير ، واستيراد منطق مذهب فرويد لتحليل وتفسير الاعمال الوحشية التي قد تقوم بها الجماهير واستخدام ما يسمى بـ (Herd instinct) (غريزة القطيع) من قبل « تروتر Trotter » واتباعه في تفسير كثير من وجوه وضروب السلوك الجمعي هذا ، وكاستخدام مفهوم الايحاء النفوذي (Prestige suggestion) في تفسير ظاهرة الرأي العام والمودة والدعاية ، وما شاكل .

٢ ـ ان هذه النظريات والتفاسير تعتبر سبب هذه الظواهر الجمعية ذا علاقة ميكانيكية بهذه الظواهر وانه ، إذن ، يسبق ظواهر السلوك الجمعي من حيث الوقت والتأثير . وبعبارة اخرى ، ان هذه التفاسير تعتبر المباديء التي تستند اليها اسباباً لهذه الظواهر توجد خارج هذه الظواهر وهي ليست جزءاً منها ، ناسية او متناسية ميدان القيم والمعاني والدلالات الخاصة لهذه الامور عند الافراد الذين يسهمون فيها او ينخرطون في تياراتها وقد تكون لبعضها مضامين لا شعورية عند بعض الافراد تكمن فيها السببية التي تدفع هؤلاء الافراد الى الاسهام في هذه الظواهر ، وهذه كلها بعيدة كل البعد عن السببية الميكانيكية .

٣ ـ ان اغلب هذه النظريات لا يقوم على دراسة فعيلة او واقعية لهذه الظواهر وبعبارة اخرى انها ليست نتائج بحوث عملية واستقراء واستنباط بل هي تقوم على مفترضات وتصورات يروجها ما يشيع من الافكار في حقل من حقول المعرفة له بعض الارتباط بموضوع السلوك الجمعي او بوجه منه . واذن فهذه النظريات والتفاسير يعوزها سناد من العلم او اساس من الواقع .

٤ ـ ان هـذه النظريات تغفل اهمية التفاعـل الاجتماعي وما تلعبه هذه الظاهرة في تكوين وتنمية وتوجيه هذه الظواهر وما يتعلق بها .

هذا وبالرغم من أن هناك كتباً وبحوثاً متعددة في موضوع السلوك الجمعي الا اننا قد لا نزال حتى يومنا هذا بالنسبة الى بعضها او كثير منها مبررين في استخدام عبارات « كراهام والاس G . Wallas » التي رددهـا في كتابه المعنون (المجتمع العظيم The Great Society) والتي كان فحواها ان هـذا الموضوع ـ اعني موضوع السلوك الجمعي بصورة عـامة وسلوك الجماهير منه بصورة خاصة ـ لا يزال بحاجة الى اعادة النظر فيه ، والى تفحصه تفحصاً دقيقاً ، والى اعادة بلورته بشكل جديد . هذا ولعل كثيراً من الغموض كان مصدر شيوع عبارات جمعية (Collective terms) في لغة هذا الموضوع وانعدام التصنيف الدقيق المضبوط لظواهره وفقـدان التشخيص المجدي والوصف الدقيق لها (٢٣) .

يتبين بوضوح مما مر من هذا النبذ الموجز ان اية ظاهرة من ظواهر السلوك الجمعي يمكن ان تدرس من نقاط شروع وزوايا متعددة مختلفة . ان من امثلة ذلك تركيز الباحث انتباهه في الدوافع الفردية عند الانسان من حيث انها تجد التعبير عن نفسها في بعض ظواهر السلوك الجمعي ، من قبيل الجماهير ، وانواع العموم والحركات الاجتماعية وما شاكل . ان هذا النوع من المعالجة والنظر ، والذي يدعى عادة في علم الاجتماع بدراسة الظواهر الجماعيـة دراسـة نفسية (سايكولوجية) على اسـاس من علم نفس الفرد ، اصبح من الاجتهادات غير المأخوذ بها في دراسة هـــذا الموضوع حديثاً . ان التأكيد في دراسة ظواهر السلوك الجمعي عند الكتاب

---

(23) - See Morris Ginsberg , The Psychology of Society (London: The Methuen and Co . , 1964) , p . 111 .

المحدثين في هذا الحقل من حقول علم النفس الاجتماعي هو من حيث الاساس على العمليات الاجتماعية والنفسية الاجتماعية ، التى تحدث في هذه الجماعات الجمعية ، (Collective groups) وعلى بنية هذه الجماعات وما يحدث فيها من تغيرات ، وما تتمخض عنه من تنظيمات ، وما تتعرض له من نجاح أو فشل وخيبة ، وما تصيبه من توسع أو تتعرض له من انكماش وتقلص او انهيار وانحلال . يضاف الى ذلك ان ظواهر السلوك الجمعي ، او هذه الجماعات الجمعية التى هي موضوع البحث يمكن ان تدرس وتعالج من زاوية نظر أخرى الا وهي ناحية المجتمع الذي توجد فيه هذه الجماعات او تحدث فيه هذه الظواهر ، ان معالجة من هذا النوع تتناول بالطبع البحث في آثار هذه الجماعات والظواهر في المجتمع الاكبر الذي تكون جزءاً منه أو حادثة فيه ، وتتناول أثر المجتمع في هـــذه الجماعات أو الظواهر الجمعية والعلاقات المتبادلة فيما بينهما ـ اعني المجتمع وهذه الجماعات الجمعية ، وهو وجه سأستوفي البحث فيه في الفصول الثلاثة التالية من هذا الكتاب ، بشكل مباشر أو غير مباشر .

الفصل الثالث

تفير المودة

تغير المودة

أ ـ الحوافز والدوافع التى تدفع الى المودة :

ان السؤال المهم الذي يمكن ان يثار في هذا الصدد هو ترى لماذا ينصاع الانسان للمودة ؟ الواقع ، ان هناك اناساً لا يخضعون لما تمليه المودة اطلاقاً ، اذ أننا نجد ان عدداً من المعمرين والريفيين ومن نساء الطبقة الدنيا لا يكترثون كثيراً لتعاطي المودة الاخيرة أو الطراز الاخير. كما أننا نجد أن هناك من يملكون سيارات لا يكترثون كثيراً ولا يتأثرون بضرورة التخلص من سياراتهم القديمة المرضية من اجل التمشي مع المودة الاخيرة لموديل السيارة . كما أن عدداً من المودات ، كما هي الحالة في ميادين الموسيقى ، والرقص ، والالعاب ، تكون مقصورة عادة على جماعات معينة من الناس من قبل المراهقين أو العزاب من الراشدين ، مثلاً .

ومع هذا كله فاننا نجد أن معظم النساء ينصعن الى المودات الراهنة ويخضعن لها في الملابس بصورة خاصة ، فلماذا كان ذلك ؟ ان بعض الباحثين المختصين في دراسة هذه الظاهرة يؤكدون على ان هناك دافعين مهمين رئيسين يدفعان الى هذا الانصياع هما :

أ ـ الرغبة في الانصياع .

ب ـ الرغبة في الظهور او حب الظهور والنفوذ .

غير أن الباحثين في هذا الموضوع يشيرون الى دوافع اخرى من قبيل الرغبة في الخبرة الجديدة ، وتعويض النقص أو الشعور به ، والحاجة الى الجمال أو الحاجة للراحة أو الارتياح وما شاكل . أما المحللون النفسيون فيرون ان المودة تخدم النساء لانها تكون بمثابة منفذ متسامي لميولهن الاعتدائية ونزوعهن الشديد للتعبير عن الجنس فيهن عن طريق المظاهر البدنية ، فالبحاثة « فلوكل Flugel » مثلاً ، يرى دلائـــل اعتداء في كون امرأة تؤذي أخرى بمجرد انها تكون بادية بمظهر هو اكثر مودة من الاخرى (١) كما أن « ڤبلن Veblen » المشهور يؤكد في نظريتـه المعروفة بنظرية (الطبقة الفراغية) على ان المرأة التي ترتدي ملابس فاخرة وتكون انيقة ترمز بذلك الى نفوذ زوجها ونجاحه في الحيـــاة المعاشية ، ومن ثم فأن ظهورها بمظهر المودة ، على آخر طراز ، يشبعها ويرضيها ويرضي زوجها كذلك (٢) ، زد على ذلك أن الباحثين « شريف » و « كانترل » يريان أن المهام الرئيسة للملابس هي : مد ذات المرتدي ، واعلاء نفسه ، واظهار منزلته (٣) ، وعليه ، فان كثيراً من الناس يصبحون منهمكين ذاتياً بسبب عملية التمشي مع المودة دائماً .

ان كثيراً من الباحثين المحدثين الذين تصدوا لهذا الوجه من الموضوع

---

(1) - J. C. Flugel, The Psychology of Clothes (London :Leonard and Virginia Woolf, 1930), p . 414 .

(2) - T. Veblen, Theory of The Liesure Class (new ed .) (New York : Viking Press, 1926) .

3)-M. Sherif and H. Cantril, Psychology of Ego-Envolvement New York : John Wiley and Sons, Inc ., 1947), p .349 .

نبذوا كثيراً من هذه النظريات والتفاسير التي كان مأخوذاً بها يوماً ما في ميدان المودة من قبيل : الجاذبية الجنسية ، والاقتصاد ، والمنفعة ، وما شاكل . فالبحاثة « يونگ » مثلاً يؤكد على ان الرغبة الجنسية ليس لها الا أثر قليل ضعيف جدا في تقرير محتوى المودة ، طالما كان كل ما يلبس ويقبل من قبل النساء يصبح جذابا حالاً في نظر الجنس الآخر (٤). والواقع ان احتجاج الرجال احيانا على مودات النساء ثم السكوت فالقبول النهائي لما درجن عليه دليل على وجاهة ما ذهب اليه « يونگ » في هذا الصدد . كما ان البحاثة « بار Barr » ذهب الى ان الاقتصاد ليس دافعاً قوياً في تقرير قبول ورواج مودة ما ، كما ان الاحتشام لا يلعب دورا كبيرا في مقاومة مودة جديدة (٥) .

أما مبدأ المنفعة فقد دار حوله جدل كثير بين الباحثين في موضوع المودة . إن مما لاشك فيه ، ان الاتجاه الشامل العام خلال عدة اجيال هو باتجاه المنفعة الكبرى في هذا الباب . ولكن الارتياح والملائمة ، ليسا من المعايير المهمة نسبياً ، على ما يظهر ، من حيث أثرهما في أحداث التغييرات المباشرة في المودة من سنة لأخرى . ان هذا الوجه من الموضوع يؤيد كون الدوافع والحوافز التي تتحكم في المودة هي حوافز ودوافع لا عقلانية (Irrational) الى حد كبير . ان تغير المودة بما هو مريح ، مفيد ، اقتصادي مثلاً الى ما هو دون ذلك في ملابس النساء يدل دلالة واضحة على صحة هذا التفسير .

وعلى كل حال ، فان المنفعة لا تلعب دورا كبيرا في المودة لان المودة

---

(4) - K. Young, Social Psychology (2nd ed.) (New York : Appleton - Century - Crofts, Inc., 1944), p. 417.

(5) - E. Barr, « A Psychological Analysis of Fashion Motivation », Arch. Psychol., 1934, No. 171.

مسألة ذوقية تمتد جذورها الى المشاعر والعواطف والجوانب اللاعقلانية الاخرى ، ولا تستند كثيرا على اعتبارات فكرية . والواقع ان المودة لو كانت قضية عقلية ، فكرية لما تذبذبت هذا التذبذب الغريب ولما تغيرت هذا التغير المفاجىء السريع (٦) . ومع هذا فان المودات التي هي أكثر استقرارا وثباتاً لا تكاد تخلو من عنصر المنفعة او الفائدة ، كما هي الحالة في ملابس الرجال ، حيث تبنى الرجال استعمال السروال منذ الثورة الفرنسية ولا يزالون يستعملونه حتى اليوم نظرا لفائدته وسهولة الحركة به من قبل الطبقات العاملة بصورة خاصة ، وكذلك الطبقات الوسطى .

لقد اختلف الباحثون في مهمة الملابس بصورة خاصة فمنهم من ادعى ان مهمتها الاصلية الاساسية التي استلزمتها كانت هي الوقاية من الحر والبرد وزعم آخرون انها تكسب الانسان أناقة ، وذهب آخرون ان الملابس انما استعملها الانسان في الاصل للزينة ، وقال آخرون ان الملابس استعملت للتمايز بين الجنسين ، ثم بين المختلفين في المنزلة الاجتماعية والسطوة والنفوذ والثروة وما اليها من دلائل ورموز النفوذ .

لقد تناول بعض الباحثين العلاقة ما بين الملابس والتزين واستعمال الحلى من ناحية وبين الانتقاء الجنسي فجاؤا بآراء مختلفة ، واستند بعضهم على نظرية التطور لصاحبها « دارون » حيث ذهب هذا المفكر الى ان الطيور تزدهي بأبهى ريشها وتكتسي بالوان جذابة في وقت الربيع ـ موسم التزاوج بين الطيور ـ وذلك للجذب الجنسي او الانتقاء الجنسي (Sexual selection) بين الطيور ، ذكورها واناثها . وذهب بعضهم الى ان مهمة الملابس هي الوقاية اصلاً ولا غير ، وادعى البعض ان الغرض منها هو الاحتشام وليس الجنس . ليس من غرضي في هذا البحث ان إخوض في

(6) ـ K . Young , Social Psychology , p . 567 .

تفصيل هذه الآراء ، فأخرج بذلك على ما التزمته من خطة الايجاز في هذا الكتاب إلا أنني مع هـذا لابد لي من ان أؤكد بأن الملابس وان كانت لا تخلو ، ولا شك ، من قيم منفعية في الاجواء القارصة البرد ، إلا أن هناك كثيراً من الدلائل والبراهين على ان ما دفع على استعمال الملابس والحلى والتزيين هي رغبة الانسان في التعبير عن نفسه ورغبته في اجتذاب انتباه واهتمام الاعضاء الآخرين من الجماعة الاجتماعية .

ان هناك فئة من الباحثين ترى ان ارتداء الملابس يدعو الى حب الاستطلاع الجنسي ، ومن ثم فهو أبعث للجنس والصق بـه . لقد ذهب بعضهم ان المرأة وهي ترتدي الملابس تكون أكثر اثـارة للجنس حتى مما لو كانت عارية ، وان بعض الرجال يثارون جنسياً بمرأى المرأة وهي ترتدي ملابسها اكثر من رؤيتها وهي عارية ، بل ربما تقززوا منها وهي في وضعها الاخير .

ان للتطوريين من علماء الحياة رأياً آخر في لجوء الانسان الى استعمال الملابس او الى الاحتشام ، وهو رأي قد لا تخلو الاشارة اليه من فائدة في هذا المجال .

ان علماء الحيـاة المحدثين الذين يتبنون وجهة النظر الغائية يذهبون الى ان اصل الاحتشام عند الانسان وارتداءه الملابس يرجع الى الحقيقة التالية ، وهي : ان بأنتقال الانسان من وضعية المشي على الاربعـة الى القوام المنتصب عرضت أعضاؤه التناسلية (التي كانت محفوظة بصورة جيدة عندما كان المشي على الاربعة) الى مخاطر فاضطر الى وقايتها وحمايتهـا بصورة مصطنعة . ان هذا التفسير تفسير فرضي على كل حال ، ذلك ان بعض البدائيين لا يقون اعضاءهم التناسلية بشيء ومع هـذا فهم يحيون حياة طبيعية . ومع هذا فان التفسير البيولوجي الاول للاحتشام الجنسي

(Sexual modesty) قد يبدوا منطقياً لبعض الناس (٧) .

ان من المعروف بأن الرجل كان يلبس في القديم ملابس زاهية مزركشة براقة هي أجمل بكثير مما يرتديه اليوم . ان سبب ذلك ليس معروفاً على وجه الدقة والضبط ، ولا نستطيع ان نقرر اليوم فيما اذا كان الرجل ارتدى تلك الملابس ليبهج النساء بمنظره ومظهره او انه انما كان يقوم بذلك ليعطي المرأة انطباعاً بأنه من الطبقة الفراغية ذات السلطان .

وعلى كل حال ، فان مما لا شك فيه ان وراء الملابس والتزين الشخصي حافزاً عميقاً للجذب الجنسي . ومع هـذا فان محتوى المودة في الملابس يعتمد ، على ما يظهر ، على رغبات أخرى ، غير الرغبات الجنسية الخالصة ، بحيث ان كل ما يقبل من قبل الناس على انه مودة يعتبر جذاباً في نظر الجنس الآخر . أجل ، قد يعارض الرجل لأمد ما تعرية الساقين او الظهور من دون جواريب او استعمال مسحوق التجميل الذي تبدو فيه السيدة كأنها كانت قد عرضت للشمس ، إلا ان هذه الاستعمالات إذا هي شاعت واصبحت (مودة) غالبة بين الناس ، فان المرأة قد تبدو بها اكثر جاذبية بسبب كونها تصبح نموذجاً للتميز - على انها (على آخر طراز) . وعلى اساس من هذا المنطق نفسه ، اذا بدأت المرأة الغربية مثلاً ترتدي سروالاً - كمودة - فلن يمر الا وقت قصير جداً حتى تعتبر المرأة التي لا تتبنى هذا النمط خارجة على ما هو متعارف ، شاذة عن النمط ، نابية .

ان من الملاحظ اننا مهيأون لتغيير التبريرات في المودة ، وسرعان ما نغير هذه المبررات . ان كل ما يقبل عليه الناس ويتقبلونه باطراد يبدو

---

(7) - See Erwin Wexberg, The Psychology of Sex; An Introduction, Translated by W. B. Wolf (New York : Blue Ribbon Books, Inc., 1931), p. 18.

صحيحاً لهم ، لأن من وراءه تدعيم الاجماع ، حتى اذا اصبح الامر عاما فقد سمة كونه في ذروة المودة . وعليه ، فان المودة عندما تبلغ نقطة الاشباع ، تبدأ بالانهيار والاندثار . ان معنى هذا من الناحية العملية الواقعية هو ان المودة عندما تبدأ بالانتشار منحدرة الى اسفل الهرم الاجتماعي منتقلة من طبقة اجتماعية الى طبقة دونها ، يبدأ قادة المودة عندها بتغيير مودتهم . ان هذا التغير في المودة الحديثة هو من أبرز ميزاتها تقريباً ، وهو من أبرز سمات مدنيتنا الراهنة ايضا ـ هذه المدنية التي تتميز بأن ليس فيها ما هو ثابت مستديم . ان هذه الخاصية في المودة ـ اعني طبيعتها الانتقالية المتغيرة بسرعة ـ هي التي تحفز الناس ، على ما يظهر ، على الاندفاع والحماس وراء المودة وتزيد في اغرائها بدلاً من أضعاف الولع فيها.

وهناك فئة من الكتاب ترى ان الانسان يمل مما درج عليه مدة من الزمن وينزع الى تغييره لأن الجديد يثير فيه رضى ويثير فيه بهجة . وهذا قريب من قول الشاعر :

لكل جديد لذة غير انني وجدت جديد الموت غير لذيذ

ومن يدرينا فلعل جديد الموت هو الاخر يكون لذيذاً لو انه اصبح مودة ، كما حدث ذلك على أثر انتشار قصة (الام ڤرتر) للكاتب الالماني « غوته » حيث اصبح الانتحار مودة الشبان الذين تأثروا بها في اوروبا حقبة من الزمن كما يحدثنا مؤرخو الأدب .

يكاد يجمع الكتاب الذين بحثوا هذه الظاهرة على ان المودة هي نتاج ميول عاطفية لا عقلانية عند الانسان ، مثلها في ذلك مثل كثير من سلوكنا الاجتماعي . ومع هذا فاننا اذا طولبنا بسبب لما نقوم به من سلوك اتبعنا ، كقاعدة ، التقليد مرة اخرى فلجأنا الى التبريرات المعاصرة الراهنة

ورحنا نبتدع لها الاسباب والمبررات (٨) . وعلى كل حال ، فان المودة لا يتحكم بها عامل المنفعة . يذكر « يونگ » ان الطالبات اللأي كن يحضرن دروسه ، يوم كانت المودة الشائعة هي الشعر القصير والفستان القصير ، أكدن له ان هذه المودة قد جاءت لتدوم ، وانها لن تزول ابداً لأنها مودة مناسبة مواتية جداً ، ولطيفة الى حد ان النساء سوف لا يهجرنها ابداً . ولكنه بعد مدة وجد ان مودة الشعر الطويل كانت قـــد عادت حيث كان عدد متزايد من الطالبات في دروسه في علم النفس الاجتماعي يطلن شعر رؤوسهن ، كما بدأ الفستان هو الآخر يزداد في طوله . وعليه، فان المنفعة ، على رأي « يونگ » وعلى رأي جل . ان لم أقل كل ، الكتاب الذين عالجوا هذا الوجه من الموضوع ، هي ليست السبب الاوحد لوجود مودة ما ، انها لم تكن ولن تكون هي سبب المودة على كل حال (٩). وان كان هذا لا يمنع ان يصبح ما تتكشف عنه المودة نفعياً بحيث يكون ذلك سبباً في جعلها جزءاً ثابتا من التراث الاجتماعي في بعض الأحيان ، إلا ان المودة من حيث هي مودة وحسب لا تعتمد ولا تقوم على عـامل الفائدة والمنفعة ، انها من حيث الاساس ظاهرة لا عقلانية (١٠) . ومن هنا راح يؤكد « نستروم » على ان من تأثير المودة على العقل البشري ان ما يكون شائعا كمودة بين الناس يبدو لهم جميلاً ، مهما كان قبيحا في نظرهم في اوقات اخرى لا يكون فيها شائعا كمودة . ان كثيراً من المودات السابقة العتيقة تبدو لنا الآن بشعة مستقبحة تثير السخرية احيانا ، كما ان المودة الغالبة اليـوم بيننا قـد تصبح مبعث نفور وازدراء غداً

(8) - K . Young , Social Psychology , pp . 556 — 557 .

(9) - Ibid . , p . 557 .

(10) - Ibid . , p . 557 .

عندما يقلع عنها الناس (١١) .

والواقع ان للمودة سيطرة على اغلب الناس في المجتمع الحديث ، وان لها سحراً ينفذ الى دخائل نفوسهم وذلك لأنها تنطوي على اغراء عاطفي انفعالي وجاذبية نفسية يتعلق بها خيالنا ، وحسنا بالاهمية ، وشعورنا بالاستحسان الاجتماعي الذي تتضمنه وتنطوي عليه . ومن هنا كانت المودة تنطوي على تناقضات ، هذا هو احدها ؛ فهي مع انها تهدف الى التميز والتباين ، انها تهدف الى الاستحسان الاجتماعي او تطمنه . ان المودة تستحسن لأن هناك آخرين يتبنونها ، إذ ان المودة هي ، كما يقول « روس » وحدة وانسجام في الممارسة العملية . غير ان المودة اذا تبناها واتبعها الكثير من الناس فانها لابد زائلة ، لتحل محلها مودة جديدة (١٢) .

لقد حاول « زمل » ـ عالم الاجتماع الألماني ، الذي اشتهر بمشاهداته وملاحظاته الرائدة في موضوع المودة ـ ان يحلل هذا التناقض الظاهري الذي تنطوي عليه المودة ، اعني تطمين الانفرادية (Individualization) والتميز الشخصي من ناحية ، وتطمين الانصياع والانسجام الاجتماعي (Social conformity) او كما اسماه هو (التعاشر Socialization) من ناحية اخرى . وعليه فقد اكد على ان المودة تشبع نزوع الانسان للجديد ، والمتميز ، وللفردية او التفرد ، ومع هذا فانها تحقق وتطمن التكيف الاجتماعي ووحدة الفعل . وفي هذا يقول « زمل » ما نصه : « ان هناك ميلين اجتماعيين جوهريين لتأسيس مودة ما ، اعني الحاجة الى

---

(11) - P. H. Nystrom, Economics of Fashion (New York: The Ronald Press, 1928) p. 9.

(12) - Young, Social Psychology, p. 557; G. Simmel, « Fashion », International Quarterly X (1904 — 1905), pp. 137 — 38.

التوحد (Union) من ناحية ، والحاجة الى الانعزال من ناحية اخرى ، فاذا كانت احدى هاتين الحاجتين غير موجودة فان المودة لا تتكون ـ وسيطرتها تنتهي فجأة .

ومن حقيقة كون مودة كهذه لا يمكن أبداً ان تكون عامة بوجه عام ، فان الفرد يستحصل اشباعاً من معرفته أن المودة ، وان كانت متبناة من قبله ، الا أنها مع هذا لا تزال تمثل شيئاً خاصاً وبارزاً ، في حين أنه يشعر باطنياً انه مدعم بمجموعة من الاشخاص الذين يسعون لنفس الشيء (١٣) ،

يتبين من هذا كله ان المودة تهيء للشخصية مجالاً للتوازن بين الرغبة في الانصياع ، وفي الطمأنينة والأمن ، وبين الحس في التماسك والتضامن الاجتماعي من ناحيـــة ، وبين الرغبة في التميز ، والنزوع الى التفرد ، والميل الى الاختلاف عن الاخرين من ناحية أخرى . وعليه فان سيطرة المودة ترتبط ، في الواقع ، باضطراب هذا التوازن غير المستقر على الدوام والذي يتأرجح ويتذبذب بين الفردية من ناحية وبين الاجتماعية من ناحية أخرى (١٤) .

يتضح مما مر ضمنا أن المودة تستند ، من الناحية السايكولوجية ، على رغبة الانسان في التغير ، وفي التباين والاختلاف ، وفي التميز عن الآخرين . اننا عادة نسأم من الاطرزة التي تدوم طويلاً ونضجر منها ، ومن هنا كان الانسان الحديث يتطلع دائماً الى ما هو جديد . يضاف الى ذلك ، أن التغير في المودة يقوم بمهمة نفسية لبعض الناس ، على رأي « نستروم » ، تلك هي مهمة التعويض عند الخيبة في الانجازات ، ذلك

---

(13) - Simmel, Ibid., pp. 137 — 140.

(14) - Young, Social Psychology, p. 558.

أن التغيير في الملابس قد يؤدي الى احياء وبعث الشعور والثقة بالذات . يحدثنا « يونگ » أن سيدة المعت مرة : أنها كلما ابتأست أو استشعرت الخيبة وجدت أن شراء زوج من الاحذية يعيد اليها شعورها بالمرح من جديد .

يرى « يونگ » ان من المحتمل ان تكون الجذور الاولى للرغبة في الجديد والنزوع الى التغير ، وهما من الزم ما يتعلق بالمودة ، تمتد الى حب الظهور عندالانسان في عهد الطفولة ونزعته الى التباهي والزهو عن طريق التأنق ولبس الجديد والتميز في العادات والملابس بغية اجتذاب انتباه واهتمام الوالدين اليه ، حيث تنمى هذه الرغبات والميول فتستحكم في الناس من بعد ذلك ، يدعمها الاستسحان الاجتماعي (١٥) ، ومع هذا فان « يونگ » هذا يؤكد على ان المودة بهذا المعنى - اعني من حيث انها طقس اجتماعي في المجتمع الحـــديث - ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنقلة الاجتماعية وبالمرونة في البنية الاجتماعية وبشيوع الاختصاص في المجتمع الحديث ، وبظهور واهمية الجماعات الثانوية (Secondary groups) في العصر الحديث ، حيث تكون العلاقات غير مباشرة ، ولا شخصية . ومن هنا كان المجتمع الذي يتميز بنظام المنزلة الثابتة التي تدعمها آداب عامة تقليدية جامدة ، حيث يطغى الانعزال الجماعي وتنعدم المرونة أو تكاد في شرائـــح المجتمع وانماطه السلوكية وعاداته ، لا يتسم بظاهرة المودة الى حد كبير . والواقع ، ان ظاهرة المودة لصيقة بما يتغير ، انها لصيقة بالاغاني والتزيين والملابس واساليب السفر والعبارات والاصطلاحات الرائجـة بين الناس . ومن هنا كانت هـــذه المودة تعكس عـادة نقلة الاشخاص وتغيرهم ، وتغير المواقف والاراء وبعض الجوانب العاطفية في

(15) - Ibid., p. 558.

الناس . ومن هنا ايضاً ، اصبح من الطرائق الشعبية في المجتمع الحديث ان يظهر الانسان بمودة جماعته او يتبنى ما تتبناه من طراز ، مهما كان تغير تلك المودة وهذا الطراز سريعاً ، لان هذا التغير اصبح هو الطريقة الشعبية الطاغية على الحياة الحديثة . وهكذا ، يعتقد « يونگ » أن ما نشب عليه في عهد الطفولة يدعمه المجتمع فيما بعد بهـــذه الاساليب حيث يكتشف الاشخاص فيه أنهم يعيشون في مجتمع يطغى عليه (عرف المودة) .

إن هذا النزوع الى التميز والتباين ومن ثم اجتذاب انتباه واهتمام الآخرين من شأنه ان يؤدي الى سماع الاطراء والثناء من قبل الآخرين الذين يرون فيمن يحققون هذا النزوع (حملة نفوذ) ـ قادة وروادا أوائل يجب أن يتبعوا . وعليه ، يشعر الناس من حواليهم بأنهم مدفوعون الى تقمص هؤلاء القادة أو الاندماج بهم من الناحية السايكولوجية ، مما يؤدي الى انتشار الطراز او المودة . واذن ، فان الاعجاب والاطراء يساعدان على انتشار المودة بين اعضاء الجماعة أو المجتمع ، ومنهما تصدر الزعامة في هذا الميدان ـ تلك الزعامة التى يطلق عليها الباحثون في موضوع المودة اسم (الزعامة من جراء النفوذ Prestige leadership) ، وهي زعامة صيرتها الجماعات المصلحية ، في صناعات الملابس والسيارات وفي الميادين الاخرى من ميادين المودة ، من الانماط المؤسسية (Institutionalized) في المجتمع الحديث ، بحيث اصبح الناس يتبعون زعامات معينة في الحقول المختلفة من ميادين الحياة التي تتناولها المودة . فهؤلاء من اتباع (فلان) في ملابس النساء ، ومن محبذي المصمم الفـــلاني للسيارات واتباعه والمعجبين به ، وهؤلاء من المعجبين بالموسيقار الفلاني او المغني الفلاني يتبنون موسيقاه او اغنيته ، وهؤلاء من المعجبين بتصاميم المهندس المعماري

(ه) ومن مروجي ابداعه في هذا الميدان ، وهكذا .

وسواء اعتبرت المودة ضرباً من النزوة التي صيرت مشروعة اجتماعياً ، أو اعتبرت مجرد صورة جديدة ، لا يمكن فهمها ، من الاستبداد والطغيان الاجتماعي ، فانها تتوقف على الفرد او الطبقة الاجتماعية التى ينتمي اليهـــا . ان من المحتمـل ان اولئك الـذين هم اكثر اهتماماً وتعلقاً بخلق المودة واختيارها هم الاشخاص الذين يدركون قضية التوفيق بين الحرية الفردية وبين الانصياع الاجتماعي ـ تلك القضية الضمنية في المودة ـ ادراكاً نافذاً اكثر من غيرهم من الناس .

إن من الحوافز والدوافع الجوهرية التى يشير اليها « ساپير » (١٦) والتي تدفع الى خلق وايجاد المودة وتقبلها هي ما يلي :

أ ـ الملل الناتج من الفراغ في المجتمع الحديث ومن ضروب النشاط الموغلة في الاختصاص ، ممـا يؤدي الى القلق وعدم الارتيـاح والى حب الاستطلاع والتطلع للجديد . ان الرغبة العامة في الهرب من حياة رتيبة شكلية الى حـــد كبير ، تدعمها الرغبة الملحة لزيادة جاذبية النفس (او الذات) ، وجاذبية وسحر كل ما هو موضوع الحب والصداقة ، هما وراء هذه الظاهرة ـ ظاهرة المودة . والواقع ، ان الانسان طالما يتعرض للشعور بالملل ويكون ضحية الشعور بالضياع وانعدام الحول والطول لديه في المجتمع الصناعي ، الحضري ، المعقد ، الضخم ، الحديث ، المترابط ترابطاً وظيفياً حيث يطغى عليه الاختصاص المهني العالي . ان هذا كله يـدفع الفرد مرغماً لأن يعتمد على نفسه وحدها محتاجاً الى ما يؤكـد ويدعم حقيقته . وعليه ، فان ايجاد النفس واكتشافها المتكـرر الذي لا ينتهي ، وذلك عن طريق وبواسطة سلسلة من التهرب والانـــلات

(16) - Sapir, Op. Cit., pp. 139 — 144.

المصطنع من النفس المصبوبة بقالب رسمي اجتماعي ، يصبح ضرباً من (الحصار) المعتدل الخفيف عند كل فرد من افراد هذا النوع من المجتمعات التي انطمس فيها الفرد واصبح غير ذي قيمة فيها ، او ليس اساسياً فيها ، على كل حال .

ب - وهناك دافع آخر يختلف عن دافع تأكيد الذات (اللبيدية) وهو الرغبة في النفوذ او الشهرة ، وهي رغبة تحققها وتشبعها المودة . ومن هنا كانت المودة ، لهذا الصنف من الناس ، شعار تميز شخصي ، او شعار عضوية في جماعة يسبغ عليها التميز عادة ، بشكل من الاشكال . ان من هذا الباب تقليد الطبقة الاجتماعية لمودة الطبقة التي هي اعلى منها لأن من شأن ذلك ان يقضي على ثغرة التميز التي تفصل بينهما . ومن هنا كانت النتيجة المنطقية لشيوع مودة ما بين اعضاء كل المجتمع هي انعدام ضروب الاشباع التي كانت مسؤولة عن تغير المودة في البداية . وهكذا يصبح ايجاد مودة جديدة امراً ضرورياً جداً من الناحية النفسية ، وهكذا تعاد وتتكرر دورة المودة بصورة لا تنتهي ابداً .

جـ - إن المودة ، على وجه التأكيد ، أمر تأريخي ، ان اية مودة لا يمكن أن تفهم فيما اذا هي امتلخت من موضعها في سلسلة متتابعة من الاشكال . إن من المخطر جداً أن يحاول المرء تبرير او (سكلجة) مودة معينة على اساس من مباديء عامة تعتبر صادقة على صنف من الاشكال قد تكون تلك المودة المعينة مثلاً منها ، على ما يظهر . والواقع ، ان من العبث أن نحاول تفسير شكل معين من اللباس أو نماذج خاصة من مواد التجميل او طرائق تصفيف الشعر من دون اخذ الناحية التأريخية بنظر الاعتبار اولاً وقبل كل شيء « فالسيقان العارية في الصيف عند نساء امريكا هي ليست من الناحية التأريخية ولا من الناحية النفسية نفس

مودة السيقان العارية والاقدام الحافية عند النساء البدائيات اللائي يعشن في المناطق الاستوائية » . إن اهمية فهم المودة وتدبرها من الناحية التأريخية يجب ان تكون أمراً واضحاً ، مسلماً به فيما اذا نحن أدركنا بان جوهر المودة هو انها يجب ان تتدبر وتقيم على انها تنويع في تسلسل او تعاقب من الأشكال ، على انها انتقال وتحول عن اسلوب أو شكل سابق مباشرة .

د ـ ان التغيرات في المودة تتوقف على الحضارة السائدة وعلى المثل العليا الاجتماعية التي تغذيها وتمدهـــا ، اذ ان تحت السطح الظاهري الهادىء للحضارة توجد دائماً اندفاعات (سايكولوجية) قوية سرعـان ما تغتنم المودة وجهتها . فاذا كان في المجتمع الدمقراطي ، مثلاً ، اندفاع غير معترف به نحو التميزات الطبقية ، فان المودة ستكتشف اساليب وطرقاً لا تنتهي لاعطاء ذلك الاندفاع شكله المرئي الملحوظ .

هـ ـ ان الرمزية الجنسية هي عامل واقعي في السلوك البشري ، والمودة مظهر من مظاهر هذا السلوك ، ولا بد ان يكون لهـذه الرمزية اثر فيها ، على كل حال . والواقع ، ان من المصاعب التى تحول دون فهم المودة باشـكالها الظاهرية من النزوة ، هو انعدام المعرفة الـدقيقة المضبوطة بالرمزيات اللاشعورية اللصيقة او المرتبطة بالاشكال والالوان ، والانسجة ، وهيئات القوام ، والعناصر التعبيرية الاخرى في حضارة معينة . وعلى هذا الاساس فان كل مودة تبتعد كثيراً عن هذه الوجوه اللاشعورية في مجتمع ما ، تكون قلقة وغير مضمونة البقاء او الاستمرار نتيجة هذا التعارض . ومن هنا كانت اساليب ووسائل التزيين التى تبعد الانسان كثيراً عن الحالة الطبيعية سرعان ماتنبذ في المجتمع الامريكي لأن الحضارة الأمريكية مشبعة ، على ما يرى « ساپير » في هذا السياق ، بعبادة الطبيعة والتعلق بما هو طبيعي ، ومن هنا كان احمرار الخدود يعتبر تعبيراً عن الجمـال

الطبيعي الصحي الذي تتميز به الفتاة الريفية ، ولذا فستبقى مودة صبغ الخدود بما يظهرها بهذا المظهر الطبيعي ، في حين يزول عاجلاً كل ما يناقض هذا ويتعارض وأياه ، على انه عارض وليس جزءاً اساسياً من سياق تأريخ المودات في المجتمع الامريكي .

و - في المجتمعات البدائية الجامدة ، حيث تكون الحضارة تقليدية ويكون التأكيد بالغاً على الجماعة (Group) وعلى قدسية التقاليد لا على التعبير الفردي الذي يجنح ان يكون لا شعورياً تماماً ، تندر المودة او تنعدم ، ويكون التغير في هذه المجتمعات بطيئاً يجرى على شكل تغيرات في الطراز غير معادة ولا منتكسة ، في حين ان هذه التغيرات في المجتمع الحديث تجري على شكل مودات متكررة منتكسة في صورها واشكالها .

ز - الرغبة في الاختراع والابداع والنزوع الى الجدة ، وهي رغبة قويت ، على ما يرى « ساپير » هذا ، في المجتمعات الغربية على اثر عصر النهضة الذي ايقظ في الاوروپيين هذا النزوع وقواه مما فتح امام المجتمعات الاوروپية كل عالم الاختيارات والانتقاءات الممكنة .

ح - لعل الثورة الصناعية هي اهم من عصر النهضة في تأريخ المودة من حيث ان هذه الثورة ادت الى ظهور الانسان العادي ورفعه . والواقع ، ان الثورة الصناعية يسرت الوسائل التي تؤدي الى نشر المودة ونقلها على اوسع نطاق ، في حين ان ظهور (الانسان العادي Common man) ادى الى زيادة عدد الراغبين في المودات والقادرين على تبنيها زيادة هائلة في العصر الحديث .

ان الثورة الصناعية ادت الى تغيير (ارستقراطية المرتبة) او القائمة على المرتبة في اوروپا الى ارستقراطية الثروة ، حيث اصبح الفرد في العهد الجديد هذا مثرياً من ناحية النظرية القانونية او هو مثري حسب خياله

الخاص . لقد اصبح الناس في هذا المجتمع الجديد كلهم سواسية ، وكلهم اهل لأن يتعاطوا رموز المودة بعد ان كانت هذه الرموز من قبل جامدة ، ثابتة ، طبقية ، تتحكم بها المرتبة (Rank) . إن هذا التحول ادى الى اعمام المودة في الهرم الاجتماعي ، والى رخص قيمتها ، والى تغيرها السريع ، ولم يبق من الصيانة والحفاظ لدى الطبقات المثرية غير اللجوء الى المواد الغالية والاصرار على ما هو مكلف من المواد التى تعبر المودة فيها عن نفسها بين هذه الفئات . ان مما لا شك فيه ، ان الاصرار على عامل الغلاء هذا والمبالغة فيه ، وهما من سمات الاثرياء المميزة لهم في هذا الباب ، يدللان على خطل هذه الطبقة من هذه الناحية وذلك لأن المودة ، من حيث الاساس ، امر يتعلق بالاشكال والرموز ، وليس بالقيم المادية .

وعلى كل حال ، فان المودة ذات علاقة وثيقة بالنفس (Self) او الذات (Ego) والتعبير عنها . ولذا فان جذورها يجب ان تبتغى في هذا الميدان النفسي بالذات .

إن مما يستحق بعض التعليق ما ورد في هذه الحوافز من دوافع متعارضة من قبيل النزوع الى الجديد ، والنزوع الى الانصياع (Conformity) والانسجام مع الجماعة . الواقع ان جمهرة الكتاب في هذا الموضوع ، ومنهم « سابير » نفسه ، يرون ان المودة تعمل على ارضاء مطلبين قويين متعارضين يجري فيما بينهما التباين والاصطراع في الميادين الاخرى من حياة الانسان الاجتماعي . ان هذين المطلبين هما الحاجة الى الجديد من الاشياء من ناحية والحاجة الى الانصياع والانسجام والتمشي مع المجموع . ان المودة تشبع هاتين الحاجتين المتعارضتين من الناحية (السايكولوجية) ، وذلك باخضاعها الحاجة الفردية الاولى الى المنطق الاجتماعي في الحاجة

الثانية . وبعبارة اخرى : إنها تجعل الحاجة الى الجديد في خدمة التماسك الاجتماعي والوحدة الاجتماعية والتنظيم الاجتماعي في نسق او نظام موحد . إن من مضامين هذا التعارض (السايكولوجي) في النزوع ان المودة تمكن الفرد من ان يطمن نزوعه الى الانسجام مع المجموع ونزوعه الى التميز والتفاضل والتجديد في نفس الوقت .

ط ـ وللمودة وظيفة اجتماعية اخرى لا تخلو من فائدة إذ هي تدخل الناس في نمط عام مشترك من خلال ما تفرضه عليهم من احساس بعدم الاكتراث ، الى حد ما ، ببعض الحدود او التعاريف الحضارية ، وهو أمر يدعو الناس الى الاحساس بالتشابه على اختلافهم في مصالحهم ومشاربهم ودروب حياتهم ومستوياتهم الحياتية ويمكنهم من الالتقاء في نقاط من هذا القبيل تدور حولها المودة ، على ان لا تكون هذه التغييرات عميقة في الحياة البشرية بحيث توغل الى الصميم متجاوزة سطحية المجتمع وحياته . ونحن لا ندري حتى الآن ، وبعد ان قطعت الدمقراطية في العالم شوطا من حياتها ، هل ستمتد ظاهرة المودة الى بعض الوجوه الجوهرية من الحياة بحيث يبدل الناس زوجاتهم في كل فترة قصيرة ، او يبدلون ولاءهم السياسي في كل يوم أو يغيرون اصدقاءهم في كل بضعة أيام ؟ ! ومع هذا فان من واجبي أن اؤكد هنا بان المودة لا تخضع للمنطق والعقل ، كما أنها لا تخضع لمبدأ المنفعة في اغلب الاحيان ، والا لما شاعت بين النساء المودات التي تسمى (المودات العقابية Punitive fashions) (١٧) ، وهي مودات تضايق المرأة وتعرضها الى عذاب ملعون ، من قبيل الاحزمة والمشدات الضاغطة بقوة ومن قبيل (الياخات)

(17) - See Bergler and Edmund , Fashion and The Unconscious (New York : Robert Brunner , 1953) , p . 88

العالية ، ومن قبيل الفساتين الضيقة جداً في بعض المناطق ذات العلاقة بالتنفس او بحرية الحركة ، ومن قبيل الكعب العالي في الاحذية ، وما شاكل . ان البحاثة « ڤبلن » الذي اشتهر بكتابه المعنون (الطبقة الفراغية) يرى في هذه كلها محاولات من قبل المرأة لايهام الناس انها ليست من الطبقة العاملة او ممن يحتجن الى العمل او يمارسنه ، انما هي من الطبقة العلياء المترفة ، الارستقراطية التي لا تحتاج الى العمل من اجل العيش ولا تمارس هذا العمل ، ولذا لا يتقيدن بمستلزماته وشروطه ومؤهلاته وما ييسر القيام به من سلوك ووسائل واساليب ومظاهر .

وهناك باحثون آخرون كثيرون راحوا يبحثون عن الدوافع النفسية التي تدفع الفرد للمودة . ان هؤلاء الباحثين اشاروا الى قوائم كثيرة تحتوي على دوافع ورغبات متعددة مختلفة ، منها على سبيل المثال لا الحصر : الرغبة في الخبرات الجديدة ، الرغبة في الظهور اوحب الظهور ، الرغبة في التميز والاختلاف ، الرغبة في الظهور بمظهر الشباب ، الرغبة في التعويض عن بعض العيوب الجسمانية والعاهات النفسية ، الرغبة في تقليد ومحاكاة ما هو مستحسن ، الرغبة فيما هو مريح جذاب ، وغيرها من الرغبات التي لا حصر لها ولا نهاية .

يروى ان شابة هندية كانت ترتدي فستاناً ارجوانياً في منتصف شهر آب ، أجابت عند سؤالها عن سبب تفضيلها هذا اللون دون سواه : (انه لون مغر ، جذاب ، لذيذ ، شهي) . إن معنى هذا اننا إذا اقحمنا الفروق الفردية في هذا الصدد واضفناها الى العوامل والملابسات التي تتحكم بتفضيل الناس لشيء ما ، في وقت ما ، دون غيره ، وتقرره ادركنا مدى تعقد هذا الجانب من الموضوع ، كما ادركنا الى اي مدى يشوه علماء نفس الفرد جانب الدفع هذا عند تبسيطه بهذا الشكل

وقصره على الفرد نفسه ، واغفال اطاره الحضاري والاجتماعي ، ودور هذا الاطار وآثاره في الدفع والانتقاء .

ان البحاثة « سارجنت Sargent » يرى ان الخطأ قد يركب الاجابة العامة على سؤال لماذا ينصاع الناس للمودة فيما اذا نحن أغفلنا ان هؤلاء المنصاعين للمودة يختلفون فيما بينهم اختلافاً كبيراً . فبين النساء في مودة ملابس النساء ، مثلاً ، رائدات ، هن اللائي يبدأن المودة ، ومنهن اتباع ، يتبعن خطوات هاتيك الرائدات . وبين النساء من تتمشى مع تلك المودات على مضض وتردد وعدم رضا في بعض الاحيان . فالرائدات هن نساء مرموقات في السلم الاقتصادي ـ الاجتماعي ، وهن يكتسبن نفوذاً اضافياً باقحامهن مودة جديدة او ايجادهن هذه المودة . والتابعات لهاتيك الرائدات ينصعن للمودة ويحصلن على شيء من النفوذ من جراء ادخال تلك المودة الجديدة الى هيئاتهن الاجتماعية او الى ناديهن او الى جماعتهن الاجتماعية . اما الصنف الثالث من النساء فانهن لا يكترثن كثيراً للتمشي مع آخر طراز في اللباس ، ولكنهن ، في نفس الوقت ، لا يرغبن ان يعتبرن متخلفات او نشازاً او جامدات في هذا الميدان . وعليه ، فان الدافع الرئيس الذي يدفعهن للمشي مع المودة هو دافع الانصياع (١٨). ان مما لاشك فيه ان الجماعات التي تنتمي اليها المرأة ، والتي تتقمصها وتدمج نفسها بها دمج هوية تلعب دوراً كبيراً مهماً في تقرير وصياغة مواقفها وافعالها تجاه المودة . ففي بعض الجماعات يكون من الضروري جداً ان تكون المرأة (على آخر طراز) . وفي بعض الجماعات البوهيمية ، مثلاً ، يكون من المهم ان يكون الشخص خارجاً على ما هو متعارف . وفي بعض

(18) - S . S . Sargent , Social Psychology (New York : Ronald Press , 1950) , p . 389 .

جماعات المراهقين وكلياتهم يلعب دافع الانصياع والانسجام دوراً مهماً فيما بينهم . وعلى كل حال ، فان ما يعتبره عالم النفس دوافع فردية تنبعث ، على ما يظهر ، من الاشتراك والاسهام في جماعة ما ، ومن الاندماج مع بعض الجماعات وتقمصها وشعور الانتماء اليها والتوحد معها (١٩) .

ان مما يجب ان يشار اليه في هذا الصدد ، وهو امر له أهميته البالغة من الناحية النفسية ـ الاجتماعية في الحفز على المودة وفي جعلها مغرية تنطوي على اشباع نوازع أصيلة عند الناس ، هو انها توهم الناس او تمكنهم ، ولو بشكل مصطنع ، سطحي ، ظاهري ، من الشعور بردم التغيرات والابعاد الاجتماعية ، وانعدام الفوارق بينهم وبين الطبقات المتنعمة في المجتمع ، حتى ليخيل للفرد ان مستواه المعاشي كمستوى الطبقات الارستقراطية لا لشيء إلا لأنه يشبه بعض أعضاء هذه الطبقات أحياناً في الزي او المظهر او تعاطي بعض ما يتعاطونه من أنماط سلوكية وما يشيع بينهم من مودات في الملبس او المأكل او المشرب او ضروب التسلية والانعاش وما اليها . ان هذا الوجه من ظاهرة المودة يرينا بوضوح سطحية هذه الظاهرة ، واهتمامها في الاعم الاغلب توافه الحياة ومظاهرها وبالتحسينات الخارجية الظاهرية وليس بالضروريات منها وما هو جوهري فيها . لعل من أوضح الامثلة على هذا ما يطرأ من تغييرات على مظاهر السيارات ، وهي تغيرات كثيرة متواترة ، في حين ان هذه التغيرات لا تتناول آلاتها واجهزتها الأخرى بمثل هذه الدرجة .

يتبين مما مر أن نزوع الانسان للحصول على التقدير والاحترام والاعجاب من قبل الآخرين والظهور بمظهر اللياقة التي تساعد على ذلك كله تلعب دوراً كبيراً في حفز الانسان على تبني المودة . ان من هذا القبيل ميل

---

(19) - Ibid . , p . 389 .

المرأة الحديثة ونزوعها القوي الى الظهور بمظهر الحداثة والتجدد والشباب والجمال مما يدفعها الى تبني المودات الجديدة .

يعتقد « مورس كنزبركث » ان هناك ميلاً للانصياع (Conformity) عند الانسان لعله من بقايا ما خبره في معترك تنازع البقاء من فوائد السلوك المنصاع لاعضاء القطيع او الجماعة في اوقات الخطر والازمات بصورة خاصة . ان هذا الميل هو الذي يفسر لنا بعض الظواهر الجمعية من قبيل انتشار المودات والعرف الاجتماعي وما شاكل ، وهي أمور ليست غريزية ولا هي أفعال منعكسة وانما هي تقليد تتدسس اليه الخبرة ويتدخل فيه الذكاء (٢٠) .

ب ـ العوامل التي ساعدت على التسابق في المودة :

إن مما يجب ان يشار اليه عند الحديث عن التسابق في المودة هو ان التحسينات الصناعية والآلية وشيوع البيع بالاقساط قد لعبت دوراً مهماً في تحقيق امكان هذا التسابق في المودة . ان الدراسة التي قام بها الباحثان « Lynds » ترينا على ان ارتفاع المستوى المعاشي الذي كان نتيجة من نتائج التقدم التكنولوجي في المجتمع الذي اجريت عليه هذه الدراسة كان قد أدى الى تقوية وحدة السعي والنضال من أجل المنزلة بين السكان (٢١) لقد كان هذا المجتمع قبل ذلك بسيطاً لا توجد فيه اسالة ماء ، ولا توجد في البيوت أنابيب ماء حار ، وليس هناك من تمايز طبقي في وجوه متعددة من حياة هذا المجتمع ، من قبيل انعدام التمايز الطبقي فيما يتصل بتوزيع

(20) - See M . Ginsberg , The Psychology of Society (London : The Methuen and Co . , 1964) , p . 25 .

(21) - See R. S. Lynd and H. M. Lynd , Middletown in Transition (New York : Harcourt , Brace and Co . , 1937) , p . 203 .

الماء في البيت حيث لا يوجد هذا التوزيع اصلاً لعدم وجود اسالة الماء. حتى اذا بدأ بعض الناس بتنظيم اسالة ماء في داخل بيته، وجدنا ان هـذا الاسلوب يشيع، واصبح سكان المدينة يتنافسون في هـذا الميدان وما يتصل به.

كما ان نظام الدفع بالاقساط قد يسر للناس ان يعيشوا في مستويات تقصر عن تحقيقها مواردهم. يضاف الى ذلك ان تقدم الانتاج الصناعي وما حققه من ديمقراطية في التوزيع جعل من الميسور مثلاً اقتناء الجواريب الحريرية من قبل أغلب النساء بعد ان كان معظم النساء يلبسن جواريب قطنية، في حين ان الاقلية الضئيلة المثرية الارستقراطية هي وحدها التي كانت تستطيع اقتناء الجواريب الحريرية. ان دخول الحرير الصناعي في هذا الميدان كان قد أدى الى تشجيع هذا الاتجاه وتوسيع ميدانه.

لقـــد أشرت في ما مر من البحث الى بعض العوامل الاجتماعية والصناعية والاقتصادية التي تلعب دورهـا في ظاهرة المودة، وفي تحفيز الناس على التسابق في ميدانها. ان مما يجب ان يشار اليه في هذا الصدد هو ان هذا التسابق ليس نتيجة لهذه العوامل وحسب، بل انه من نتائج بعض الدوافع ايضاً لعل من أهمها مما يشير اليه بعض الكتاب هما الدافع للانفراد والتميز، والرغبة في الانصياع للنمط الغالب (Conformity) وهنا لابد من الاشارة الى ان متزعمي المودة والمتحكمين في خلقها، هم في الاغلب من الطبقات المثرية ومن النخبة الاجتماعية او علية القوم (Social elite)، وهؤلاء مشغولون على الدوام بابتداع الاساليب الجديدة التي من شأنها ان تحدث في الآخرين انطباعاً قوامه تميز هؤلاء النخبة تميزاً طبقياً واجتماعياً. ان هذه البدع الجديدة سرعان ما تنحدر

في الهرم الاجتماعي نازلة الى الطبقات الدنيا عن طريق أولئك الذين يطمحون دائماً بالتشبه بمن هم أعلى منهم في الهرم الاجتماعي فيقلدونهم في سلوكهم وازيائهم وطرائق عيشهم واساليب حياتهم ، مما يؤدي في النهاية الى اضعاف تعلق علية القوم بالمودة السائدة فيما بينهم ، والى ابتداع وتبني غيرها ، مما سأشرحه وأشير إليه في ملابسة أخرى من هذا البحث ، عند معالجة البنية الاجتماعية والمودة .

إن من الواضح ان ظاهرة المودة كانت محلية الى حد كبير وقد تشيع في بعض المجتمعات المتجاورة في بعض الاحيان . غير انها اصبحت عالمية سرعان ما تنتشر في بقاع متباعدة من العالم في فترة قصيرة جداً لتيسر وسائل النقل الحديثة ، وعلو كفاءة العمليات الصناعية ، وتحسن الاحوال المعاشية ، وتزايد استقلال المرأة من الناحية الاقتصادية ، وخروجها للعمل خارج البيت ، مما هيأ لها مورداً تصرف أغلبه على ملابسها وتزيينها . ان الثورة الصناعية وما رافقها من نمو الرأسمالية وما يسميه « جوزيف شمپيتر » (دمقراطية الانتاج) ، على أثر ذلك التقدم وهذا النمو مما مكن حتى الطبقات الدنيا من التنعم بالانتاج ، قد أدت الى شيوع ظاهرة المودة وانتشارها في المجتمع الحديث انتشاراً هائلا ، وطغيانها عليه بشكل لم يسبق له مثيل في تأريخ البشرية .

لقد كانت البنية الاجتماعية ، قبيل الثورة الصناعية ، جامدة الى حد كبير ، وكانت الطبقية غير مرنة ، وكانت الانماط السلوكية المحلية والتعاريف الحضارية جامدة ، متأصلة ، مستحكمة في المجتمعات لانعدام او ندرة الاحتكاك الحضاري والاجتماعي بين هذه المجتمعات . غير ان الثورة الصناعية ، وما رافقها من نمو الرأسمالية ، وتقليص المسافات في العالم ، وزيادة الاحتكاك الحضاري والاجتماعي قد ادى الى خروج كثير

من المجتمعات من عزلتها الحضارية والاجتماعية ، والى هدم واضعاف الحدود والتعاريف الاجتماعية المحلية والى ايهان القواعد والمعايير والانماط السلوكية الجامدة ، والى تحطيم الحدود الطبقية التقليدية المتأصلة الجامدة ، والى امكان النظرة المقارنة الموضوعية وما يصاحبها عادة وينتج عنها من شك وريبة في كثير من جوانب التراث الاجتماعي ، ومن طغيان النظرة والمعالجة الموضوعية بين الناس واضعاف النظرة المقدسة للتراث الاجتماعي المحلي . لعل أهم ما يعنينا في هذا السياق من هذه التغيرات الهائلة هو تحطم أحد الحواجز الاجتماعية المستحكمة التي كانت تعترض شيوع وانتشار المودة ـ اعني الحاجز الطبقي . ان هذا هو الذي يضفي كثيراً من الوجاهة على رأي « هربرت سپنسر » الذي ربط شيوع المودة وانتشارها ونموها على نطاق واسع في العصر الحديث بالانتقال مما أسماه (المجتمع العسكري) الى المجتمع الصناعي ، حيث ان النوع الاول من المجتمعات يتسم بالتأكيد على المرتبة وعلى المراسيم وعلى المنزلة الاجتماعية وعلى التفاضل الطبقي بشكل صارم مفرط ، وعلى الحدود بين الرئيس والمرؤوس وبين السيد المطاع والعبد الذليل ـ تأكيداً من شأنه ان يحول دون جريان ظاهرة المودة وحدوثها وسريانها من فئة لفئة او من طبقة لأخرى .

زد على ذلك ، ان الترف والرخاء وازدياد الفراغ على أثر التقدم الصناعي والنمو الرأسمالي كان عاملاً من العوامل المهمة في طغيان ظاهرة المودة في المجتمع الحديث على بعض الاوساط والجماعات .

ان من الملاحظ ، ان المجتمع كلما ازدهر وارتفع المستوى المعاشي فيه ، وكلما أقبل على الحياة ازداد انتشار المودة فيه واقبل عليها اقبالاً مفرطاً .

زيادة المخترعات والمكتشفات في العصر الحديث بشكل منقطع النظير فيما مر من تأريخ البشرية . ان من المعروف ، بين علماء الاجتماع ،

ان كل مخترع جديد يدخل الى مجتمع ما يحدث فيه تغييرات هائلة في جوانب لاتعد ولا تحصى من حضارته وتنظيمه وعلاقاته ومؤسساته الاجتماعية وانماطه السلوكية واساليبه في العيش والحياة ، مما لا مجال للدخول في تفاصيله في هذا البحث الموجز . ان نظرة فاحصة الى ما أحدثه دخول السيارة الى المجتمع العراقي من تغيير في هندسة المدن والطرق والدور وما استدعاه من أجهزة ادارية ودوائر (وكراجات) ومحطات (بنزين) ومختصين بالسياقة او التصليح ، وممتهنين وتجار يزاولون التجارة فيما يتعلق بالسيارات ، وتقليص المسافات بين المدن العراقية ، وتهديد الرقابة الاجتماعية المضروبة على أعضاء العائلة في المجتمع القديم ، المحلي ، الصغير وتغيير حتى وجه الاجرام واساليبه وفعالياته ، وتعريض السكان لحوادث الدهس وما شاكل من امور وآثار يعجز عن تعدادها الباحثون .

لقد اشتهر عن البحاثة « اوكبرن W. F. Ogburn » ، الذى اشتهر بانكبابه على موضوع الاختراع وآثاره ، انه قال ، عند حديثه عن أثر السيارة في المجتمع الامريكي ، قوله المشهور : (ان الحب أضحى يعيش على عجلات) ، وهو قول لا يدرك مضامينه القريبة المباشرة ، والبعيدة غير المباشرة الا من شهد هذه الجوانب من حياة المجتمعات الغربية . ان هذا الموضوع يجرني الى التأكيد على أهمية ودور المواصلات ووسائل النقل الحديثة في نشر المودة ، ومدها ، وايصالها الى أبعد الحدود في العالم ، وفي ربط (مراكز السيطرة على المودة) ببعضها ربطاً من شأنه ان يؤدى الى حدة التنافس في هذا الميدان ، ومن ثم الى تنشيط هذه الظاهرة وطغيانها .

هذا ولعل خير ما يوضح آثار دخول عنصر جديد الى مجتمع ما هو ما أشار اليه احد الانثروبولوجيين في دراسته لنوع من الهنود يطلق عليهم الهنود ذوو الاقدام السود (Black Foot Indians) حيث يعيش هـذا

المجتمع في منطقة غابات متكاثفة جداً ولا توجد عندهم الخيول . غير ان هذه الخيول موجودة عند مجتمعات مجاورة لهم مما أدى الى اقبال بعض هؤلاء الهنود على شراء هذه الخيول وذلك بتعويض اصحابها بعدد من المسدسات ، حيث كان هؤلاء الهنود يحصلون على هـذه المسدسات من مناطق النفوذ الاسبانية القريبة ومن المكسيك بصورة خاصة . ولنتتبع الآن آثار دخول الخيول الى حياة هذا المجتمع البدائي في الجوانب المختلفة من الميادين بشكل مقتضب عابر .

لقد اضطر هؤلاء القوم الى فتح مسالك في هذه الغابات التي تحيط بهم ليتمكنوا من طروقها وهم على خيولهم وهذا معناه اجراء تغيير واضح في محيط هؤلاء القوم وبيئتهم . ان من يملك الخيل يجب عليه ان يعد لها مكاناً خاصاً يحفظها مما يؤذيها ومن اللصوص ايضاً ، كما يجب ان يهيء لها الاحتياطي من العلف . ان هذا الجانب استلزم اجراء تغييرات اساسية في هندسة مساكن هؤلاء القوم . كما ان الخيول تحتاج الى تنعيل والى سروج والى ألجمة وأعنة وما شاكل مما يتعلق بالخيول ، ولم يكن في المجتمع أناس يقومون بهـذه الاعمال او يعدون هـذه اللوازم من قبل . غير ان دخول الخيول الى هذا المجتمع استلزم قيام بعض افراده بها مما أدى الى ظهور مهن وحرف جديدة وموارد للعيش جديدة وهذه تغييرات مهمة بالغة في وجوه جوهرية من التنظيم الاجتماعي في المجتمع . زد على ذلك ان تيسر هذه الوسيلة السريعة الجديدة في النقل وفي وصول أماكن نائية ما كان يحلم بها هؤلاء القوم من قبل قـد أثر حتى على النشاط الاجرامي واساليبه في المنطقة ، وعلى اللصوصية بصورة خاصة حيث اصبح في ميسور هذا الهندي ان يسرق (او ان يقوم بأى عمل اجرامي آخر) تحت جنح الظلام من مجتمع آخر وان يتيسر له الافلات بسرعة وخفة

لم يكن يعهدها هؤلاء الهنود من قبل .

فاذا كان دخول عنصر جديد واحد الى مجتمع ما يؤدي الى كل هذه التغيرات في المجتمع ، فماذا عسى تكون آثار آلاف العناصر الجديدة - من أدوات وآلات وأفكار وفلسفات وازياء ومودات ومخترعات متنوعة ، وما شاكل مما يتعرض له المجتمع الحديث في كل يوم - في حياة المجتمع الحديث ؟!

ومن هذه العوامل الهامة ، توظيف رؤوس أموال ضخمة في المؤسسات الصناعية والتجارية لاستغلال هذا الميدان - ميدان المودة - الى أبعد الحدود بسبب ما يدره من ارباح طائلة على اصحاب هـذه المؤسسات والمشاريع . ومن هنا كان الميل الى التغير والتجديد قد دعمه الايحاء التجاري بكل ما لدى اصحابه من امكانات هائلة في هذا الباب . زد على ذلك ، ان هـذا الانجاه ، في التغير والتجديد المستمر ، تدعمه الضروب المختلفة من فعاليات الحياة الحديثة المتنامية في كل مجالاتها بوجه عام .

ان تتبع الحياة الحضرية ونشوء المدن في العصر الحديث ، منذ القرن السادس عشر تقريباً ، وهو القرن الذي بدأت به الثورة الصناعية على حد رأي بعض المؤرخين (٢٢) يرينا بشكل واضح تزايد أهمية وظهور وانتشار ظاهرة المودة ، مما يدلل على وثاقة الرابطة بين الحياة الحضرية الحديثة المعقدة التي رافقها تكاثف السكان في المدن الكبرى وبين هـذه

---

(٢٢) ان مؤرخي الثورة الصناعية يختلفون فيما بينهم حول بدايتها ، فمنهم من يرى ان بداياتها الاولى تمتد الى القرن الرابع عشر ، ومنهم من يراها تمتد الى القرن الخامس عشر ، ومنهم من يراها وقفاً على القرن السادس عشر . والواقع ان هـذه القرون الثلاثة قـد تمخضت عن ثلاثة أطوار او وجوه او مراحل للثورة الصناعية على التتابع .

الظاهرة ـ أعني ظاهرة المودة . فلقد اصبحت المدينة منذ ذلك اليوم ملتقى الحضارات والارساس والاجناس والاديان والقوميات بشكل لم يسبق له مثيل في تأريخ الحياة الحضرية ، واصبحت الحياة الاجتماعية فيها متغيرة (ديناميكية) بعد ان الف الناس ، في الاعم الاغلب ، الحياة الريفية والزراعية التي كان يطغى عليها الجمود والثبوت والانعزال الحضاري والاجتماعي.

ان مما يجب ان يشار اليه ، في هذا الصدد ، هو ان هذا الاطار الجديد من الحياة كان ولا يزال يتسم بسمات بارزة عند مقارنته باطار الحياة الريفية التي كان يحياها معظم سكان المعمورة (٢٣) . ان من معالم الحياة الحضرية في المدن الكبرى ـ نتيجة لعوامل كثيرة متضافرة ـ هو شيوع المجهولية نظراً لكثرة السكان المفرطة ، ونظراً لقلة العلاقات الاولية وندرتها ، ونظراً لسطحية العلاقات الشخصية وكونها عابرة ، آنية . ان هذا العامل ـ عامل المجهولية (Anonymity) من شأنه ان يحفز الناس على التفاخر والتباهي والتنافس بالمظاهر الشكلية . ومن هنا راح بعض الباحثين يؤكدون على ان المدن الكبرى هي مراكز المودة والافتتانات والتقليعات (٢٤) . ان المودة في المجتمع الحضري الضخم تطمن للفرد نزوعه للتميز واحساسه بفرديته وطموحه للشهرة والسيطرة والمنزلة الاجتماعية .

هذا ولما كانت المدن هي مراكز الثقافة والنشر والاعلام وملتقى خطوط المواصلات ووسائل النقل ، لذا كانت تزخر عادة بالدعايات والاعلانات

---

(٢٣) من أراد استيعاب المقارنة بين المجتمعين الحضري والريفي فليرجع الى الفصل الذي كتبته حول هذا الموضوع في كتاب مبادىء علم الاجتماع .

(24) - G . P . Noel and L . A . Hulbert , Urban Society (New York : Thomas and Crowell Co . , 1956), pp . 281 — 282 .

حول المودات في مختلف الوجوه ، وكانت المودة من أهم مشاغل سكان المدن الكبرى في العصر الحديث . ان مما يساعد على استشراء الميل نحو المودة في المدن الكبرى هو ان الحياة الحضرية في هذه المدن تولد القلق بأنواعه المختلفة ، وهذا القلق هو الذي يغذي النزوع الى المودة ، كما يغذي تكوين الحركات الاجتماعية بأنواعها المختلفة ، وهو هو مبعث كل ضروب السلوك الجمعي البدائي .

زد على ذلك ، ان من خصائص المجتمع الحديث عند مقارنته بالمجتمع القديم والمجتمع البدائي أن البنية الاجتماعية فيه مرنه غير متحجرة ، وان النقلة الاجتماعية فيه ممكنة الحدوث ، بل هي سريعة الحدوث في بعض المجتمعات كالمجتمع الامريكي ، مثلاً ، حيث يطمح كل فرد أن يكون رئيس الجمهورية ، او يكون مثرياً بعد افلاس ، او مرموقاً بعد ان يكون نكرة ، او مختصاً في فن او علم بعد ان لم يكن كذلك ، وهكذا . ان مما يمكن ان يستنتج من هذا كله هو ان النظام الاجتماعي الذي يعيش فيه اناس من هذا القبيل كل يسعى لتحسين منزلته الاجتماعية ، ومركزه الاجتماعي ، لا يمكن ان يكون ثابتاً او جامداً ، بل لا بد وان يكون مرناً كثير التغير .

ان هذه الحقيقة وما يلازمها من دمقراطية بعض المجتمعات الحديثة تنطوي على المنافسة التي هي من اهم خصائص المجتمع الحديث . الا ان ما يجب ان يشار اليه في هذا الصدد هو ان هذه المنافسة تتخذ ضروباً واشكالاً متعددة منها ـ وهو ما يتعلق بموضوع بحثنا هذا ـ السعي لبز الآخرين ، والتفوق عليهم ، عن طريق المظاهر المصطنعة من قبيل السيارات الفخمة ، وامتلاك افخر واكبر الممتلكات جهد الامكان ، والتميز بما يسمى برموز النفوذ عادة « Prestige symbols » من قبيل القصور الفخمة ،واحدث

ما تنتجه الصناعة ، واغلى ما يطمح فيه من بضائع ومواد وآلات وملابس وما شاكل .

ان الملابس هي في الواقع من ابرز مظاهر التمايز الطبقي . هذا ولما كانت المجهولية (Anonymity) هي من ابرز خصائص المجتمع الحديث ، كانت الملابس تلعب دوراً فعالاً في عملية التنافس على المنزلة ، وفي ايهام الآخرين بالتمايز الطبقي عن طريق المظهر ، لان الملابس الفاخرة دليل على الجاه والثروة معاً على كل حال ، وان لم تصدق على كثير من مرتديها في المجتمع الحديث .

جـ ـ وسائل نشر المودة :

ان الصحف ، والمجلات ، والافلام السينمائية ، ونوافذ العرض في المخازن الكبرى ومخازن الطبقات العليا ، والحفلات ، ومعارض الازياء ، والدعايات ، والاعلانات ، والتصاوير هي بعض اساليب ووسائل واسباب نشر المودة عادة . كما ان من ابعد الاسباب تأثيراً في نشرها هم الاشخاص الذين يتمتعون بمراكز اجتماعية واقتصادية مرموقة في نظر الناس .

ان بعض البوادر الاولى في مودة ملابس النساء تبدأ عادة بالنساء المرموقات ، ذوات المنزلة الاقتصادية ـ الاجتماعية الراقية في نظر الناس ، حيث يكن الرئدات الاول في هذا الصدد . ثم تأخذ العملية الاجتماعية مجراها في الذيوع والانتشار مما يؤدي الى صنع ذلك الطراز من اللباس بشكل ارخص تدريجياً حيث تتمكن نساء الطبقات الدنيا من اقتنائه مؤخراً . لعل من اوضح الامثلة ـ على هذا مودة البدلة المشهورة التي سميت (بدلة والي Wally) حيث ظهرت لأول مرة صورة « دوقة وندسور » بتأريخ ٣ حزيران سنة ١٩٣٧ وهي ترتدي بدلة العرس هذه ،

في عدد من الصحف الامريكية . لقد كان ثمن هذه البدلة (٢٥٠) دولاراً . وبعد عشرة ايام اخرج احد مخازن نيويورك المشهورة بتعاطي المودة في ملابس النساء نفس البدلة بسعر (٢٥) دولاراً ، وفي تموز اخرج مخزنان آخران نسخة من تلك البدلة بسعر (١٧) دولاراً ، وبعدها بقليل وفي تموز من نفس العام وصل سعر البدلة من طراز « والي » حوالي (٩) دولارات - حيث اصبح بمقدور كل امرأة ان تقتني بدلة من هذا النوع .

د - دورة المودة أو دورية المودة :

لقد كثر الجدل والاخذ والرد بين المعنيين بالمودة حول مدى اتباع التغيرات في المودة نمطاً معيناً . لقد زعم بعض هؤلاء الباحثين ان كل عنصر او وجه من وجوه المودة ، من قبيل طول الفستان ، مثلاً ، يمر في دورة (Cycle) معينة ، بحيث أن هناك فترات عودة لكل وجه من هذه الوجوه ، واطوار تكرار فيها ، وعليه فان هناك ضرب من القانون الطبيعي وراء اتجاهات المودة . ولقد اتخذ من الحقيقة التي فحواها أن قادة المودة قد حاولوا في أوقات مختلفة ، محاولات لم تكلل بالنجاح ، لأن يبدعوا مودة جديدة او يعيدوا تأصيل ونشر مودة قديمة ، دليلاً على أن هناك ولا شك نمط طبيعي للمودة . إن مشاهدة المودة ترينا ولا شك وجود بعض الوحدة والنظام في اتجاهات المودة التي تمخض عنها الماضي . غير أن البحاثة « لا پير » يرى ان هذه الوحدة وهذا النظام الدوري المكتشف ، المدعى ، هو ، على ما يظهر ، دالة من دوال النظرية الدورية وأثر من آثارها ، ومضمون من مضامينها ، شأنه في ذلك شأن كثير من الدورات الأخرى شبه العلمية والتي لم تستنبط من الحقائق ذاتها .

وعلى كل حال ، فليس هناك من يدعي حتى الآن انه اكتشف : كيف يمكن أن نتنبأ عن اتجاهات المودة في المستقبل القريب او البعيد ، وهو أمر كان من الممكن ان يكتشف لو كانت هناك دورة طبيعية في هذا الميدان (٢٥) .

ان كون قادة المودة قد فشلوا مراراً وتكراراً في جر اتباع واكتسابهم لتبني طراز ما لا يبرهن ، بالطبع ، الا ما سبق أن اشرنا اليه من قبل وهو أن هؤلاء القادة لا يملون ارادتهم عادة على جماهير الناس في هذا الميدان فيتبعهم الناس بصورة ميكانيكية ، وانما كل ما يستطيع ان يقوم به هؤلاء القادة هو انهم يزودون الطراز الجديد الذي يقدمونه بنفوذ يتسم بالترغيب واجتذاب الناس . فاذا لم يتقبل الناس هذا الطراز الجديد نظراً لوجود اطرزة أخرى ، وبناء على وجود امكانات اقتصادية معينة ، ومواقف ذهنية راهنة ، وعوامل كثيرة أخرى ، فان هؤلاء القادة قد لا ينجحون في قبول طرازهم من قبل النسوة اللائي هن المفتاح السحري لنشر هذا الطراز وتقبله وذيوعه في عالم النساء وذلك عن طريق استعمال اولئك النسوة لهذا الطراز مما يؤدي الى عرضه على الناس في وضعيات الاتصال المباشر في الحفلات واللقاءات والمناسبات الملائمة العامة ـ التى تفعل في اطارها بعض العوامل الفعالة المباشرة في تغيير المودة . والواقع ، ان تأريخ المودة في العصر الحديث يرينا عدة امثلة تضافرت فيها مساع مصلحية مركزة اسهم فيها قادة المودة اسهاماً فعالاً لنشر مودة معينة او طراز جديد ، او نشر مودة قديمة مرة اخرى على شكل مودة جديدة ، ولكنهم مع ذلك منوا بالفشل الذريع ، وضاعت سدى جهود جبارة واموال طائلة . فقد حطمت مودة الشعر القصير عند النساء اصحاب صناعة

(25) ـ LaPiere and Farnsworth , Social Psychology , p . 463 .

الشباك التى كانت مودة يوماً ما يوم كانت المودة هي مودة الشعر الطويل الذي كانت تحفظ تسريحته ويصان نظام تصفيفه باستعمال هذه الشباك . لقد بذل اصحاب هذه الصناعة جهوداً جبارة لاعادة مودة الشعر الطويل ، ولكن ذلك كله كان دون جدوى ، كما ان اصحاب صناعة النسيج التى تنتج ملابس النساء صرفوا مبالغ طائلة لايقاف مودة الفستان القصير ، ومع ذلك فلم يستطيعوا ان يحققوا الغرض في هذا الميدان . ان مما يجب ان لا يغفل في هذا الصدد هو ان اشهر مصممي الازياء واعظمهم كانوا قد قدموا مودات للفستان الطويل سنة بعد اخرى - خلال الفترة التى شاعت فيها مودة الفستان القصير - ولكنهم لم يستطيعوا ايقاف تيار مودة الفستان القصير ، واحلال هذا الطراز مكانها . (حتى اذا حان الوقت) مؤخراً ، قبلت مودة الفستان الطويل وصارت تشيع . إن العوامل التى تحكمت مؤخراً في اشاعة مودة الفستان الطويل ، « هي عوامل من الكثرة والتعقيد بحيث انها تستعصي على التحليل وتتحداه » (٢٦) ،

وعلى كل حال ، فان بعض الباحثين لا يزالون يؤكدون حتى يومنا هذا بان تغيرات المودة تخضع لنمط موزون ، رتيب ، منتظم ، دوري (Rhythmical pattern) ، حيث يزعمون ان طرازاً من المودة يظهر ويطغى وينتشر ثم يضمحل ويختفي ، ليرجع كرة اخرى فيظهر في الميدان بعد مدة قد تقصر او تطول .

لقد بدأ تقويم المودات بصورة مهنية حوالي سنة ١٩١٩ . لقد كانت المخازن - قبيل هذا التاريخ الذي كان بداية التسجيل الاحصائي للتغيرات في المودة - تملأ بالبضائع مرتين على الاقل في العام الواحد ، وكان هذا المنهج في العمل محفوفاً بالمخاطر - مخاطر الخسارة طبعاً - حيث

(26) - Ibid., p. 464.

لم يكن متيسراً في ذلك العهد هذا النظام الدقيق من تزويد التجار بالمعلومات اللازمة المتعلقة بنمو المودات الجديدة سبقاً وسلفاً مما ينبههم عادة الى ما هو دارج منها او ما هو موشك على الظهور والذيوع او ما هو موشك منها على ان يولي او يزول . غير ان الدراسات الدقيقة منذ ذلك التأريخ وتهيئة الجداول والخطوط البيانية التي يفسرها محلل مختص اصبحت تساعد التاجر اليوم في ان يعرف السوق المتوقعة ، لأية مودة . ان مثل هذه البحوث ترينا بأن التغيرات في المودة هي ليست تغيرات تمليها النزوات وانما هي تتبع نمطاً منظماً ولها دورات (Cycles) .

ان محلل المودة في العصر الحديث قد قلل المخاطر والمحاذير التي يتعرض لها عمل وبيع كثير من البضائع ومن اهمها الملابس في هذا الباب . ان هذا المحلل يقوم عادة بتسجيل ما يلبسه الافراد الممثلون (Representative) الذين يصلحون ان يتخذوا اساساً للتنبؤ عما ستكون عليه المودة الجديدة في الملابس ، وبتسجيل ما كانوا يلبسونه في فترة طويلة من الزمن نسبياً . ان الدراسات من هذا النوع ترينا ان ما يريده الناس من ملابس هو ما أرادوه فيما مر من الزمن مع بعض التغييرات والتحويرات والتزيينات البسيطة احياناً .

ان من البحوث الممتعة في هذا الصدد ما قام به البحاثة « كروبر A . L . Kroeber » حيث قام بقياس ملابس السهرة للنساء ، وذلك باستعراض هذه الملابس في المجلات التي تعنى بتصويرها والتي ظهرت بين سنة ١٨٤٤ و سنة ١٩١٩ . لقد وجد هذا الباحث بأن الفستان استمر طويلاً حتى سنة ١٨٧٥ حيث بلغ الارض ، ثم بدأ يقصر حتى سنة ١٨٨٧ ، ثم صار يطول حتى سنة ١٨٩٩ وبقي طويلاً حتى سنة ١٩١٠ ثم صار يقصر حتى بلغ من القصر ما لم يبلغه من قبل . ان الدورة الكاملة

تستغرق (٣٥) عاماً على ما وجدها « كروبر Kroeber » (٢٧) .

هذا ولعل من المفيد أن نشير فيما يلي الى أن « كروبر » هذا قد جمع احصائيات وقياسات تلقي الضوء على تغيرات المودة . فقد تتبع مختلف القياسات ـ الطول الكلي للقوام اعتباراً من وسط الفم الى رأس الابهام في القدم ، والمسافة من الفم الى اسفل الفستان كمقياس لارتفاع البدلة عن الارض ، والمسافة من الفم حتى المسافة الصغرى حول المحزم كمقياس لطول المحزم ، وعمق (القولة) حول العنق ، وقطر الفستان في نهايته القصوى ، وما شاكل من مقاييس . سأحاول فيما يلي تلخيص ما هو ممتع مما توصل اليه من نتائج في هذا الصدد :

ان الاعداد حول النسبة المئوية المتكونة من عرض الفستان منسوباً الى الارتفاع الكلي للقامة ، ترينا ، اعتباراً من سنة ١٨٤٤ ، ان الفستان بدأ يتزايد في عرضه باطراد وبسرعة حتى سنة ١٨٥٩ حيث اصبح عرض الفستان اكثر من كل ارتفاع القوام . لقد كانت الفساتين في هذا العهد تصنع من (الكرينولين Crinoline) ، حيث يكون القماش صلباً كأنه منشى . لقد تلا ذلك تذبذب موزون منتظم نوعاً ما في الفستان الى اعلى ثم الى اسفل ، ثم تضييق وتناقص مطرد في عرض الفستان حتى سنة ١٩١٠ ـ ١٩١١ حيث اصبح الفستان كله لصيقاً بالجسم الى درجة أن الحركة الحرة اصبحت صعبة على المرأة الى حد ما ، ومع هذا فقد كان هذا الطراز من الفستان هو مودة تلك الفترة . ثم تـــلا ذلك تزايد مفاجيء في عرض الفستان استمر حتى سنة ١٩١٧ ، تلاه تناقص في العرض سنة ١٩١٨ .

(27) - A. L. Kroeber, « On the Principle of Order in Civilization as Exemplified by Changes in Fashion », American Anthropologist. New Series 21 (1919) pp. 235 — 263.

أما ارتفاع الفستان عن الارض في نفس هذه المرحلة الزمنية فقد كان كما يلي : لقد كان الفستان سنة ١٨٤٤ يمس الارض تقريباً لطوله ، وفيما بين (١٨٦٠ ـ ١٨٧٠) كانت في ذلك ذبذبة طفيفة ، حيث كان الفستان ينسحب بعضه على الارض احياناً لطوله ثم يرتفع عن الارض احياناً أخرى بمقدار إنج واحد أو انجين اثنين فقط . ومن سنة ١٨٧٥ حتى سنة ١٨٨٧ ، بدأت الفساتين تقصر ، ولكنها لم تبلغ من القصر ما بلغته في الفترة (١٩٢٦ ـ ٢٩) ، غير أنها كانت ترتفع عن الارض الى حد كشف احذية مرتديها . أما في الفترة المحصورة بين أواخر التسعينات من القرن الماضي حتى سنة ١٩١٠ فقد كانت الفساتين تسحل على الارض مرة أخرى نظراً لطولها . ثم تلا ذلك ارتفاع سريع مطرد في الفساتين عن الارض لم يقف حتى حوالي سنة ١٩٢٧ .

أما اتجاهات (القولة) وطول المحزم ، فهي الأخرى قد مرت بتغيرات وذبذبات . ان هذه التغيرات وان كانت تافهة بالنسبة لما يتعلق بفتحة الفستان حوالي العنق ، الا انها كانت ترينا دورة أمدها خمسون عاماً فيما يتعلق بطول المحزم ـ فسنة ١٨٥٣ كانت سنة اطول محزم ، وسنة ١٩٠٣ كانت سنة اقصر محزم . أما المعلومات التي تيسرت لـ « كروبر » بخصوص العلاقة بين عرض المحزم وعرض (القولة) منسوبتين الى ارتفاع القوام ، فهي الاخرى كانت تتسم بهذه الذبذبة والتغير . فمنذ سنة ١٨٤٤ حتى سنة ١٨٦٧ كانت الفترة فترة الحزام الضيق (المضبوب) جداً ، ثم تلتها فترة أرخي فيها هذا التضييق نوعاً ما . ثم حلت في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي مودة (الكورسيهات) ، حيث شاع طراز الشد على المحزم . ومنذ سنة ١٩٠٥ بدأ اتجاه ظاهر في تعريض او توسيع المحزم الذي كان بداية اتجاه للتخلي عن (الكورسيهات) الذي تم فعلاً

حوالي نهاية الحرب العظمى الاولى (٢٨) .

إن بحوثاً عديدة من هذا النوع ترينا أن المودة طالما بعثت من جديد ، فطالما شاعت من جديـــد وانتشرت بين الناس اغنية عتيقة ، أو قطعة موسيقية قديمة اغفلت ردحاً من الزمن ثم عادت الى الظهور ، وهكذا الامر في ميادين أخرى من السلوك .

يضاف الى ذلك أن البحوث ترينا ان هناك ترابطاً بين اطوال الفساتين وبين الاحوال والظروف الاقتصادية ، حيث وجد ان الفساتين تقصر في اوقات الأنتعاش والازدهـار الاقتصادي وتطول في اوقات الكساد ، وعلى هذا الاساس اشتهر قول « ماكنير McNair » - رئيس بلدية مدينة (بتسبرج) في الولايات المتحدة الاميريكية - « ان الاعمال الاقتصادية تتذبذب بتغير اطوال فساتين النساء . » ان هذا الترابط بين اطوال فساتين النساء والاحوال الاقتصادية لم يفسر بعد ، ولذا فلم يعرف فيما اذا كانت هاتان الظاهرتان مترابطتين ترابطاً سببياً ام لا . ان هذا الوجه من الموضوع يحتاج الى بحوث تحل لنا هذا الاشكال ، وتكشف لنا عن طبيعة هـذا الترابط . ان كل ما يمكننا أن نقوله في هذا الصدد هو ان لكل من هاتين الظاهرتين دورة (Cycle) على كل حال .

هذا ولما كانت مودة الملابس والازياء تدور حول الجسم البشري ، وكان هذا الجسم ثابت الهيئة على مد التأريخ تقريباً لذا كان مجال التغيرات التي يمكن استحداثها في هذه الملابس لابد محدوداً ، على كل حال ، اذ لا يعقل ان تكون صوره وامكاناته لا نهائية . ومن هنا يرى بعض الباحثين ان هـذه الحقيقة او هذا العامل - أعني ثبوت جسم الانسان -

---

(28) - Ibid., pp. 235 — 263.

هو الذي يستلزم بالضرورة هـذه (الدورية) في المودة (٢٩) ، وهـذا التكرار الذي يحاول بعض الباحثين استخلاص القوانين التي تصفه ، والتي يجري بموجبها .

وعلى هذا الاساس راح فريق من الباحثين يؤكد على الخاصية الدورية او الدائرية (Cyclical) لتغيرات الاطرزة في المودة ، حيث يرى هـذا الفريق ان هناك اعادة ثابتة في الاطرزة ، وهذا ما لا يوافق عليه باحثون آخرون منهم « كليان Killian » و « ترنر Turner » حيث يرى هذان الباحثان ان الضرورة تستلزم تغيير بعض العناصر المعينة في الطراز - من قبيل طول او عرض البدلة مثلاً - حيث يكون هذا التغيير دائرياً ولكن ضمن حدود الآداب العامة وحدود الفائدة العملية .

لقد سبق ان اشرت الى ما أجراه « كروبر A.L. Kroeber) من دراسات على ظاهرة المودة في الملابس حيث كشفت لنا هذه الدراسات ان مـدة دوام الدورات (Cycles) في طرازات الملابس خلال القرون الحديثة تختلف باختلاف الامتدادات المتباينة للبدلة او اللباس . يضاف الى ذلك ، ان بعض التزيينات (أو التزويقات) المعينة قد تضاف او تحذف من الملابس على غير تتابع منظم . ومع هذا ان هناك ميلاً لضم أجزاء معاً على اعتبار انهـا منسجمة إلا ان من النادر ان تكون هناك اعـادة كلية في الطراز . يضاف الى ذلك ان دورات التكرر التى لوحظت كانت غير منتظمة وكانت فيها تغيرات بسيطة ثابتة ضمن الدورة الكبرى (٣٠). هذا ولما كانت تغييرات الطراز (Style) في مودة مـا محدودة بحدود

---

(29) - Emory S . Bogardus , Fundamentals of Social Psychology (New York : Appleton - Century - Croft Co . , 1942) , p . 309 .

(30) - A . L . Kroeber , Op . Cit . , pp . 235 — 263 .

الادب والحشمة التى تستلزمها الحضارة في كل مجتمع لذا كان من الضروري ان يحدث بعض التعاقب وبعض الاعادة الملخصة (Recapitulation) في هذه الاطرزة . والخلاصة فان تكرار حدوث نفس الطراز بصورة دقيقة ، بحيث يؤدي هذا الى امكان التنبؤ الدقيق عن دورة الطراز ، امر لا تبرره البراهين والدراسات المتيسرة في الوقت الحاضر .

هـ ـ مسلك المودة او انتشارها وذيوعها :

ان لتبني المودة من قبل الناس مسلكا يتبع نمطاً معيناً ـ كما يرى بعض الكتاب . ان المرحلة الاولى في هذا المسلك تتميز بطغيان بعض التردد بين الناس قبل الاقدام على تبني هـذا النمط من السلوك الموحد الجديد عادة . وفي المرحلة الثانية يطغى هذا النمط على الناس ويشيع فيما بينهم . تتميز هذه المرحلة الثانية بالحماس المفرط والاندفاع في تبني هذا النمط . وفي المرحلة الثالثة يبدأ الناس الذين زاولوا هذه المودة الجديدة بالشعور بالاشباع الذي يؤدي الى شيء من الملل من هذه المودة الطاغية يداخل النفوس . وفي المرحلة الرابعة نجد ان هؤلاء الناس أصبحوا مهيئين لان يتجهوا اتجاهاً جديداً في ميولهم نحو الجديد ليتبنوا ضرباً آخر من النمط السلوكي يشعرهم بديناميكية الحياة وتغيرها وتجددها .

وعلى كل حال ، فان ما يكون شائعاً ، منتشراً ، مرغوباً فيـه من المودات اليوم قد يصبح غداً أمراً من أمور الماضي العتيق الذي لا يحفل به الناس كثيراً ، ومن هنا صدق قول « زمل Simmel » ـ عالم الاجتماع الالماني المشهور ـ حيث قال : « ان المودة سرعان ما تدرج الى الزوال في اللحظة التي تبدأ فيها بالظهور » ، تأكيدا على سرعة تغير هذه الظاهرة .

و ـ تغير المودة :

لقد اشار كثير من الكتاب والباحثين الى الظهور المفاجيء للمودة ، والى تواتر ظهورها ، مؤكدين على طغيان التغير على هذه الظاهرة بحيث « أن كل الحسابات الدقيقة لضبطها والتنبؤ عنها تذهب سدى لأتفه الاسباب » (٣١) .

أما خاصيتها الثانية فهي انها غالبة مسيطرة تسود وتنتشر بين كل طبقات المجتمع . هذا ومع أن هذه الناحية الدمقراطية في المودة ، حديثة جداً ، الا أن تذوق ما هو لطيف جذاب هو قديم قدم الانسان .

ان مما تجب الاشارة اليه في هذا الصدد هو ان حتى سلوك واذواق خصوم المودة الجديدة ومناهضيها تتبدل عادة عندما يصبح الطراز شائعاً والمودة متأصلة بين الناس (٣٢) .

إن مما لا شك فيه ، ان دوام الانسان مدة طويلة على ارتداء نفس الملابس في المجتمع الحديث او القديم ، يعرضه للاستهجان الاجتماعي وربما للاحتقار في بعض الاحيان .

ان المودة تستلزم أن يبدو القديم في شكله جديد ، ممتع ، جذاب . إن كل امرأة تهوى ان تكون (على آخر طراز) من المودة ، ومع هذا فهي تهوى أن تتميز وتختلف عن كل بنات جنسها في هذا الصدد ، وخاصة عن صديقاتها ومعارفها ومقرباتها من الجنس اللطيف .

هذا ويعتقد « يونگ » أن تيار المودة تيار جارف عنيد ، ليس من السهل أن يقاوم ، فقد قاومه البابلاوات وعقدت من اجل محاربته مجالس

---

(31) - K. Young, Source Book for Social Psychology (New York: A. A. Knopf Co., 1927), p. 659.

(32) - Turner and Killian, Op. Cit., p. 215.

السلطة بأنواعها المختلفة على مـــد العصور ، وقررت المحافل ، عبثا ، قرارات ضد البدلات ذات الرقبة الواطئة (او الدالعة) وضد تلك التي تنتهي بـ (ذنب الافعوان) . ولقد تبنى المودات والاطرزة الجديدة الملوك ، وكان « شارلمان » ومن تبعه من الملوك والامراء هم الذين ينشرون القدوة في المودة ويكونون روادها الاوائل ، ولم تنفع الأوامر ولا الوصايا ولا القوانين ولا كان لها أثر في محاربة البذخ والاسراف في هذا الميدان وايقافه الا بمقدار ما كان للشرائع والقوانين من أثر في ايقاف الأخذ بالثأر (٣٣) .

لقد حاولت الكنائس أن تحول ضد وجهة المودة وخاصة في ميدان المقدس وفي حقل المحرمات . فمنذ القرن الرابع عشر ظهرت قوانين ضد الملابس غير المناسبة للادب . وفي حماس حركة الاصلاح الديني والحركة المضادة له بذلت مساع ومجهودات جبارة للسيطرة على البدلة الشخصية أو المظهر الشخصي ولتحديد التزين والتجمل . وعلى هذا الاساس هـاجم رجال الدين والاخلاق الملابس غير المحتشمة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر في اوروبا ، وكان كل ما قامت به النساء يومذاك هو أنهن بدأن يكشفن عن العنق والصدر بعض الكشف . لقد كان الطهريون و(الكويكرس) من بين الفرق الدينية التي بدأت منذ ذلك الحين تعيين وتحديد الملبس وتحريم كشف جسم المرأة ومنع استعمال اي تزين أو تجميل شخصي .

لقد استمر تدخل الكنيسة في شؤون المودة حتى عصرنا هذا ، فقد حرمت الكنيسة الكاثوليكية في (پولندا) في نهاية الربع الاول من القرن العشرين اشتراك المرأة البولندية في مسابقات الجمال العالمية على اساس من عدم الاحتشام الذي نعتتت به هذه المسابقات .

كما أن قوانين وانظمة محلية كثيرة بلورت في مدن ومناطق كثيرة من

---

(33) - K . Young , Source Book for Social Psychology , p . 661 .

العالم تمنع المرأة من لبس بدلة السباحة . وفي نهاية الربع الاول من القرن العشرين منعت بعض الهيئات الاجتماعية في الولايات المتحدة الامريكية الفتيات من ان يظهرن في الشوارع من دون جواريب - وهي بدعة عابرة يومذاك في عدد من بقاع العالم المتمدن .

إن مما يجب ان يشار اليه في هذا الصدد ان المودة في ميدان ما قد تقضي على مسحة التحريم التي تحول دونها ، وذلك عند انتشارها . ان من هذا القبيل ما شاع في اليابان وفي روسيا منذ اكثر من نصف قرن من الزمان من سبح الجنسين سوية وهم عراة ، حيث لم يكن يرى الناس في ذلك بأساً من الناحية الخلقية او الدينية . ولقد كان التدخين من قبل النساء يعتبر معيباً في امريكا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ولكنه اصبح بعد ذلك مودة شائعة خلواً من مسحة العيب .

يتبين من هذا كله صدق عبارة « سمنر » المشهورة التي فحواها : (ان ما يزاوله الناس هو الحق وهو الصواب) تصدق على المودة صدقها على الطرائق الشعبية (Folkways) والاداب العامة (Mores) .

الواقع ، أن ليس من الغريب ان ينساق الذهن ، عند الحديث عن المودة ، الى مودة ملابس النساء بصورة خاصة ، وذلك لأن ملابس النساء اكثر تغيراً واشمل تعرضاً لظاهرة المودة من سواها من وجوه الحياة البشرية وميادينها . هذا ولاجل اعطاء فكرة مقربة عن سرعة التغير في ملابس النساء واساليب وادوات تزيينهن عند مقارنتها بالمودات الاخرى في ميادين اخرى ، فسأعرض فيما يلي جدولاً بالبدع التي قام بدراستها « بوكاردوس » خلال عشر سنوات حوالي نهاية الربع الاول من القرن العشرين ، حيث جمع من عدد كبير من الناس قوائم تحتوي على ابرز سبع بدع شهدوها . إن ما قام به « بوكاردوس » في هذا الصدد هو

أنه اطرح كل البدع التي سجلت في كل سنة ، واحتفظ بالبدع التي اشار اليها خمسة اشخاص على الأقل ، فقط . ومن هنا ، وعلى هـــذا الاساس ، تجمع لديه ، من جراء ذلك (٧٥٥) بدعة ، عرضها في اللوحة التالية على وفق الوجه الذي ظهرت فيه من الحياة البشرية .

لوحة تعرض تصنيف وتوزيع البدع (٣٤)

تصنيف البدع	العدد	النسبة المئوية
ملابس النساء وحليها	٥٣٤	٧٢،٧
ملابس الرجال وزينتهم	٨٠	١٠،٨
المسليات والانعاش	٤٢	٥،٧
العبارات العامية	٢٧	٣،٦
السيارات	٢٣	٣،١
الهندسة المعمارية	١٦	٢،٠
التربية والثقافة	١٣	١،٧
المجموع	٧٣٥	٩٩،٦

يتبين من هذه اللوحة ان البدع والمودات في ملابس النساء هي اكثر بكثير من مجموع البدع الاخرى .

ان من الملاحظ أن المودة في ميدان الملابس تميل الى الافراط والمبالغة في التبدل من النقيض الى النقيض في بعض الاحيان والى التطرف عادة . ان السبب السايكولوجي لهذا ، على ما يظهر ، هو ان الحواس تصبح متكيفة تكيفاً سلبياً لما استجد في هذا الميدان ودرج عليه الناس بحيث

(34) - E. S. Bogardus, Fundamentals of Psychology (New York: Appleton - Century - Crofts Co., 1924) p. 159.

يصبح بعض الاشخاص يرون ان من الضروري ان يفرطوا وان يبالغوا في اختلافهم وتباينهم مع ما هو دارج من المودة ، بغية تجديد واحداث الانطباع بالتميز والاختلاف .

فحين يعتاد الرجال على رؤية النساء بفساتين قصيرة بحيث لا يعيرون اطراف النساء التفاتاً خاصاً ، وقبل ان يتاح تنظيم حملة خلقيه لمهاجمة هذه المودة في اللباس على اساس انها غير محتشمة ولا مراعية للاخلاق ، فان فساتين النساء تطول مرة اخرى . يشير البحاثة « هرلوك E. B. Hurlock » الى ان المودات تجنح الى التطرف في عدم الاحتشام بعد الحروب بصورة خاصة ، وذلك لان قلة الرجال بعد الحرب تضطر بعض النساء لأن يفرطن في التزين فيما اذا هن ابتغين اجتذاب الرجل . يذكر لنا هذا البحاثة بأن دولة أثينا كانت قد اصدرت تعليماً في العصور القديمة ، بعد ان اسهم الاثينيون في حروب طاحنة طويلة ، الزمت فيه النساء ان يجعلن ملابسهن الداخلية مشقوقة من الخصر حتى الاسفل(٣٥) . من هنا يتبين ان الملابس كانت ولا تزال تستغل في المنافسة الجنسية .

ان الحقيقة الاخيرة تفضي بي الى ضرورة التأكيد على إن المودة تثير القلق عند المعنيين بها عادة ـ سواء كانت هذه العناية سلبية او ايجابية . فمن المعروف ان مودة الملابس ، مثلاً ، تثير ضروباً من القلق بين النساء ، وبين الرجال ، إذ هي تعتبر وسيلة من وسائل التباهي والتمايز . ولكنها في نفس الوقت قد تثير ضروباً من القلق بين رجال الاخلاق ورجال الدين والمحافظين والرجعيين والمتزمتين الذين يرون في مثل هذه الضروب من التغير نذر سوء وانحطاط وتدهور .

---

(35) - See E . B . Hurlock , The Psychology of Dress (New York : The Ronald Press Co . , 1929) , p . 218 .

ان من العوامل المهمة التى تلعب الدور الكبير في تغيير المودة في العصر الحديث هي العوامل التالية :

١ ـ التوقع الذي اصبح متأصلاً عند الناس بأن ما يتعاطونه لا بد متغيراً في القريب العاجل . ان هذا يصدق على ملابس النساء اكثر مما يصدق على الامور الاخرى ، إذ أن المرأة الحديثة قد اصبح هذا التوقع عندها متأصلاً تأصل القاعدة بحيث هي تعلم حق العلم بأن مودة الملابس النسوية ستتغير في الفصل القادم ، على كل حال .

٢ ـ إن المودة اصبحت جزءاً مهما وفعالاً من الاعمال التجارية الكبرى في العصر الحديث بحيث أن هذه الاجهزة الضخمة الكبرى كلها تخضع لها وتأخذها بنظر الاعتبار وتحاول استغلالها الى ابعد الحدود .

٣ ـ تزايد اليسر والسهولة في الانتاج والنقل والتوزيع مما يؤدي الى سرعة خلق المودات ، والى سرعة نشرها في اصقاع العالم المتباعدة بيسر وسهولة ، وجعلها في متناول الناس في كل مكان .

٤ ـ ان التنويع المتزايد الهائل في النشاط والفعاليات التى تزخر بها الحياة الحديثة من شأنه ان يهيء الفرص المواتية لتنمية وتغيير المودات . فاذا اخذنا بنظر الاعتبار ان كل انسان في المجتمع الحديث ليس هو كما هو في الحياة العملية الواقعية ، وانما هو يستطيع ان يسلك كأي انسان يشاء على مدى ما يتسع له خياله ووهمه ، أدركنا مدى طغيان ظاهرة المودة ومدى حاجة الانسان الحديث لها . خذ لذلك ، مثلاً ، عاملاً فقيراً من الطبقة الدنيا يحفزه غروره وخياله على ان يسلك سلوك عضو في الطبقة العليا من المجتمع ، والظهور بمظاهره في ميادين العيش والالعاب وارتياد النوادي الفخمة ومحلات التسلية الراقية وما شاكل ، ان هذا كله يتطلب منه التزيي بزي تلك الطبقة ، والظهور بمظاهرها ،

والسلوك على اساس من معاييرها وانماطها .

زد على ذلك ان الحياة الحضرية في المدن الكبرى - وهي موئل الحرية الشخصية على ما يؤكده علماء اجتماع الحياة الحضرية - تفسح المجال الى ابعد الحدود ، عند مقارنتها بحياة المجتمع الريفي ، للابداع الشخصي وللذوق الفردي ان يعبر عن نفسه ، إذ أن مجتمع المدن الكبرى يقيم تقييماً ايجابياً ويتسامح الى حد كبير في الحيود والخروج عن النمط العام او ما هو متعارف في المجتمع من انماط سلوكية تتصل بالذوق الفردي (٣٦) . وهو أمر تستنكره المجتمعات البدائية والريفية ، بل تستنكر وتستهجن كل خروج على ما تعارف عليه المجتمع ، الى درجة ان بعض هـــذه المجتمعات تحارب كل ضروب التنافس والسعي للتفوق والتبريز لأنها تؤدي الى التباين والتمايز وتضعف الوحدة الجامعة وتوهن نمط الانسجام الجامد العام القائم على التشابه التام، الذي يسميه «دوركهايم» - عالم الاجتماع الفرنسي - بالتشابه الميكانيكي . لعل من احسن الامثلة على هذا هو ما يجري في مجتمع الـ (هوپي **Hopi**) الذي يحارب محاربة صارمة كل ضروب الاعتدائية وكل سعي نحو النفوذ والتفوق ، حيث يعتبر الشخص المبدع الخارج على التشابه المطلق العام في سلوكه انساناً شاذاً يواجه بالسخرية والازدراء والكلام اللاذع والاستهجان . إن الفرد في هذا المجتمع لا يجد لذاذة ولا تشجيعاً اجتماعياً على الانجاز والابداع الفردي ، ومن هنا فان كل همه هو تحقيق التوقعات الاجتماعية التي قوامها الانصياع التام المطلق للنمط الاجتماعي العام الجامد المتوارث من السلوك والشخصية (٣٧) .

---

(36) - Kingsley Davis, Human Society (New York : The Macmillan Co., 1953), p. 77.

(37) - L. Thompson and A. Joseph, The Hopi Way (Chicago: The University of Chicago Press, 1947) .

ان الخروج على ما هو تقليدي متعارف من السلوك والمظاهر المرعية في بعض المجتمعات البدائية يؤدي الى السخرية اللاذعة والى الازدراء والى اثارة ضغوط اجتماعية ، وقد يعالج هذا الخروج احياناً ، كما يعالج الخروج على الآداب العامة المقدسة ، بأساليب قاسية هي العن من السخرية والازدراء . إن هذا يصدق حتى على الخروج على اللباس المتعارف التقليدي أو اساليب التزيين والتجميل او أي اسلوب تقليدي آخر من اساليب السلوك ، في الاعم الاغلب .

ان من المعروف إن الطوائف الاجتماعية في الهند لا تتميز بضروب معينة من اللغة او باللهجات وحسب ، بل انها تتميز حتى في الاشكال الجامدة للملابس والعادات السلوكية . إن الحيود عن هذه الانماط الجامدة يواجه عادة بالاستهجان الرادع من قبل كل اعضاء هذه الطوائف وبعقوبات صارمة جداً . إن هذه الطوائف تعتبر الاساليب القديمة في كل شيء هي الاساليب الصحيحة المقدسة . ولهذا وجدنا « روس Ross » يقول : « ان الطائفة الاجتماعية تكفكف وتمنع الاستهلاك التنافسي » بين الناس (٣٨) .

يحدثنا البحاثة « هيرن Hearn » عن القوانين التي كانت متعارفة في اليابان قبل نهضتها الأخيرة والتي كانت تحدد وجوه الصرف ومقداره في الطبقات والجماعات المختلفة حيث يقول : « ان كل طبقة في المجتمع الياباني كانت تخضع لحدود وتنظيمات في الصرف » ان طبيعة هـذه الحدود يمكن ان توضح بتلك التنظيمات والترتيبات الخاصة بالفلاحين ، اذ كانت كل تفاصيل حياة الفلاح ووجوده محددة موصوفة بالقانون ـ من قبيل حجم وشكل وتكاليف مسكنه مثلاً ، حتى الاشياء التافهة من قبيل عدد ونوعية (الاكلات) التي يتناولها في كل وجبة طعام . فالفلاح الذي

(38) - See Young , Social Psychology , p . 553 .

تقدر ملكيته بـ (٢٠ كوكو) من الرز لا يجوز له ان يبني داراً طوله اكثر من (٣٦) قدماً ، أو ان يستعمل في بنائه مواداً قيمة من قبيل الخشب المسمى (كياكى) او (كنوكى) . اما سقف البيت فيجب ان يصنع من اغصان (البامبو) ، وكان يمنع منعاً باتاً من الاستمتاع بالحصران يغطي بها الارض . وفي مناسبة زواج ابنته يمنع منعاً باتاً من احضار السمك او اي طعام مشوي لضيوفه في حفلة الزواج . اما الاناث من عائلته فلا يسمح لهن مطلقاً بلبس الاحذية الجلدية ، اذ هن مخولات بلبس الاحذية المصنوعة من سيقان الحنطة والحبوب الاخرى أو من الاغصان أو من الخشب ، أما أشرطة الحذاء (وقياطينه) فيجب أن تكون مصنوعة من القطن لا من الجلد . زد على ذلك ، ان النساء ممنوعات منعاً باتاً من استعمال روابط شعر مصنوعة من الحرير ، أو أي حلي أو مواد زينة مصنوعة من درع السلحفاة ، ولكنهن يستطعن أن يستعمان أمشاطاً خشبية ، وأمشاطاً مصنوعة من العظام ـ على أن لا تكون من العاج . أما الرجال فممنوعون من لبس الجواريب ، ويجب ان تكون احذيتهم من (البامبو) ، زد على ذلك انهم ممنوعون منعاً باتاً من استعمال المظلات او حتى (الشمسيات) المصنوعة من الورق . ولقد وجدت ان في (ايزومو Isumo) ، قبل العهد (الميجي Meiji) ، كانت تستعمل قوانين صرف لا تعين المواد التي تصنع منها الملابس التي تلبس من قبل مختلف الطبقات وحسب ، ولكنها كانت تحدد حتى ألوانها وتفصيلها واشكالها وانماطها ، ولقد كان حجم الغرف وحجم الدور محدداً بالقانون ـ كما ان ارتفاع الابنية والعمارات والاسيجة وعدد النوافذ ، ومادة البناء ، كلها محددة معينة بالقانون (٣٩) .

(39) ـ L . Hearn , Japan , An Attempt at Interpretation (New York : The Macmillan Co . , 1904) , pp . 182 — 183 .

اما في أوروبا، حتى في العصر الحديث ، فلا تزال الطبقات الاجتماعية المختلفة تتميز بملابس خاصة ، وبلهجات خاصة ، وبعادات خاصة ، ولا تزال الألبسة القديمة التقليدية هي الشائعة ، في الاعم الاغلب ، بين الفلاحين في المناطق المنعزلة . والواقع ، ان هناك جنوحاً للمحافظة والجمود في المجتمعات التي تكون فيها الفواصل الطبقية حادة ، جامدة ، صارمة ، في حين ان المجتمعات الدمقراطية تتميز بالمرونة وبالحرية من هذه الناحية وذلك من خلال التغيرات في المودات . ففي (انكلترا) ، مثلاً ، لا يشعر التاجر بارتياح اذا لم يكن مرتدياً البدلة الخاصة بوجبة الغداء ، في حين ان مثيله في امريكا لا يعير هذا الامر كبير اهتمام . هذا ولعل أثر العرف القديم في الملابس يكون على اوضـــح ما يكون في سلوك العائلة الملكية في (انكلترا) ، إذ ان البلاط الانكليزي لا يزال آخذاً بأشكال الملابس المتأصلة في هذه الفئة منذ زمن طويل ، حيث اننا نلحظ بوضوح لزوم الظهور بملابس وتزيينات خاصة ، تعود الى قرون ماضية ، في بعض الملابسات الرسمية . فالملك الانكليزي يجب ان يرتدي الزي (السكوجي) عند زيارته لاسكوتلانده ، مثلاً (٤٠) ،

وعلى كل حال ، فان علماء الاجتماع ، عندما يريدون اظهار التعارض في المقارنة بين المجتمع الحضري الحديث وبين المجتمع البدائي او الريفي القديم - جرياً على وفق القول المأثور : وبضدها تتميز الاشياء - ، يقولون مؤكدين ان المجتمع البدائي هو مجتمع تقاليد في حين ان المجتمع الحضري هو مجتمع مودات . إن في ذلك تأكيداً على جمود وعـــدم تغير الاول نسبياً ، وعلى سرعة تغير الثاني باستمرار .

والواقع ، ان النظرة الى الجديد او ما هو مستحدث تختلف في

(40) - Young , Social Psychology , pp. 553 — 554 .

المجتمعات البدائية والمجتمعات القديمة عما هي عليه في المجتمع الصناعي الحديث . يحدثنا علماء الانثروبولوجي ان بعض سكان (التبت) من الشعوب البدائية يسدون كل الطرق المؤدية اليهم بالاشواك والحسك وما شاكل مما يعرقل تأدي الغريب اليهم . كما ان هؤلاء الانثروبولوجيين يحدثوننا عن شعوب بدائية اخرى لا ترى في الغريب غير الشر والسوء فهو أما ان يكون وافداً عليهم ليأخذ ثأراً ، او ينهب امرأة ، او يسرق شيئاً . فان لم يكن ذا ضرر من هذه الانواع ، فانه ـ بصفته وافداً من مجتمع يختلف عن مجتمعهم ومن حضارة تختلف عن حضارتهم ـ قد ينتقد اوضاعهم وتقاليدهم ويسفه اراءهم ، ويشكك في عقائدهم ، ويجرح انماطهم السلوكية المختلفة ، وفي ذلك كله ما يعرض الحضارة الى التمزق وما يعرض المجتمع الى التفكك وانهيار الوحدة فيه ، وشيوع التضارب والتعارض بين اجزائه المختلفة . ولذلك كانت هذه المجتمعات ترسل كبيراً من كبرائها ـ اذا هي توسمت غريباً قادماً عليها من بعيد ـ ليلقى هذا الغريب قبل ان يفد على القوم ، فيتبين وجه مجيئه وعلاقته بالمجتمع . فاذا هو وجد ان هذا الغريب لا يمت الى المجتمع بصلة ، اجهز عليه فقتله تخلصاً من شره .

والواقع ، ان الغريب مصدر افكار ومعلومات وانماط وشعائر وعقائد وتقاليد واذواق جديدة ، ترى فيها بعض هذه المجتمعات البدائية ما يحفز ولعها واهتمامها بالغريب ، ولكن هذا الاهتمام وهذه الرعاية والعناية ليست هي القاعدة العامة بين كل الشعوب البدائية ، ولعلها الشذوذ في هذه القاعدة حتى في العصر الحديث .

اما المجتمع الحديث الذي اصبحت تطغى الفردية فيه ، ويشتد فيه النزوع الى التفوق والتميز فان النظرة الى الجديد والى ما هو غريب ، مثير

من الافكار والملابس والتزيين والتجميل والعادات والاساليب السلوكية والمخترعات وما شاكل ، هي نظرة تنطوي على الترحيب والاقبال والتقدير والاستمتاع والايجابية الى حد كبير . هذا ولعل هذه النظرة بالذات هي احـــدى مشتقات وآثار العيش في عالم مرن ، متغير ، تحتك احتكاكاً حضارياً واجتماعياً على نطاق عالمي فسيح من شأنه ان يهدم الحدود المحلية والسدود التقليدية ، انه ولا شك من آثار الحياة في تنظيم اجتماعي جديد (ديناميكي) يختلف كل الاختلاف عن التنظيم الاجتماعي الجامـــد الثابت الذي عاشت البشرية فيه آماداً طويلة قبل الثورة الصناعية ، ولا تزال بعض المجتمعات تعيش في اطاره حتى يومنا هذا . وعليه ، فان مواجهة التغير بهذه الروح الايجابية اصبحت جزءاً من الطرائق الشعبية في المجتمع العصري الحديث . إن هذا يعني ، فيما يعني ، ان هذه النظرة الى المودات في المجتمع العصري الحديث اصبحت جزءا ينسجم مع حياتنا اليومية ووجودنا العام في العصر الحديث .

٥ ـ مصممو المودات ومنشئوها القديرون منهم والبارزون الذين يدرسون اتجاهات الاذواق ، وكل ما يتصل بالمودة من حوافز وعوامل وملابسات ، بحيث تجيء المودة الجديدة التي يصممونها تعبيراً عن الاتجاهات النفسية ـ الاجتماعية عند الناس ، ومن ثم يكون حليفها النجاح والذيوع والانتشار الكبير الموفق .

ان من الملاحظ تجمع ممثلي صناعة المودة من كل الاقطار المهمة في العالم وخـاصة من الولايات المتحدة الامريكية في (باريس) في مواسم عرض الازياء الجديدة . ان بعض النساء يحضرن هذه المواسم لأغراض تجارية وبعضهن يحضرنها للاطلاع والتسلية والانعاش ، وبعضهن يحضرنها لشراء هذه الازياء الجديدة حيث يصبحن قياديات في هذه المودات الجديدة بعد

عودتهن الى مواطنهن الاصلية (٤١) .

٦ ـ تحرر المرأة نفسياً واقتصادياً في المجتمع الحديث ، وانفساح المجال أمامها الى أبعد الحدود لأن تخبر ميدان الملابس والتجميل .

٧ ـ ان مما يستحق الذكر في هذه المناسبة ان (باريس) كانت تنفرد وحدها في مطلع هذا القرن بكونها (مركز سيطرة) في ميدان المودة . اما الآن فقد تعددت مراكز السيطرة في هذا الميدان حيث أصبحت (روما) و (ونيويورك) و (طوكيو) و (لندن) تنافسها في هذا الميدان . ان هذا يعني فيما يعني ، تكاثر وتنوع وتنافس هذه المراكز ونشاطاتها في خلق وتغيير المودات .

بقي هنا سؤال أعتقد ان الاجابة عليه مهمة في هذا الصدد ، ألا وهو كيف يبتكر الطراز الجديد او المودة الجديدة ؟ وهو جانب من الموضوع لم يتطرق اليه الباحثون ولا يزال بحاجة الى اجراء دراسات علمية دقيقة ميدانية فيه للتعرف على طبيعته وعلى العوامل والملابسات التي تتحكم بهذا العمل الابتكاري ، ولكشف مراحله المختلفة وما يطرأ عليه من تغيرات أثناء مسلكه منذ البداية حتى النهاية .

ان ما يصدق على مبتكري المودات والازياء يصدق بالطبع من حيث الجوهر والاساس على كل فعالية ابتكارية أخرى وان اختلفت بعض التفاصيل غير المهمة .

ان ما أود ان اسجله هنا ليكون مرشداً لمن يشاء دراسة هذا الجانب من الموضوع هو ماحدثني بـــه شخصياً الاستاذ « بلومر » استاذ علم النفس الاجتماعي في جامعة (شيكاغو) سابقاً ، ورئيس قسم الاجتماع في جامعة

(41) - Reinhard Bendix and Seymour Martin , Class , Status and Power (Glencoe : The Free Press , 1960) , p . 327 .

(كاليفورنيا) في (بركلي) حالياً ، اذ كان قد أوفد من قبل جامعة (شيكاغو) لدراسة هذا الموضوع عن كثب في (باريس) والاتصال بمصمي الازياء ومبتكريها للحصول على المعلومات الاساسية في الموضوع . قال « بلومر » ما خلاصته ، في هذا الموضوع : ان عملية الابتكار هذه عملية معقدة يركبها الغموض والابهام ، وان هؤلاء المنهمكين في عملية الابتكار هذه أناس فنيون من حيث الحس والمشاعر بحيث تستحيل الوضعيات والاشياء والمنبهات ، في عملية معقدة ، الى زي جديد او تصميم جديد . ان معنى هذا ، على وجه الدقة والضبط ان المصمم او المبتكر قد يسمع أغنية معينة او قطعة موسيقية لبيتهوفن مثلاً او يرى زهرة او روضاً أنيقاً او يسمع تغريدة بلبل او خرير ماء في الساقية فيتأثر به تأثراً عميقاً ويهتز له ، فاذا ذلك الاثر يستحيل في ذهنه الى (موديل) جديد ، تجرى عليه بعض التعديلات والتنقيحات البسيطة فيما بعد . بعد ان توضع ، وتتعين خطوطه الرئيسة بهذه الطريقة .

الفصل الرابع

المودة والبنية الاجتماعية

المودة والبنية الاجتماعية

أ ـ المودة والنفوذ :

إن الدلائل الواقعية كثيرة على ان النفوذ يلعب دوراً فعالاً في أحداث مودات جديدة في ميادين مختلفة من السلوك البشري ، ذلك ان المتنفذين لا يعدمون مقلدين يتشبهون بهم او يحذون حذوهم . فعندما ظهرت زوجة « چارلس السادس » وهي ترتدي لباس رأس فيه قرنان صار النساء يتسابقن في ارتداء لباس رأس من هذا المنوع ، ورحن يتنافسن في طول القرون وفي جمالها . كما ان التأريخ يحدثنا ان الملك « فرانسس الاول » قد اضطر ان يجعل شعره قصيراً على أثر حادثة حدثت له مما جعل الشعر القصير مودة الرجال في فرنسا حينذاك . كما ان بنات « لويس الحادي عشر » كن يرتدين فساتين طويلة ليخفين بها أقدامهن وسيقانهن الشوهاوات مما أشاع هذه المودة بين نساء فرنسا وان لم يكن مشوهات

الاقدام والسيقان . كما ان الملكة « إليزابث » كانت فساتينها تتميز بعنق طويل لأن عنقها كان طويلاً نحيفاً قبيحاً وكان هـذا النوع من الفساتين يخفي هذه السمات ، لقد أصبح هـذا النوع من الفساتين مودة العصر بين نساء الطبقة الارستقراطية خاصة . ويحدثنا التأريخ الانكليزي ان حيواناً يشبه السنجاب قد فتك بالمزروعات في زمن الملكة « اليزابث » التي ظهرت في احدى حفلات القصر وهي ترتدي فراء ذلك الحيوان حيث قلدتها كل نساء الطبقة الارستقراطية في انكلترا على أثر ذلك مما أدى الى التنافس في اصطياد ذلك الحيوان حتى أدى ذلك الى القضاء عليه وتخليص المزارعين من أضراره . ولقد كان « هنري الثامن » ـ أحد ملوك انكلترا ـ بديناً ولذا فقد لجأت حاشيته الى تحشية ملابسهم ليظهروا بمظهر البدانة ايضاً . وكان « أدوارد السابع » بطيناً بحيث كان لا يرتاح الا بترك ازرار ملابسه عند المحزم مفتوحة مما أشاع هذا الاسلوب بين الناس على شكل مودة في زمنه .

ان العوائل المالكة على مـا يظهر ذات أثر بالغ في احداث ونشر بعض المودات . ان مما يجب ان يشار اليه في هذا الصدد هو ان النجوم السينمائية التي تتميز بالنفوذ هي مصدر من مصادر المودة أيضاً . يحدثنا المطلعون بأن « Clark Gable » قد كشف عن صدره في الفلم المعنون (لقد حدث ليلة ما It Happened One Night) ولم يكن مرتدياً فانيلة تحت قميصه ، مما أدى الى هبوط ملحوظ في الاقبال على شراء الفانيلات ، الى درجة ان أصحاب مصانع الفانيلات طلبوا من منتجي الفلم حذف هذا المشهد من الفلم . وعلى كل حال فان الملاحظ ان ما تظهر به الممثلة اليوم ترتديه بعد فترة موجزة الملايين من المعلمات والموظفات والبائعات

في المخازن وغيرهن . والواقع ان « هوليوود Hollywood » لا تتحكم في مودة الملابس وحسب بل انها مصدر تغيير في مودات شعر الرأس ، ومودات تأثيث البيوت ، بل وحتى في أساليب التعبير والسلوك وتزجيج الحواجب واساليب الاغراء والدلال ، والمكر ، والتغنج ، وما شاكل .

ب ـ المودة والبنية الاجتماعية :

ان المودة عملية تتركز حول انتشار وشيوع تغيرات في الذوق . ومن هنا كان طراز الملابس الرائج في يوم ما يصبح مستهجناً او طرازاً عتيقاً في يوم آخر ، والسيارة التي يكون طرازها رائجاً في سنة ما ينظر اليها نظرة فيها شيء من النشاز في سنة أخرى . ان من الملاحظ في هذا الصدد ان المعارضة الاولية لتغيير المودة مهما نمت فان ذوق هؤلاء المعارضين لابد وان يتغير عادة عند شيوع طراز المودة الجديدة .

ان المودة لا تشبه الافتتان ، الذي هو بدوره يدور حول الذوق ، من حيث أنها عملية مستمرة متصلة ، ذلك ان كل طراز عادة يتبع الطراز الـــذي قبله ويحل محله مع جريان تغييرات متصلة مستمرة في الطراز ذاته ، فالسيارات قد تصبح أوطأواطول سنة بعد سنة مثلاً ، وطول الملابس قد يزداد قليلا كل سنة .

والواقع ، ان جمهور الكتاب في هذا الموضوع يجمعون على ان الاطرزة الجديدة تبدأ عادة بين المستويات العليا من هرم المنزلة الاجتماعية حيث يبدأ الاشخاص الآخرون الذين يلونهم في هذا الهرم يقلدونهم ، ومن ثم يشيع وينتشر الطراز بين الجماعات التي هي دون جماعات المنزلة العليا في الهرم الاجتماعي . ان المكافأة التي ترتبط بالتبني المبكر للطراز الجديد

من قبل الطبقة في حينه هي الشعور بالنفوذ الذي يرافق عادة حيازة رمز من رموز المنزلة العالية . اما عقوبة التبني للطراز الجديد تبنيا مبكراً جداً ، قبل الاوان ، فهي الحكم على الشخص بأنه يحاول ان يسلك سلوكا هو أعلى من مستواه ومن منزلته في الحياة . يتبين من هذا ان المودة المتغيرة بسرعة تعتمد على مجتمع يكون فيه التسلق الى أعلى الهرم الاجتماعي ، والنقلة العامودية الصاعدة ، والسعي للحصول على النفوذ من الامور القيمة المرغوب فيها . وعليه فان التتابع السريع في الاطرزة والمودات يصبح أمرا ضروريا عندما تكون الطبقات الاجتماعية العليا في المجتمع غير قادرة على احتكار رموز المنزلة العالية لها وحدها من دون الطبقات الاجتماعية الاخرى .

هذا ولعل من المهم ان يشار في هذا الصدد الى الحقيقة التي فحواها ان المودة تجنح عادة لتدعيم فروق المنزلة الراهنة في المجتمع ومميزاتها ، بينما قد تنمي وتكون الافتتانات نفوذاً هو على خلاف الميزان العرفي في المجتمع . يضاف الى ذلك ان الذين يصممون مسلك الافتتان قد يأتون عادة من أية طبقة اجتماعية في المجتمع ، وقد يتبنى الافتتان من قبل الناس في الطبقات الدنيا من المجتمع اسرع مما تتبناه الطبقات العليا فيه.

ان النفوذ الذي تنتجه أسبقية تبني الافتتان ، وشدة الفعالية التي ينطوي عليها السلوك الافتتاني قد يكون نفوذا تعويضيا ، بازاء النفوذ التقليدي الراسخ في المجتمع . وعليه فان المودة هي ذات أثر محافظ (Conservatizing) فيما يتعلق بالبنية الاجتماعية (Social structure) في حين أن الافتتانات قد تحفز على التغيير في هذه البنية وتنميه .

يدعي بعض الكتاب ان من يتحكم في المودة هم قادة الصناعة التي

تدور حولها المودة ، ويرى هؤلاء الكتاب ان هذه الصناعات توجه انتاجها لاشباع الحاجات المصطنعة التي يستمر بقاؤها ، والحفاظ عليها ، بهجران ونبذ البضائع نبذاً منظماً على اساس تغير الطراز ، وان كانت البضاعة لا تزال صالحة للاستعمال غير بالية . ومن هنا يرى هؤلاء الكتاب ان هناك تخطيطاً للمودة ، وتعجيلا مصمماً مقصوداً لتغير الطراز .

ان ما يجري في الواقع هو ان مصممي الطراز يعرضون أطرزة متعددة للناس ويجري انتقاء الطراز عادة بمساعدة قادة الطراز (Style leaders) وهم عادة أشخاص ذوو نفوذ ، ولهم أتباع في هذا الميدان ، وهم أناس تلاحظ منتقياتهم ومنتجاتهم من بين الطرازات المتيسرة ملاحظة دقيقة من قبل الجهات المختلفة من أتباع الطراز (Style followers) . ان من المعروف ان مصممي الطراز يعرضون ، في الاعم الاغلب ، لبعض الجماعات المنتخبة من قادة المودة ، ما ينتجون من طراز ، وذلك للتعرف على ردود فعل هذه الجماعات نحو الطراز الجديد . ان هذا يبين لنا كيف ان التلقائية تفعل مفعولها ضمن قنوات وحدود نظام المنزلة الراسخ في المجتمع او الراهن فيه (١) .

هذا ولعل هذه الحقيقة تلقي ضوءاً ساطعاً على صواب رأي « هربرت سبنسر » عالم الاجتماع الانكليزي المعروف ، الذي أكد على ان المودة ما هي الا أداة او وسيلة للحفاظ على التقاليد ، وعلى التمييزات المتواضع عليها بين الطبقات الاجتماعية .

يحدثنا مؤرخو الامة الفرنسية قبيل الثورة الفرنسية ، يوم كانت الطبقية الاجتماعية يدعمها القانون متناولاً كل تفاصيلها ، ان الطبقات

---

(1) - See Turner and Killian , Collective Behavior , pp. 216 – 17 .

المختلفة في المجتمع كانت تتزيا بأزياء مختلفة تدل على انتمائهم الطبقي بحيث يحرم على الطبقات الاخرى الظهور بزي معين لطبقة خاصة معينة في ملابسة معينة. ومن ذلك ، ان المجلس التمثيلي الفرنسي قبل الثورة كان أعضاؤه يتزيون بأزياء تختلف كل الاختلاف في طرازها وألوانها حسب طبقة هؤلاء الممثلين الذين كانوا ينتظمون على الترتيب التالي: النبالة او طبقة النبلاء ، وطبقة رجال الدين ، وممثلوا الشعب (Tiers Etats) . وعندما كان النظام الطبقي في فرنسا يدعمه القانون ، قبيل الثورة الفرنسية ، كان اللباس لكل مكانة اجتماعية يحدده ويعينه القانون . وعلى هذا الاساس ، كان الحرير ، وهو دليل اناقة وترف ، لا تلبسه الا الاميرات والدوقات ، وكان يسمح للسيدات في الطبقات العليا باستعمال الفرو وبعض الاقمشة الناعمة الأخرى .

ولقد كان الحاكم او الامير في الصين قديما يتميز بردائه الطويل الذي يبلغ القدمين وبأظافره الطويلة ، وكلاهما يدلان دلالة ظاهرية مرئية على مكانته ومنزلته .

اما في أمريكا حيث تكون الطبقة الاجتماعية مفتوحة غير مغلقة ، مرنة غير متحجرة الى حد كبير ، وهو ما يطلق عليه عادة في عرف علماء الاجتماع اسم النظام الطبقي المفتوح (Open class system) ، فان عوامل واعتبارات أخرى تلعب دورها في الدلالة على منزلة الشخص ومكانته وطبقته الاجتماعية . ان من هذه الدلائل هي المهنة ، حيث تعين المهنة ، الى حد كبير ، كثيراً من الامور في حياة الشخص وفي علاقاته الاجتماعية ومستواه المعاشي ومحل سكناه ونوع الدار التي يسكنها والاندية التي يرتادها والمدارس التي يرسل اليها أولاده وما شاكل . ومن هذه الدلائل الدخل او المورد ، وهو بالطبع يرتبط ارتباطا وثيقا بالمهنة الى حد كبير . ومن هذه الدلائل الثروة . ولذلك رأينا المنطق الدارج في الولايات المتحدة

الامريكية يأخذ بالمعادلات التالية الى حد كبير (٢) :

١ ـ الاسراف والبذخ والترف تعني ، او تدل على ، الثروة او الدخل .

٢ ـ الثروة او الدخل تعني ، او تدل على ، او تساوي المكانة المهنية .

٣ ـ المكانة المهنيه تدل على الموضع الطبقي للشخص وعليه ، فان الاسراف والبذخ والترف دليل على ، او مظهر من مظاهر ، الطبقية الاجتماعية ، حتى ولو كانت هذه المقولة لا تنطبق على مسرف ما بعينه ، إذ ان الاسراف بحد ذاته ينطوي على هذه الدلالة الرمزية ، وله هذه الوظيفة او هذا المعنى في نظر المجتمع الامريكي .

يتبين من هـذا كله ، ان نوع البيت الذي يسكنه الشخص ، ونوع السيارة التى يستخدمها ، والكلية او المدرسـة التى يرسل اليها أولاده ، والجمعيات التى ينتمي اليها ، والنوادي التى يرتادها ، وما شاكل هي دلائل ورموز لموضعه الطبقي ، ومنزلته الاجتماعية .

امـا النساء فهن بصورة عـامة يكتسبن منزلتهن ووضعهن الطبقي عن طريق الرجال ، فغير المتزوجات منهن يكتسبن موضعهن الطبقي عن آبائهن امـا المتزوجات فيكتسبن ذلك عن طريق ازواجهن . وعليـه ، فان المعنى

---

(٢) لقد وجد البحاثة « لويد دارنر » في دراسته الطبقية الاجتماعية في مدينة « يانكي » من الولايات المتحدة الامريكية ان الطبقة العليا فيها تؤكد على ما يمكن ان نسميه بالنسب العريق ، من حيث هو من دلائل المنزلة الاجتماعية الرفيعة في هـذه الطبقة ، وهـو عامل تؤكد عليه (العوائل المثرية ذات النسب العريق) عادة في تلك البلاد ، حيث يتمجدون بنسبهم الـذي يمتـد الى سبعة او ثمانية أجيال ، ويعتزون به ، ويتحدثون عنه ، ويشغل من نشاطهم وذكرياتهم وتباهيهم الشيء الكثير .

الرمزي لترف المرأة وبذخها واسرافها يتجلى في تأثيثها للبيت ، وفي الملابس التى ترتديها ، والحلي التى تتزين بها ، وضروب الانعاش والتسلي التى تزاولها وما شاكل من وجوه حياتها ونشاطها .

يتبين مما مر دور الملابس وأساليب التسلية والانعاش ورموز النفوذ الاخرى في الدلالة على المركز الطبقي للمرأة وعائلتها التى تنتمي اليها عن طريق الاب او الزوج .

لقد أكد « ڤبلن Veblen » في كتابه الفريد في موضوعه على تأثير الطبقات العليا في معايير ومستويات المودة (Standards of fashion) ان من وجوه هذه الآثار ومعالمها التى هي من دلائل التميز الطبقي ما يلي :

١ ـ البذخ في الاستهلاك (Conspicuous consumption) .

٢ ـ الفراغ المبطر (Conspicuous liesure) .

وهذه تلازم الطبقات العليا في المجتمعات الرأسمالية المعاصرة بصورة خاصة . وعلى هذا الاساس ، فان الدور الذي تلعبه الطبقات العليا في تركيز وتأصيل هـذا الاسلوب ـ أعني اسلوب تغيير المودات باستمرار ـ وجعله اسلوباً شعبياً (Folkway) هـو دور واضح لا يتدسس اليه الشك من قريب او بعيد . يتبين من هذا ايضاً ان الضبط الاجتماعي الذي تمارسه هذه الطبقات عن طريق المودة بالاضافة الى زعامة هـذه الطبقات في الميادين الاخرى ، هي امور تجري كلها معاً وترتبط ارتباطاً وثيقاً ببعضها . ان من المسلم به ان الشهرة أمر أساسي جداً في تبني البدعة وفي نشر المودة . وعليه ، فان حملة النفوذ يتمتعون بمركز مرموق متميز من هذه الناحية في تقرير وجهة التغيرات في المودة والتحكم بها .

ان التقدم الصناعي الحديث ووفرة الانتاج يسرت للطبقات الدنيا التمتع بالكماليات باسعار وتكاليف زهيدة في أغلب الاحيان وذلك عن

طريق انتاج اشكال رخيصة من الكماليات الغالية المكلفة ، بحيث يمكن ترشحها وانسيابها الى اسفل الهرم الاجتماعي بسرعة وسهولة فتتمتع بها الطبقات المعوزة الفقيرة . وبسبب هذا ايضاً كثرت المخازن التجارية التي تقدم مثل هذه السلع والبضائع لمثل هذه الجماهير التي تطمح بالترف والكماليات وتذوقها ولو عن طريق الحلم والوهم والخيال . ان من المهم ان نشير هنا الى ان هذه المؤسسات التجارية تلعب دوراً كبيراً في نشر واشاعة المودة . والواقع ، ان ليس من السهل التمييز بين الاقراط والخواتم والقلائد وغيرها من وسائل الزينة المعمولة من أنفس المعادن وأغلى المجوهرات ، وبين تلك المصنوعة من مواد رخيصة جداً كالزجاج وغيره مما لا يسهل تمييزه عن أنفس المجوهرات واغلاها في الظاهر ، إذ ليس من السهل تمييز خاتم من الماس عن آخر من الزجاج . كما ان ليس من المعتاد ان يستوقف المرء فتاة لا يعرفها في الشارع ليسألها ان كان الخاتم الذي في يدها هو من زجاج او من ماس .

وعلى كل حال ، فأن الدلائل لا تعد ولا تحصى على ان حملة النفوذ يلعبون دور الناشر لحركة المودة . ان « يونگ » يعطينا عدة أمثلة حول هذه الحقيقة حيث شاعت مودات لباس الزعماء المشاهير والساسة العظام من بعض الاقطار الاوروبية على أثر زيارات هؤلاء للولايات المتحدة الامريكية ، ومنها شيوع طراز السترة التي كان يرتديها « أمير ويلز » « الملك أدوارد السابع من بعد » في امريكا على اثر زيارته لها ، سنة ١٨٦٠ وبقاء هذا الطراز مدة طويلة اللباس الرسمي فيها (٣) وعندما اكتشف قبر « توت عنخ آمون » في مصر ونشرت تصاوير محتوياته ، تأثرت المودات الامريكية ببعض معالم وسمات تلك الآثار .

---

(3) - Young , Social Psychology , p . 563 .

ان مما يجب ان يشار اليه هنا ، ان المعارض العالمية المختلفة تلعب دوراً كبيراً في التأثير على المودات عادة ، وخاصة في حقل الملابس والتزيين والتجميل والهندسة المعمارية (٤) وخلاصة القول ان هناك علاقة وثيقة بين البنية الاقتصادية في المجتمع وبين المودة .

اما علاقة الاعمال التجارية والاقتصادية بالمودة فلا ادل عليها مما تعرضه احصائيات الصرف في الولايات المتحدة الامريكية ، حيث يبين لنا البحاثة « چيز Chase » ان ما يصرفه سكان الولايات المتحدة الامريكية على الكماليات والترف يخمن بـ (٢٣) بليون دولار ، وهذا المبلغ هو ثلث القوة الشرائية في ذلك البلد يومذاك ، حيث كان ثلاثة ارباع المليون من الدولارات على العطور ومواد التجميل الاخرى ، و (٥) ملايين على الكماليات في الطعام ، و (٦٠٠) مليوناً من الدولارات على المشروبات الخفيفة و (الدوندرمة) وبليون دولار للحلويات ، وثلاثة بلايين دولار على التنفسح والسباقات وركوب الخيل وما شاكل مما يمارس للانعاش والتسلية (٥) . ان هذه هي احصائيات آخر الربع الاول من هذا القرن ، والصورة اليوم هي غير هذه على كل حال ، اذ هي اضعاف مضاعفة لهذه الاحصائيات .

وفي سنة ١٩٢٤ نشرت جريدة (عالم نيويورك New York World) بتاريخ ١٤ حزيران بحثاً لـ « أومالي O'Malley » سجل فيه بعض مشاهداته حول اسعار بعض البضائع في الشارع الخامس من مدينة (نيويورك) وهو احد الشوارع التجارية المشهورة في تلك المدينة الكبرى ، حيث اشار الى انه راى في احد المخازن ان سعر الزوج من الجواريب

---

(4) - Ibid . , p . 563 .

(5) - S. Chace, The Tragedy of Waste (New York : The Macmillan Co . , 1926).

النسوية المصنوعة من خيوط من الجلد كان (٥٠٠) دولاراً ، وسعر الجواريب المسائية المصنوعة من الحرير للنساء كان يتراوح بين (١٠ ـ ٢٥) دولاراً ، وسعر الفستان ذي القطعة الواحدة يتراوح بين (٢٥٠ ـ ٣٥٠) دولاراً . اما بدلات السهرة فهي تتراوح بين (٧٠٠ ـ ١٢٠٠) دولاراً ، وبعضها الـذي يتميز باناقته يبلغ ثمنه (٥٠٠٠) دولاراً . اما الفراء الروسي فقد كان ارخصه يبدأ بسعر (١٢٠٠٠) واغلاه يصل اكثر من عشرة اضعاف هذا المبلغ . أما الكماليات الأخرى التافهة من قبيل علبة السكاير فكان سعرها يتراوح بين (١٧٥ ـ ٣٥٠) دولاراً ، ونظارات من طراز معين (٥٠٠ ـ ١٠٠٠) دولاراً ، أما المجوهرات فتبدأ من (١٠٠٠) دولاراً حتى تبلغ ارقاماً خيالية . هذا وبامكان القاريء ان يمد هذه الصورة الى آلاف الاشياء في عالم المودة من دور ، وسيارات ، وادوات موسيقى ، وأثاث وما شاكل .

هذا ولما كانت المودة غير مستقرة ولا ثابتة ، كان التجـار من ذوي العلاقة بها واصحاب الصناعات وصانعوا الازياء والمودات على اختلافهـا معرضين الى مغامرات مالية كبرى حيث يصبح طراز ما مهجوراً بين عشية وضحاها ، وربما بمجرد ظهور طراز آخر يأخذ مكانه وشهرته وشيوعه . ومن هنا كان هؤلاء يصرفون مبالغ طائلة ومساعي كبيرة لمعرفة اتجاهات المودة في مختلف الميادين ليستطيعوا تجنب هذه الخسائر الفادحة الناتجة عن تغير المودة ، ولكنهم مع هذا لم ينجحوا في كثير من الميادين ومنها ميدان الملابس وميدان التزيين والتجميل وما يتصل بالتزويق والزركشة والصبغ وما شاكل . ومن هنا أيضاً ، وبسبب هذه الحقيقة ، وجدنـا اصحاب الصناعات يبذلون جهدهم في تعجيل الانتاج بكميات هائلة عندما تكون مودة ما متفشية بين السكان وذلك لاستغلال موجتها الى ابعـد

الحدود . إن من الطبيعي ايضاً ان يحاول اصحاب هذه الصناعات وذوو المصالح المرتبطة بها ان يثبتوا طرازاً ما ، او مودة ما ، او أن يطيلوا امد انتشارها وسيطرتها بين الناس . فقد حاول اصحاب صناعة دبابيس وامشاط الرأس مقاومة مودة تقصير الشعر لانها تقضي على هذه الصناعة بالذات من بين صناعات اخرى ، فلم يستطيعوا ايقاف التيار ، وكذلك صنع اصحاب مصانع (الكورسيه) والشدادات والاحزمة المختلفة . ان الامثلة كثيرة والشواهد متنوعة في مختلف الميادين على هذه المشكلات الصناعية ذات العلاقة بالمودة .

وأنا لا ادري لماذا يجمع الكتاب في هذا الميدان تقريباً ، وبهذا الاطلاق ، على ان المصالح الاقتصادية لا تستطيع ان تخلق مودة جديدة او تحول دون تغيرات المودة في حين اننا نرى ان هذا الامر لا يصدق الآن في ميادين متعددة منها السيارات والتلفزيونات والثلاجات وادوات الطباخة وما شاكل مما يتنافس الناس على اقتناء آخر طراز فيها عادة .

إن فريقا من الباحثين الذين تصدوا لتفسير البساطة في ملابس الرجال ، وعدم تعرضها الى سرعة التغير التي تتعرض لها ملابس النساء ، وتفسير التشابه الكبير نوعاً ما في البدلة الرجالية في المجتمع الواحد الى حد كبير . ولو في الخطوط العامة ، مع تباين منزلات الافراد ، يرون ان ذلك كله يمتد الى شعار المساواة الذي رفعته الثورة الفرنسية . فقد كانت ملابس الرجال براقة ، مزركشة ، فيها كثير من البهرجة ، قبل الثورة الفرنسية ، وكثير من التعقيد مما دعا البحاثة « فلوكل Flugel » الى تسمية هذا الاقلاع من قبل الرجال عن ذلك الطراز من الملابس بالاطراح او النبذ الرجالي الاعظم ، منذ الاجهاز على ارستقراطيات اوروبا . ومنذ ذلك الحين انتشرت في اوروبا بدلة الطبقة الوسطى التي

تتميز ببساطتها وبكونها عملية واقتصادية في نفس الوقت . لقد صحب هذا التبدل ورافقه تبدل في وجوه كثيرة من حياة الناس وقيمهم وفلسفاتهم في الحياة منذ ذلك العهد . إن من امثلة هذا التبدل ما طرأ على (مفهوم العمل) ، الذي كان غريباً على الطبقات الارستقراطية قبيل الثورة الفرنسية - تلك الطبقات التى كانت تحيا حياة ترف على مد التأريخ ، والتى كانت مواردها رتيبة مضمونة من الاراضي والعقارات والسندات المالية واستغلال الطبقات الاخرى . وهكذا حل مفهوم العمل كواجب ، وكواجب مقدس احياناً محل تلك النظرة المزرية بالعمل (٦) . وهكذا تغير التقييم وتغيرت النظرة نحو الضروب المختلفة من المهن والعمل والنشاط منذ ذلك اليوم ، ونحو مزاوليها والقائمين بها .

ليس هذا وحسب ، بل ان التكلف في الملابس والاعتناء المفرط بها على غير المعتاد اصبح في نظر الناس دليلاً من دلائل الانوثة في الرجل والانحراف الجنسي فيه . وعلى كل حال ، فان البدلة الرجالية الجديدة البسيطة بعد الثورة الفرنسية كانت تتميز بالخشونة نسبياً عند مقارنتها بالبدلات الارستقراطية التى تقدمتها ، وبأنها أدل على الرجولة وروح العمل في الرجل .

هذا ويؤكد البحاثة « بركلر M . D . E . Bergler » على ان مبدأ المساواة وفكرة المنفعة لم يكونا وحدهما العاملين اللذين تحكما في توجيه ملابس الرجال هذه الوجهة بعد الثورة الفرنسية بل ان نزوع الناس للتخلص من كل اثار العهد المقبور المباد هو نزوع يجب ان يؤخذ بنظر الاعتبار في هذا الباب . هذا ولما كانت المبادرة لتغيير المظهر أيسر من تغيير المخبر

---

(6) - M . D . E . Bergler , Fashion and Unconscious (NewYork: Robert Brunner , 1953) , p . 241 .

لذا فقد انبرى الناس تواً لتغيير ملابسهم بعد الثورة الفرنسية ، وكان ذلك بالنسبة للطبقات الوسطى شعار انتصارها في المعترك ، فاجهزت على كل ما كان يميز (الاعـداء) (الارستقراطيين) من ألبسة ومظاهر (٧) ، حيث الغت الجمعية العامة ، التي انبثقت بعد الثورة الفرنسية التي رفعت شعار الاخوة والمساواة ، جميع القوانين التي لها علاقة بالملابس وبالتمييزات الطبقية الاخرى .

والواقع ، أن البنية الاجتماعية المرنة ، التي تحـدث فيها النقلة الاجتماعية (Social Mobility) بيسر وسهولة ، من شأنها ان تجعل ذيوع وانتشار المودات بين الطبقات الاجتماعية الاخرى من الهرم الاجتماعي سهلاً ميسوراً وسريعاً ايضاً ، فلقد كانت السيارة في المجتمع الامريكي مثلاً ، والبانيو وما شاكل من مميزات النفوذ في الطبقة العليا من المجتمع ، ولكنها سرعان ما انحدرت الى الطبقات الأدنى منها بحيث اصبحت في متناول اعضاء الطبقة الدنيا .

ولقد كان حتى اعاظم الملوك يأكلون بأيديهم . ويذكر لنا المؤرخون أن احد نبلاء البيزنطيين عندما ادخل الشوكة لأول مرة الى مدينة البندقية هاجت الجماهير في تلك المدينة محتجة على مثل هذا الاسراف في الترف . ولكن الناس اليوم ، ربما ثاروا اذا هم منعوا من تناول الطعام من دون استعمال الشوكة . ولقد تقزز الفلاحون في اوروبا قبل خمسين عاماً من استعمال المناديل على اعتبار انها من العادات الحضرية المستهجنة . غير ان الطبقات الدنيا تعلمت مؤخراً من الطبقات العليا استخدام الحمام البيتي ، والمراحيض الحديثة ، وفرش الاسنان ، وغيرها من الامور التي اصبحت اليوم من ضروريات الحياة .

---

(7) - Ibid . , p . 242 .

ليس هذا وحسب ، بل ان الكتابة نفسها كانت وقفاً على طبقة رجال الدين نوعا ما في ما مضى من عصور في تأريخ المجتمعات . ولكنها اليوم في متناول كل الطبقات . كما ان التربية المقصودة كانت من امتيازات الطبقات العليا الى عهد قريب ، ولكنها اليوم تكاد تكون عامة والزامية في كثير من المجتمعات . ان وسط النقل الجماهيري والكتلي الحديث (من قبيل المطبعة والراديو والتلفزيون والافلام السينمائية وما شاكل) قد يسر الاشتراك والاسهام الفعال من قبل كل الطبقات تقريباً في الفعاليات الحضارية التي يتناولها هذا الوسط .

ان فريقاً من الباحثين الذين يدافعون عن الطبقية الاجتماعية في المجتمع يرون ان لهذه الطبقية وظيفة انعاش وتغذية وتجديد في المجتمع واثراء لحضارته ، إذ ان الطبقة العليا تبتدع وتوجد وتنمي دائماً وابداً اساليب جديدة ، ومستويات جديدة ، وطرقاً جديدة في العيش والحياة ، ومظاهر جديدة ، واهدافاً ومبتغيات جديدة سرعان ما تتبناها الطبقات الاخرى مما يؤدي الى رفع مستويات المجتمع باستمرار ، ولولا هذه المبتكرات التي تقوم بها هذه الطبقة لبقي المجتمع ثابتاً ، جامداً ، متخلفاً في ميراثه الحضاري والمادي على السواء .

الفصل الخامس

حركات المودة

حركات المودة

أ ـ حركات المودة :

لقد سبق ان اشرت الى ان عبارة (مودة) تسوق التفكير عادة الى ما يتصل بالملابس ، غير ان من المهم أن ندرك هنا بأن المودة تغطي رقعة من الحياة البشرية هي اكثر من الملابس بكثير . فهي توجد في الاساليب السلوكية ، وفي الفنون ، وفي الادب ، وفي الفلسفة ، كما انها تتدسس الى بعض حقول ووجوه العلم والصناعة وطراز البناء وتأثيث البيوت ووسائل التجميل والتزيين والى الانتاج الصناعي والى الحضارة بوجوهها المختلفة في العصر الحديث بصورة خاصة . والواقع ، ان ظاهرة المودة قد تجري في اي ميدان من ميادين الحياة الجماعية (عدا الميدان التقني والمنفعي وميدان المقدس ـ اعني الدين) كما يرى « بلومر » وهو استثناء لا مبرر له ، على ما اعتقد ، ويدحضه ما ذهب اليه البحاثة

« أدوارد سابير » في بحثه عن المودة في دائرة المعارف الاجتماعية حيث أكد فيه على ان ظاهرة المودة لصيقة بقيم مهمة عند الانسان قد يطغى اعتبارها على قيم المنفعة والمعقولية وما اليهما (١) . هذا ويؤكد البحاثة « بلومر » على ان حدوث المودة وجريانها يستلزمان مجتمعا طبقياً ، في حين ان « سابير » في بحثه عن المودة بين ان هذه الظاهرة موجودة حتى في المجتمعات البدائية البطيئة التغير ، والتي ربما كانت ضمنا مجتمعات لا طبقية (٢) . ومع هذا فان مما يجب ان يؤكد عليه في هذا الصدد هو أن ظاهرة المودة أطغى على المجتمعات الطبقية التي تتغير تغيراً سريعا وأبين وأشد ظهوراً ، واسرع جريانا وحدوثا . وعلى كل حال ، فان هذه الظاهرة بسيطة وبطيئة لا تكاد تستبين في المجتمعات البدائية والجامدة ومن هنا جاءت وجاهة عبارة « بلومر » التي يؤكد فيها عدم حدوث هذه الظاهرة في المجتمع المتجانس (اللاطبقي) كالمجتمع البدائي ، أو في المجتمع المكون من طوائف اجتماعية (Cast society) . لقد فات « بلومر » ، هنا ، ان المجتمع الطائفي من هذا القبيل هو مجتمع طبقي ، لأن هـــذه الطائفة الاجتماعية هي وجه من ظاهرة الطبقية الاجتماعية . والواقع أن ندرة المودة في المجتمع الطائفي ترجع الى جمود هذا المجتمع ولا ترتبط بوجه الطبقية فيه ، وهو ما يرجح رأينا في هذا الصدد . زد على ذلك ان المجتمع المكون من طوائف اجتماعية تكون الطبقية الاجتماعية فيه جامدة إذ لا يستطيع الفرد أن يغير موضعه من الهرم الاجتماعي الطائفي ، لأن هذا الموضع يقرره الميلاد عادة ، لا غير .

---

(1) - See Edward Sapir , « Fashion » , E. S. S. VI (1931), pp. 139 — 144 .

(2) - Ibid ., pp. 139 — 144 .

وعليه فان فكرة « بلومر Blumer » تحتاج الى بعض التحوير لربط وضوح وسرعة جريان ظاهرة المودة بالمجتمع الطبقي الذي تكون الطبقية فيه مرنة غير جامدة .

الواقع ، ان المودة تسلك وتجري على انها حركة من الحركات الاجتماعية . ومن هنا فهي تختلف عن التقليد (Custom) الذي يكون (ثابتاً) عادة عند مقارنته بالمودة (المتغيرة) ، وهي مقارنة فصل الحديث فيها البحاثة « سابير Edward Sapir » وغيره ، وسأرجع الى استعراضها فيما بعد . إن هذا التباين بين المودة وبين التقاليد انما يرجع الى الحقيقة التي فحواها أن المودة تقوم من حيث الاساس على التميز ، والنزوع الى المنافسة والتبريز ، والميل الى التنويع والتفاضل . ففي المجتمع الطبقي ، لا تستطيع الطبقات العليا ـ أو النخبة الاجتماعية ، كما تدعى احياناً ـ عادة أن تميز نفسها برموز وشارات ثابتة . وعليه ، فان معالمهم الظاهرية ووجوه حياتهم الخارجية وسلوكهم تقلد ، في الاعم الاغلب ، من قبل الطبقات المحاذية لهم مباشرة والقريبة منهم في البعد الاجتماعي ، وهؤلاء بدورهم يقلدهم الذين هم تحتهم مباشرة في البنية الاجتماعية أو الهرم الاجتماعي . إن هذه العملية تجعل المودة عادة تترشح عامودياً ، نازلة في الهرم الاجتماعي . وعليه ، فان النخبة أو الطبقات الاجتماعية العليا سرعان ما تجد نفسها غير متميزة عما يليها من الطبقات وذلك من جراء التقليد الذي يقوم به اعضاء هذه الطبقات الدنيا ، ولذا فهي تنزع لأن تتبنى معايير مميزة جديدة ، لتتخلى عنها بسرعة حالما يقلدها اعضاء الطبقات الاخرى التي هي دونها في الهرم الاجتماعي . إن هذا الوجه هو الذي يجعل المودة حركة ، وهو الذي دعا أحد الكتاب لأن يلمح الى هذه الحقيقة ، قائلاً : ان المودة تدرج الى قبرها في اللحظة

التي تبدأ بها في الظهور .

ان المودة من حيث هي حركة ، ذات شبه قليل بأية حركة من الحركات الاجتماعية الاخرى . فهي إذ تحدث تلقائياً ، وتجري على اساس دورة خاصة متميزة لا تنطوي الا على قليل مما هو بسبيل من سلوك الجمهور ، كما أنها لا تتوقف ولا تعتمد على عملية المناقشة ، وما ينتج عنها من رأي عام . كما انها لا تعتمد على العوامل المحركة التي يشار اليها عادة عند معالجة الحركات الاجتماعية الخاصة ، حيث أن الذين يسهمون في المودة لا يحشرهم التهييج والاثارة لهذا الاسهام ولا يستجلبهم المسعى التبشيري المتعارف في اكتساب الاعضاء الجدد في الحركات الدينية والثورية عادة . كما ان حركات المودة لا تتميز بتكوين وتنمية روح الجماعة أو الروح المعنوية فيها . كما أن حركة المودة لا تتميز بأيديولوجي ولا تستلزمه . زد على ذلك ، ان حركة المودة ليست لها زعامة تعطي الحركة اتجاهها الواعي ، ولذا فهي لا تبلور ولا تكون مجموعة من الاساليب التعبوية . ان الناس يشتركون ويسهمون في حركة المودة بصورة اختيارية عادة ، استجابة لنوع الضبط القوي الممتع الذي تفرضه المودة عليهم .

ان حركة المودة ليست فريدة في هذه السمات التي اشرنا اليها وحسب ، وانما هي تختلف عن الحركات الاخرى في كونها لا تكون مجتمعاً ، أو تستحيل اليه . فهي لا تبني تنظيماً اجتماعياً ، وليس لها مضمون ، كما أنها لا تؤدي الى تكوين تقسيم عمل بين المشتركين فيها بحيث يتمتع كل منهم بمنزلة اجتماعية معينة ، كما أنها لا تبلور او تكون مجموعة من الرموز والخرافات والقيم والفلسفة ، ولا مجموعة من الممارسات ، ولذا فهي لا تكون حضارة ، بهذا المعنى ، واخيراً ، فهي لا تكون مجموعة من الولاءات ولا شعوراً بنحن (We - consciousness) .

ومع هذا كله ، فان حركة المودة هي شكل مهم من السلوك الجمعي ، وهي ذات نتائج مهمة جداً في النظام الاجتماعي . وعلى كل حال ، فان حركة المودة هي نوع خالص من الحركات الاجتماعية المعبرة . ومن ثم فهي لا تتسم بهدف يشعر به الناس ويهدفون الى الوصول اليه او بلوغه عن طريق الفعل الجمعي ، كما هي الحالة المعروفة في الحركات الاجتماعية الخاصة المعينة . كما أنها لا تمثل اطلاق الهياج والتنفيس عن التوتر المتولدين في وضعية الجمهور الراقص . ومع هذا ، فان حركة المودة معبرة عن بعض الحوافز والميول الاساسية ، من قبيل الميل للخبرة الجديدة ، مثلاً ، والرغبة في التميز ، والحافز للانصياع . كما أن المودة مهمة بصورة خاصة في كونها تهيء الوسائل والاسباب للتعبير عن الاذواق والخلائق النامية الجديدة ، إن هذا الوجه هو الذي يركز المودة على انها شكل من السلوك التعبيري .

ان الاشارة الاخيرة تهيء لنا مفتاحاً لفهم دور المودة ، والاسلوب الذي تسهم به في تكوين وصياغة نظام اجتماعي جديد ، ففي المجتمع المتغير ، وهو المجتمع المفترض بالضرورة سبقاً وسلفاً لجريان وحدوث المودة ، تكون الحياة الباطنية الذاتية للناس في تغير واضطراب وجيشان دائم ، إذ هم يعانون خلائق وميولاً واذواقاً جديدة ولكنها مبهمة وغير محددة أو معرفة تعريفاً واضحاً . إن من الواضح هنا ، ان المودة بأتاحتها وتهيئتها الفرصة للتعبير عن هذه الخلائق والميول والاذواق تؤدي الى جعلها محدودة ، واضحة ، معرفة ، وبالتالي الى تثبيتها واستحكامها . هذا ولأجل فهم هذه النقطة ، علينا ان نقدر الحقيقة التي فحواها أن حركة المودة ونجاح المودة يتوقفان ويعتمدان على تقبل اسلوب معين ونمط خاص من قبل الناس . إن هذا القبول ، بدوره ، لا يقوم على النفوذ المرتبط

بهذا الاسلوب وحسب ، ولكنه يقوم على امر آخر ايضا هو : فيما اذا كان هذا الاسلوب الجديد يحقق ويلبي الميول والاذواق النامية الجديدة عند الناس ام لا . ان الفشل الذريع الذي منيت به المساعي والمجهودات لجعل اساليب ما (Styles) مودة على اساس من النفوذ وحسب يزودنا بما يدعم هذه النقطة بالذات . وعليه يمكننا ان نعتبر المودة ، من وجهة النظر هذه ، على انها تظهر وتزدهر استجابة لمطاليب ذاتية جديدة . إن المودة ، في تهيئتها الوسائل للتعبير عن هذه الميول والاذواق ، تفعل مفعولها ، كما سبق ان ذكرنا ، في صياغة وبلورة هذه الاذواق . وعليه ، فان المودة تساعد ، في المدى الطويل ، وبهذه الطريقة ، لأن تكون روح العصر او حياة باطنية ذاتية مشتركة ، وهي بفعلها هذا تساعد على وضع الاساس لنظام اجتماعي جديد (٣) .

لقد درج اغلب الكتاب في موضوع الحركات الاجتماعية على معالجة الحركات الاجتماعية المعينة او الخاصة ، والحركة الدينية ، وحركات المودة كلاً على انفراد على اساس انفصال هذه الحركات عن بعضها البعض . غير ان هذه الحركات يمكن ان تندمج ببعضها بعضا بدرجات متفاوتة ؛ فالحركة الثورية ، مثلاً ، تتسم بعدد من معالم وسمات الحركة الدينية ، ويتوقف نجاحها الى حد ما على صيرورة الحركة مودة بين الناس (٤) .

---

(3) - Blumer, « Collective Behavior », in A. M. Lee (ed.) New Outline of the Principles of Sociology (New York : Barnes and Noble, Inc., 1947), pp. 216 — 218.

(4) - Ibid., p. 219.

ب ـ آثار المودة ومهامها :

ان من الملاحظ ان المودة هي في تغير دائم مستمر وان هذا التغير يحفزه ويهيمن عليه في المجتمعات الحديثة رجال الاعمال والنساء اللائي يمتهن استغلال زهو وخيلاء المستهلكين من الناس في هـذا الميدان . ان هؤلاء المستغلين من ذوي المصالح المركزة في ظاهرة المودة ماهرون في خلق المودة ، وفي حفز الناس على الأقبال عليها ، وتبنيها . ان الماهرين في هذا الفن من الامريكيين قد أصبحوا قادرين على ان يعمموا مودة جديدة بين الطبقة العليا من المجتمع الامريكي كل أربعة أشهر .

ان مما يجب ان يشار اليه بهذا الصدد هو أن تغير المودات تغيراً مفاجئاً سريعاً ـ كما هي الحالة في أغلب المودات ـ قديؤدي ببعض الصناعات في بعض الاحيان ان تواجه مشاكل مالية وصعوبات من جراء تحول المودة الى وجهـة اخرى . ان هـذا التحول السريع المفاجيء هو في الواقع مصدر هياج وقلق يعانيه أولئك الذين يتوقف معاشهم على اقبال الناس ورغبتهم في هـذه المودة أو تلك . ان مما يجعل هـذا الميدان من ميادين السلوك الجمعي ميـدان مغامرة هـو ان امكان التنبؤ عن مدى نجاح المودة وعن دورة حياتها لا يزال ضعيفاً جداً . ان هذه الحالة تعرض الصناعات المرتبطة بالمودة الى اضرار كبيرة في بعض الاحيان . خذ لذلك ، مثلاً ، مـا حدث في مدينة (ليومنستر Leominster) في الولايات المتحدة الامريكية ، وهي مدينة تكثر فيها معامل (السيليلويد) الذي تعمل منه الامشاط . لقد توقفت هذه المعامل تقريباً عن العمل عندما طغت مودة الشعر القصير بين النساء حيث استغنت المرأة عن استعمال الامشاط في رأسها نتيجة لذلك . وفي خريف سنة ١٩٣٨ حيث بدأت مودة تطويل

الشعر وتصفيفه تصفيفاً جديداً ، بدأت هـذه المدينة التي يسكنها حوالي ٢٢٫٠٠٠ نسمة تنتعش من جديد ، وبدأت معاملها تعمل بنشاط منقطع النظير لسد الحاجة الماسة للامشاط ـ تلك المعامل التي كانت مغلقة مدة طويلة . ان حاجة هذه المعامل الى عدد كبير من العمال استلزم تشغيل حتى العمال المتقاعدين من ذوي الخبرة بهذا النوع من الصناعة . ان بعض هؤلاء العمال قـد أدلوا بأن سبب تقاعدهم عن العمل كان ذيوع مودة الشعر القصير بين النساء مما أدى الى تعطيل المعامل وشيوع البطالة في البلد على أثر ذلك . لقد استبشر أهل هذه المدينة خيراً بظهور المودة الجديدة وهم يرجون ان يطول أمد تبني هذه المودة ، وذيوعها ليتمتعوا من جراء ذلك بمورد للرزق ومجال للعمل .

ان شيوع مودة الاقلاع عن لبس القبعة في امريكا حوالي سنة ١٩٣٠ قد أدى الى تخفيض انتاج القبعات بمقدار (١٫٠٢٠٫٠٠٠) قبعة في فصل واحد مما هدد عمال هذا النوع من الصناعة بالبطالة .

يتبين من هذا كله ان شيوع مودة ما وانتشارها بين الناس بشكل واسع من مؤداه ان تزدهر الصناعة المتعلقة بتلك المودة ، وان تنتعش الصناعات الاخرى ذات العلاقة المباشرة او غير المباشرة بهذه الصناعة بالذات . ان من مهمة الدعاية والاعلان ان تنشر هذا النمط الموحد الجديد في اوسع منطقة ممكنة من الدنيا لهذا الغرض بالذات ، ومن هنا كانت الجماعات المصلحية في هذا الميدان تصرف مبالغ طائلة على الدعاية والاعلان لترويج المودة او الطراز الذي يهم مصلحتها .

زد على ذلك ، ان المودة تحدد الانواع الخاصة والبضائع المعينة التي تستحسن في اشباع الحاجات ، الاساسية منها او المكتسبة ، كما انها قد تحدد اسلوب استعمال تلك الانواع والبضائع وكمياتها ايضاً في بعض

الاحيان . ان هـذا يصدق على الملبس والمأكل والمشرب والمأوى وعلى كل مـا يشبع حاجة من حاجات الانسان (٥) . ان هذا يعني ، فيما يعني ، ان للمودة أثراً بالغاً في ترويج بعض المشتريات المختارة التي تستلزمها المودة ، وفي كساد اخرى قد تحول عنها تيار المودة .

ان من مضامين هـذه الحقيقة تدوير دولاب العمل والانتاج وبصورة خاصة في الميدان الصناعي والتجاري لان الناس ملزمون - بتأثير المودة في الاعم الاغلب - ان يغيروا بيوتهم وسياراتهم وملابسهم وأثاثهم واشياء كثيرة اخرى لا لأنها بليت بل لمجرد انها اصبحت عتيقة (الموديل) او متخلفة عن الطراز الراهن الدارج بين الناس والذي روجته المودة .

ان من الملاحظ ان للمودة أثر بالغاً في سوق بعض الاشياء ورواج او كساد بعض المصنوعات ، وخاصة في الميادين الفنية ، فقـد شـهد الربع الاول من القرن العشرين إحياء او انبعاثاً في اوروبا لمصنوعات القرن الثامن عشر ، حيث غصت (باريس) حينذاك بالراغبين في الحصول على هذه السلع والمصنوعات بحيث بلغت قيم بعضها واسعارها حدوداً خيالية من جراء حدة التنافس . فقد بيعت احدى الصور التي كانت من مخلفات ذلك العهد ، سنة ١٩٠٣ بـ (٥٢١٠) فرنكاً ، ولكنها بيعت في حزيران سنة ١٩١٢ بمبلغ (٦٦٠ر٠٠٠) فرنكاً ، وكان سعر صورة أخرى سنة ١٨٨٠ ، (٧٠٠) فرنكاً ، ولكنها بيعت سنة ١٩١٢ بمبلغ (٢١ر٣٠٠) فرنكاً ، والامثلة في العالم كثيرة على مثل هـــذه الاحداث (٦) . ان الباحثين مجمعون على ان العوامل في هـذه الاحداث كثيرة ، ولكنهم يرون ، ايضا ، ان عامل المودة هو ذو أثر بالغ في هذه الامور إذ تلعب الرغبة في التميز

---

(5) - See Elgin F . Hunt, Social Science, p . 495 .

(6) - K . Young , Source Book for Social Psychology, p . 660 .

والشهرة والزهو والتباهي والظهور واشباع الحافز لأن يكون الفرد موضع الانتباه والاهتمام دوراً كبيراً في التنافس وحفزه ، وهذه كلها حوافز مهمة تحفز الناس على المودة .

إن احصائيات البلدان المختلفة التي تتعلق بالقضايا الفنية وتجارة الاشياء الذوقية ترينا تذبذباً عجيبا في هـذا الصدد نظراً لتذبذب هـذه الاذواق وما يتصل بها من مودات . ان هذا بالطبع يصدق على كثير من الصناعات ، من قبيل مثلاً صنـاعة الفراء والتجارة بالفراء ، وصنـاعة ادوات ومواد الزينـــة وتجارتها ، وصناعة المجوهرات واللعب والازهار الاصطناعية ، بل حتى تجارة الازهار الطبيعية .

والواقع ، ان ظهور طراز جديد من البدلة النسوية هو دلالة مرئية واضحة على ان تحولاً قد طرأ على الفكر / او في الفكر ، وعلى التقاليد / / او في التقاليد ، وعلى الصناعة / او في الصناعة . وعلى التجارة / او في التجارة . ومن هنا كنا نشهد بوضوح التغيرات الهائلة في ميادين الفكر والتعبير والعلاقات الاجتماعية والولاءات والعواطف والمواقف والاطرزة والازياء وفي المعايير والقيم وفي كثير من جوانب الحياة الاخرى ، على اثر التغيرات الاجتماعية المفاجئة ، كما يحدث في الثورات مثلاً ، حيث تشيع انماط جديدة ومودات ومبتكرات سلوكية جديدة ، وفي هذا الصدد يتضح منطوى ما قاله « تين Taine » حين اكد على : « ان رأيي الصريح الحاسم هو ان اعظم تغير حدث في التأريخ هو ظهور السراويل . . . إذ انها كانت علامة دالة على عودة المدنية اليونانية والرومانية الى العصر الحديث . ليس هناك ما هو اصعب من تغيير تقليد عام ويومي . فلأجل ان تطرح جانبا ملابس الانسان وتلبسه بدلة جديدة ، عليك ان تعدمه وان تصبه في قالب جديد (٧) وعلى هـذا الاساس يرى بعض الكتاب

(7) - Cited by Young, Ibid .,p . 661 .

ان تغيرات المودة دليل على مدنية متقدمة ، انها تتميز بالتغير لان فيها قابلية عظيمة لان تهذب مثلها الاعلى بمقدار ما يتنوع انتاجها (٨) .

ان من آثار المودة المهمة القضاء على الشكلية (Formalism) والجمود الذي يقتل الروح في الحياة ، كما يرى « كولي C. H. Cooley » احد اساتذة (جامعة مشيجان) في علم الاجتماع ، وحفز الناس على التحرر من القيود والانطلاق في رحاب الابداع والابتكار لطمس معالم الحياة على وتيرة واحدة - تلك الحياة التي عاشتها البشرية آماداً طويلة قبيل الثورة الصناعية .

ان البحاثة « كلرجيه » يؤكد على ان تغيرات المودة هي علائم ودلائل على تغيرات وتحولات في كل حياة الناس الفكرية والعاطفية والاعتيادية . ان هذه العلاقة الوثيقة توضحها الاطرزة المجنحة التي شاعت في نهاية الربع الاول من هذا القرن في ملابس الناس عندما شهدت المرأة تقدماً ملموساً في تحررها الاقتصادي (٩) . والواقع ، ان هذا الكاتب يرى ان المودة هي ضرب من سلوك الجمهور - او السلوك الجماهيري نظراً لما يتسم به من سمات تتصف بها بعض الجماهير في الاعم الاغلب .

وعلى كل حال ، فان للمودة آثار بعيدة المدى في الكيان الاجتماعي وفي التقاليد وفي الآداب العامة وفي المعايير السلوكية المختلفة وفي القيم والفلسفات والنظرة الى الحياة ، وفي أذواقنا وعواطفنا وانماط تفكيرنا . وفي علاقاتنا الاجتماعية ، وفي التغير الاجتماعي ، وما ينشأ عنه من مشكلات التكيف المختلفة الضروب والانواع ، وفي البنية الاجتماعية والتنظيم

---

(8)- Ibid., p. 661.

(9)- P. Clerget, « The Economic and Social Role of Fashion », Annual Report of the Smithsonian Institute (1913), pp. 755 - 746.

الاجتماعي وفي المؤسسات الاجتماعية المختلفة ، الاقتصادية والتجارية منها بصورة خاصة وفي أحداث تغيير في مفهوم المرء او فكرته عن نفسه وعن شخصيته ، بل في كل ميادين النشاط البشري ووجوهه المختلفة .

ان هذه الآثار الموغلة في أحداث التغييرات الهائلة في الحياة الاجتماعية هي التي حدت بالباحثين « پارك » و « برجس » ، على ما يظهر ، بأن يعقدا مقارنة بين المودة والثورة والحركات الاصلاحية حيث ذهب هذان الباحثان الى ان الحركات الاصلاحية هي الاخرى مودات ، عدا أنها مودات مخططة ، مبرمجة تهدف الى اهداف معينة ، وانها من هذه الناحية أكثر عقلانية من المودة (١٠) . كما انهما يؤكدان على ان العلاقة بين المودة والثورة والحركات الاصلاحية وثيقة من حيث انها جميعاً طرائق واساليب تتوخى احداث تغيرات اجتماعية في المجتمع وان اختلفت في خططها ومناهجها واسلحتها وما تتوسل به في تحقيق هذه التغيرات او إحداثها ،

زد على ذلك ، ان المودة قد تقوم بمهمة التعويض عند الشعور بالنقص والهوان ، ذلك انك عندما تكون (على آخر طراز) قد تشعر انك من نخبة القوم او سراتهم ، او الطبقة العليا فيهم . ومن هنا كان حديثو النعمة (ومن يسمون أثرياء حرب ممن أفسحت الحرب أمامهم فرص الاثراء السريع) يحاولون دائماً ان يكونوا (على آخر طراز) في استهلاك المواد ، وفي مستوى العيش ، وفي ابراز كل دلائل الترف والبذخ التي تتسم بها الطبقة الفراغية عادة ، وربما أفرطوا في ذلك غاية الافراط ، كما شهدت البلدان العربية ذلك في الحرب العالمية الاخيرة مما كانت

(10) - Robert E . Park and W.E . Burgess , Introduction to the Science of Sociology (Chicago : The University of Chicago Press , 1937), pp . 933 — 934 .

تتناقله الصحف وتدور حوله الاقاصيص الغريبة والنكات .

والى هذه المهمة ـ مهمة التعويض ـ التى تقوم بها المودة في حياة هذا الصنف من الناس أشار « زمل » حين قال : ان المودة تهيء مجالاً مثالياً للاشخاص الذين يتميزون بطبيعة تتسم بالافتقار ، اولئك الذين يتطلب شعورهم بالذات بعض الشهرة . والاهتمام ، والانفرادية . ان المودة ترفع حتى الشخص غير المهم وذلك بجعله ممثلاً لطبقة ، وبجعله تجسيداً لروح جماعية » (١١) .

يؤكد لنا الذين درسوا المهاجرين الجدد من الشبان الى انهم سرعان ما يتبنون هذه البدع الدارجة واساليب السلوك لكي يغطوا بعض شعورهم بالنقص وعدم الكفاءة . وعلى نفس الاساس يحاول العامل او العاملة ارتداء آخر طراز من الملابس لان هذه المودة تزودهم بالشعور بالتفوق وبأنهم من علية القوم ـ وهي مشاعر ترافق عادة كون الفرد على آخر طراز) .

ان عدداً من الباحثين الذين عالجوا موضوع المودة زعموا ان تعلق المرأة الشديد بالمودة هو مثل من أمثلة التعويض عن شعور النقص الذي يلازمها نتيجة عيشها في مجتمع رجالي . ولهذا كانت المرأة تحقق هذا التعويض قديماً بلجوئها الى الملابس والى التزين لاجتذاب الرجل ، من ناحية ، ولتميز نفسها عن الرجل من ناحية اخرى ، أما في العصر الحديث فان المرأة تنزع باطراد ـ على ما يرى هؤلاء الكتاب ـ ان تشبه الرجل في طراز ملابسها نظراً لتغير منزلتها في ميدان الاعمال والسياسة والمهن . ومن هنا راح هؤلاء الكتاب يؤكدون على أن هذا الأيديولوجي المعاصر ـ ايديولوجي المساواة بين الجنسين ـ قد أثر ولا شك تأثيراً عظيماً في توجيه

(11) ـ G. Simmel « Fashion », Op. Cit., p. 140 .

هذه المودة . وبعبارة أخرى : أن النساء ينزعن الى التدليل على مساواتهن بالرجال ، وذلك بتبني ملابس الرجال وعاداتهم واساليبهم السلوكية .

إن من هؤلاء الذين يؤكدون على مبدأ التعويض هو « زمـل » في محاولته تبيان علة تعلق المرأة بمودة الملابس تعلقاً شديداً . يرى « زمل » ـ على هذا الاساس ـ ان المودة تمنح المرأة تعويضاً أو تيسر لها هذا التعويض إذ هي يعوزها (المركز) في طبقة اجتماعية قائمة على الحرفة او المهنة ، ذلك أن الرجل الداخل في مهنة أو حرفة يكون عادة داخلاً في طبقة موحدة منسجمة نسبياً ، حيث هو يشبه فيها الآخرين من الاعضاء . هذا ومع ان هذه الحرفة تعوضه عن انكبابه عليها وانصرافه لهـا ، فهي تتيح له أيضاً التمتع بكل اهمية واهداف هذه الطبقة وسلطانها الاجتماعي . وبذلك فهو يضيف الى اهميته الفردية اهمية طبقته هذه ، وهي اهمية من شأنها أن تغطي ، في الاعم الاغلب ، نقـــائصه ومعايبه التي هي معايب ونقائص شخصية صرفة . وبذلك تحل شخصية الطبقة محل شخصيته هو . إن هذا الامر نفسه تحققه المودة بوسائل واسباب أخرى . إذ أن المودة تطمس افتقار الشخص للاهمية ، وانعدام قابليته على أن ينفرد بوجوده معتمداً على مساعيه وجهوده وحده من دون مساعدة ، وذلك بتمكينه من الانضمام الى مجموعة من الناس تتميز وتنفرد في مجال الشعور العام بالمودة وحده . إن الشخصية هنا تستحيل الى تعبير او مركب عام ، مع احتفاظ هذه الشخصية بمسحتها الفردية أيضاً ، وبذلك ـ اعني عن هذا الطريق الاجتماعي وبهذا الاسلوب الاجتماعي ـ تزود الشخصية بما كانت حرمته بالاسلوب الفردي الخالص (١٢) .

وعلى كل حال ، فان رغبة المرء في أن يوسع ذاته وأن يعظمها ، وان

(12) - Ibid., p. 145 .

يقحمها في فعاليات تزورها بالتميز الاجتماعي ، هي عامل مهم قوي في تغذية ظاهرة المودة وامـــدادها ونشرهـا وتنميتها وفي التغييرات التى تطرأ عليها (١٣) .

ان من البحوث الممتعة التي اطلعت عليها في جامعة « شيكاغو » أطروحة كتبها احد طلاب (الماجستير) هناك تحت عنوان (مودة الشوارب واللحى في امريكا) . ان مثل هذه المودات ذات علاقة وثيقة بمفهوم الشخص عن نفسه ، ولذا وجب أخذ هذا الجانب بنظر الاعتبار عند دراسة مثل هـــذه المودات التى ترتبط بالشخصية ارتباطاً نفسياً ـ اجتماعياً أساسياً .

زد على ذلك ان المودة ، تشبه التزيين والتجميل ، من حيث أنهـا تضفي متعة وبهجة على تعاشر الناس وتجعل اختلاطهم اسهل وايسر . وعليه ، فان المودات تزيد في منفعة هذا التعاشر (١٤) . وأخيراً ، ان المودة اسلوب ووسيلة من وسائل الضبط الاجتماعي لاننا جميعاً نخضع لها في الأعم الاغلب ، قليلاً أو كثيراً .

هذا وكما أن للمودة بعض الاثار والنتائج المستحسنة الايجابية في المجتمع والحيـــاة البشرية ، فان لها وجوهها وآثارها التي لا تخلو من مشكلات في اغلب الاحيان ، مما يلزمني أن انقلب لمعالجة هذا الجانب من الموضوع فيما يلى :

---

(13) - Young, Social Psychology, p. 560 .

(14) - W. G. Sumner and A. G. Keller, The Science of Society (Boston: The Yale University Press, 1927), Vol. III, pp. 2119-20

جـ ـ المشكلات التي تتمخض عنها المودة :

إن الحديث عن التغير لا بد له من أن يفضي الى الحديث عن مشكلات ، لأن المشكلات بانواعها المختلفة هي ، على رأي جمهرة علماء الاجتماع ، نتاج عملية التغير الاجتماعي التى من شأنها ان تهدد التوازن والانسجام في المجتمع وفي الحضارة وفي الشخصية فتستلزم مجهودات جديدة في التكيف ، ومساعي جمة للقضاء على تضارب القيم والمعايير والاهداف وتحقيق انسجام حضاري جديد فيما بين الوجوه المختلفة من الحضارة ، وخططاً لسد ما أحدثه التغير الاجتماعي من ثغرات وتعارض بين المؤسسات الاجتماعية ، وبين حاجات الناس الاساسية وبين هذه المؤسسات التي اوجدت لاشباعها أولاً وقبل كل شيء ، وبالتالي محاولات الى اعادة التنظيم والتوازن والانسجام الى كل من المجتمع والحضارة والشخصية والى كل هذه الاطراف من حيث هي وجوه في كل ترتبط ببعضها ارتباطاً تبادلياً ووظيفياً ، وارتباط سبب وأثر بوجه عام .

والواقع ، أن كل تغير يطرأ على اي جزء او وجه من هذا الكل ـ اعني المجتمع والحضارة والشخصية ـ يكون ذا آثار بعيدة المدى في كل الاجزاء الأخرى وفي علاقاتها ببعضها . إن بعض هذه الآثار مباشرة ، باد للعيان ، وبعضها خفي ، غير مباشر ، على حد رأي « أوكبرن » ، احد اساطين موضوع التغير الاجتماعي في القرن العشرين .

هذا ولما كانت المودة مظهراً من مظاهر هذا التغير ، وسبباً في اضطراب التوازن الموجود فيما بين اجزاء النصاب الاجتماعي ككل فلا بد اذن من أن تؤدي الى مشكلات شخصية واجتماعية متعددة متنوعة ، سبق ان اشرنا الى بعضها عرضاً عند معالجة موضوع المودة في مجالاته ووجوهه الأخرى من

الحياة الاجتماعية . وعليه ، فسأحاول فيما يلي ان اشير بايجاز بالغ الى هذه المشكلات ، وسأحاول تبويبها ، جهد الامكان ، الى ثلاثة ضروب ، وإن افضل تبويب موضوع تتداخل اجزاؤه هذا التداخل .

١ ـ المشكلات الحضارية :

أ ـ تعريض التعاريف الاجتماعية للوضعيات المختلفة الى تغير دائم ، والى بلبلة مستمرة ، وذلك عن طريق الخروج على المعايير المرعية في السلوك ، وعن طريق الحيود عن الانماط السلوكية المتعارفة في المجتمع . وبعبارة أخرى موجزة : تعريض الوحدة الحضارية الى التفكك والانحلال واشاعة التعارض والتضارب فيها تدريجياً .

ب ـ ثلم حرمة بعض وجوه التراث الاجتماعي من قبل الاجيال الصاعدة ، واشاعة التشكيك في صحتها وصلاحها للحياة ، مما يهدد أيضا الوحدة الحضارية والتماسك الاجتماعي على السواء .

ج ـ يرى بعض المفكرين أن المودة تحل محل الاخلاق في المدنيات والحضارات المتدهورة المنحطة . ان لهذا الرأي جذراً تأريخياً في تأريخ الفكر البشري يمتد الى تشديد النكير على الترف من قبل الحكماء والفلاسفة منذ قديم الزمان ، وفي اغلب المجتمعات إن لم اقل كلها . فانبياء اليهود ونعيهم حياة الترف في المدن الفلسطينية قديما ، وتيه اليهود اربعين عاماً في جزيرة سيناء ، وتأكيد حكماء الصين والهند قديماً ، ومنهج بوذا في الحياة ، وموقف الدين الاسلامي من الترف وهو موقف يلخصه القول المأثور (اخشوشنوا فان الترف يزيل النعم) ، وآراء « ابن خلدون » و « تركو » الفرنسي و « سنيكا » الروماني واضرابهم من مفكري الشعوب المختلفة في هذا الموضوع ، تعطينا كلها صورة عن

موقف الفكر من الترف . لقد جاء عن « تاسيتوس » انه تأسف على انحطاط وتدهور الاخلاق في (روما) على عهده حيث كان يسمى الفساد والتعفن الخلقي مودة »(١٥) يومذاك .

٢ ـ المشكلات الاجتماعية :

أ ـ شق المجتمع الى جماعات مختلفة ، وخلق صراع فيما بينها من جراء تفاضلها في التعلق بالقيم الحضارية وبالتعاريف الاجتماعية المختلفة .

ب ـ اتاحة اللجوء الى خلق مبررات مختلفة لتبرير المواقف المتباينة ، والضروب السلوكية غير المنسجمة مع بعضها ، وهـذا بدوره مصدر مشكلات كثيرة متنوعة مدارها وجود وضعيات خلاف ونزاع (Conflict situation) يحتدم حولها النزاع والخلاف بين جماعات متباينة قد يصل فيها التباين الى درجة التناحر احياناً (Conflicting groups) ، ويبلور كل فريق من الفرقاء (ايديولوجياً) له يكون سلاحه في هـذا الصراع على المستوى الايديولوجي على الاقل ، فيحشد المبررات لموقف كل جماعة ويوميء الى الاهداف النبيلة او المقدسة التي يرمي اليها كل فريق .

ج ـ تعريض العائلة الحديثة الى مشكلات اقتصادية وما يتمخض عنها من خلافات أخرى في ميادين مختلفة من العلاقات العائلية ، كما يؤكد على ذلك اساطين علم اجتماع العائلة ، إذ قد تبدو المشكلة جنسية بين الزوج والزوجة ، ولكنها عند التحليل النهائي تتكشف عن سبب اقتصادي تجاوز ميدانه فامتد اثره الى العلاقات الجنسية فيما بينهما . إن من ألعن هذه المشكلات هو خفض المستوى المعاشي للعائلة بتأثير تبذير جزء كبير

(15) - Cited by Kingsley Davis, Human Society (New York: The Macmillan Co., 1959), pp. 77 — 78 .

من موردها المحدود على كماليات المودة ، مما يؤدي الى التقصير في النواحي الاخرى كالناحية الصحية والتربوية والانعاشية وما شاكل . هـذا ولعل الخلافات والتوترات تكون على اشدها حدة وتواتراً عندما يكون هنـاك اصرار من قبل بعض اعضاء العائلة على شراء ما لا طاقة للعائلة بشرائه كما يفعل الابناء وخاصة البنات منهن اللواتي يردن دائما ان يكن (على آخر طراز) ، وهو أمر لا يمكن ان تحققه موارد كثير من العوائل ، او كما تفعله بعض الزوجات اللائي يرهقن ازواجهن بتتبـــع المودات والاصرار على تبنيها .

د ـ رفع تكاليف الزواج ، وتأسيس عش جديد لعائلة جديدة ، مما كان عاملاً ، من جملة عوامل أخرى ، في تأخير سن الزواج في المجتمع الحديث بوجه عام ، وفي زيادة نسب العزوبة فيه .

هـ ـ انشغال بعض الناس والجماعات بمناهضة المودة أو نعيها ونعي آثارها ، ومن ثم تضييع مجهود اجتماعي كبير في هذا الميدان بدعوى الاصلاح أو المحافظة على الاخلاق او الغيرة على الدين .

و ـ ضياع قيمة الجمال الطبيعي او الحقيقي ، بل تلبيس اغلب القيم الحقيقية للناس على الناس في هذا المحيط الذي تطغى عليه المودة . ففي مجال جمال المرأة ، مثلاً ، يطغى الجمال المصطنع الذي تيسره المودات ـ مودات التزيين والتجميل والملابس وما شاكل . لعل ما قاله ابو الطيب المتنبي يوميء الى هذه الظاهرة في الحياة الحضرية حيث قال :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

لقد سبق ان اشرت الى ان المودة تضفي النفوذ على متبنيها ، ومن هنا كانت الملابس تلعب دوراً كبيراً في المدن الكبرى من حيث تزويرها المنزلة الاجتماعية للشخص .

ز ـ تعريض الجهاز الصناعي والحياة الاقتصادية في البلد الى ازمات وشدائد وصعوبات وانتكاسات وكساد وانهيار ، تضيع فيه كثير من الثروات ، ويعرض فيه كثير من الناس الى البطالة والى شرورها المختلفة في العاطل ، وفي عائلته ، وفي المجتمع .

ح ـ تقوية حدة الصراع والتباين بين الاجيال باضافة سبب ومظهر اضافي لهـذه الظاهرة ـ ظاهرة صراع او تباين الاجيـال في المجتمع (Conflict of generations) .

ط ـ سبق أن اشرت ، في معرض البحث ، الى ان شيوع المودة في المجتمع الحديث على نطاق واسع ، هو وجه من وجوه التيار الدمقراطي الذي قوي منذ الثورة الفرنسية . غير ان اعتماد هذه الظاهرة على عوامل محركة طبقية تغذيها وتتحكم بها ، يجعل هذه الدمقراطية مهددة في جوهرها ولبابها ، ذلك أن من شأن المودة أن تعزل وتفصل بين الجماعات الاجتماعية ، وان يكون التفاوت فيها قائماً على الاسراف والبذخ في مجال الكماليات والاشياء غير الضرورية . إن هذا كله يؤدي الى انشطار المجتمع وتفكيكه من هذه الناحية بسبب القابلية المالية على هذا الاسراف والبذخ ، كما أنه يشيع الحسد والغيرة بين الجماعات المتمكنة وبين الجماعات الاخرى التي لا تستطيع ان تتنافس واياها في اغلب المجالات من هذا القبيل .

ي ـ وفي وضعيات معينة وحالات خاصـة يؤدي التعلق بالمودة الى الجنوح والى الاجرام والى مشكلات اجتماعية اخرى كالطلاق والبغاء ، وفساد الابوة والزنا والادمان على المخدرات ، وما شاكل من ضروب زائفة من السلوك .

ك ـ التطرف المفرط في الزيغان والجيود عما هو متعارف بين الناس ، والنزوع البالغ نحو عدم الاحتشام مما يثير الخزي ، في نظر بعض الناس

كالنساك والمحافظين والرجعيين والمتزمتين ، مثلاً .

٣ ـ المشكلات الشخصية :

أ ـ زيادة نفقات الفرد ومصاريفه بتزايد مجالات صرفه ، وتغير دواعيها باستمرار واطراد ، مما يؤدي الى خلق مشكلات اقتصادية للفرد ، وخاصة اذا كان رب عائلة مسؤولاً عن اعالة جماعة بدخل محدود .

ب ـ يشير « بوكاردوس » الى ان مطاليب المودة تستعبد النساء ، ولا ادري لماذا قصر هذا الباحث هذا الاستعباد على النساء دون الرجال ، في حين ان المودة في العصر الحديث تستعبد الرجال والنساء معا ، وان اختلفت درجات هذا الاستعباد بينهما في مجالات اللباس والتزيين والتجميل .

ج ـ تعريض الانسان الى مشكلة الانتقاء (To make a choice) . ان كثرة البضائع ، وتنوعها المطرد ، ومودتها واطرزتها المختلفة تعرض كل شخص حضري الى مشكلة قد لا يعانيها الريفي او البدائي في مجتمعه البدائي الضيق المحدود . وهنا يحضرني المثل العامي الدارج (قيم الركاع من ديرة عفج) ، إذ أن اهلها كلهم حفاة ، على ما يظهر من هذا المثل ، ومن ثم فليست هناك مشكلة انتقاء حذاء اصلا ، إذ لا وجود للاحذية فيها ولا قيمة لها لانعدام الحاجة اليها بين السكان . اما الفتاة الحديثة التي تسكن (نيويورك) مثلاً ، والتي تحاول ان تشتري لها حذاء فهي امام مشكلة ملعونة من هذا النوع ، ذات أبعاد قد لا تخطر على بال ريفي او بدائي من الناس . فمورد الفتاة محدود ، ومطامحها عارمة ، وفي (نيويورك) آلاف المخازن والمعارض والشركات التي تبيع الاحذية ، وهناك آلاف (الموديلات) المختلفة من حيث السعر ، ومن حيث النوعية ، ومن حيث الجمال ، ومن حيث المتانة ، ومن حيث الشهرة . و . . . و . . .

وعليه ، فاننا نجد ان هذه الفتاة قد تقضي مدة طويلة تتردد على

المخازن في عملية تسمى عملية (التثمين Pricing) ، في عرف الامريكيين ، وهي عملية اوسع بكثير من معنى التسعير على اساس النقود ، إذ ترى الفتاة تلبس الحذاء في المخزن او المعرض فتقف امام المرآة لتنظر الى نفسها ، وهي تحتذيه ، بعيني أمها ، ثم تنظره بعيني اخيها ، ان كان لها اخ ، ثم بعيني اختها الكبرى ، ثم بعيني صديقتها المقربة اليها ، ثم بعيني رئيسها في العمل او المكتب ، ثم بعيني حبيبها او من تهواه ، وهكذا تتعدد النظرات ومجالات النظر وما تتمخض عنه من مشاعر وتقييمات . انك ولا بد تدرك صعوبة التوصل الى قرار حاسم نهائي في امر كهذا متعدد الابعاد والمعاني والاعتبارات . اذ لو كانت هذه الفتاة تحيا في مجتمع لا ييسر لها غير نوع واحد من الاحذية لما واجهت مشكلة من هذا القبيل .

وخلاصة القول ، لقد اصبح الانسان في المجتمع الحديث يواجه هذه المشكلة ـ مشكلة الانتقاء ـ بشكل حاد من جراء التقدم الصناعي ، واطراد الحياة الحضرية ، وغلبة المودة وسيطرتها .

د ـ استنزاف طاقة عصبية كبرى من الانسان من جراء انشغاله بالمودة وانتباهه الى تفاصيلها ، وتتبع اخبارها واطرزتها المختلفة في ميادين شتى من الحياة . ان المجهودات والطاقة التي يستنفدها هذا الميدان هي دائما في تزايد مطرد في المجتمع الحديث .

هـ ـ لقد سبق ان اشرت في ثنايا البحث الى ما توحي به المودة من الزهو والغرور والتباهي والشعور بالنفوذ ، وهذه كلها تؤدي الى الخيلاء وتوهم السلطان وغلغلة اوهام الثروة والمنزلة المرموقة ، والنجاح ، والشباب والفتوة مما قد يفسد بعض التصرفات الشخصية ويوتر بعض العلاقات بين الناس ، وقد تقحم الشخص في مآزق حرجة لا تعود عليه الا بالوبال والندم والدمار .

و ـ مشكلة التوفيق بين شخصية الفرد وبين المودة الغالبة . لعل من افضل ما يوضح هذه النقطة بالذات هو شيوع مودات تكشف عن معايب الشخص ، على اسس قيم أخرى مرعية في المجتمع ، أو تبالغ فيها . فاذا كانت السمنة ، مثلاً ، مستهجنة مستقبحة في المجتمع ، وكان طراز اللباس المرعي كمودة يظهر هذه السمنة في المرأة بأبشع صورها ، فان هذه المشكلة الشخصية ـ مشكلة التوفيق بين حاجة الشخص وبين المودة ـ تكون مشكلة ملعونة الاثار والمضامين .

هـذا ولما كانت المودة التى يتبناها الانسان تحدث تغيراً في مفهومه (أو فكرته) حول نفسه (His Self - Conception) ، لذا كانت للمودة آثار سلبية وايجابية من هذه الناحية بالذات تستحق المعالجة والاهتمام.

وعلى كل حال فقد انتقدت المودات بصورة عامة واتهمت بأنها سبب في بعض الكوارث الصناعية والتجارية ، وانها تهدد الوحدة الحضارية والتماسك بين اجزاء الحضارة الواحدة ، وانها تهدد الوحدة الاجتماعية والمساواة الاجتماعية ، وأنها مفسدة للاخلاق ، كما ادعى رجال الدين والاخلاق والاصلاح الاجتماعي . لقد ذهب فريق من هؤلاء الاخيرين الى ان بعض مودات الملابس تنافي الحشمة لانها تعبر عن كل عضو من اعضاء المرأة بلغة صريحة داعرة ، وتبرز تقاطيع جسمها بشكل مثير ، يتنـافى والقيم التقليدية في السلوك . وذهب فريق من هؤلاء النقاد الى أن بعض هذه المودات انما يظهر لا لغرض آخر غير تحدي الحشمة والاجهاز عليها. لقد رد بعض المدافعين عن المودة على هذا الاتهام الاخير بقولهم ان الناس ، على ما يظهر ، لا يرغبون أن يكونوا محتشمين ، وانما هم يريدون أن يعبروا عما يحسونه ويشعرون به بالقدر الذي تسمح لهم به مخاوفهم ، والمودة هي الوسيلة التى تحل لهم هذا التناقض والاشكال في هذه الوضعية

التى يعانيها الناس .

وشدد فريق من النقاد النكير على المودة انها مدعاة للتبذير . ان هذه التهمة - تهمة التبذير الاقتصادي - التى طالما وجهت ضد المودة ليس لها الا تأثير ضئيل في افكار الناس عامة ، وليس لها أي تأثير في افكار بعض الناس عادة ، وخاصة علية القوم منهم . والواقع ، ان التبذير يبدو غير مهم عندما تكون القيم الانسانية هي مجال البحث ، وخصوصاً عندما تكون هذه القيم ذاتية ولاشعورية معاً .

وهناك نقاد هاجموا المودة على انها تحقق بين الناس توحيداً غير مرغوب فيه . إن المنافحين عن المودة يرون هذا المطعن متهافتاً في حقيقته لان الفرد في المجتمع لا يعبر عن ذاته الا نادراً . ان الغالبية العظمى من الناس يكون انتقاؤهم (أوما ينتقونه) بين التقليد الثابت غير المتغير وبين الافلات المشروع من التقليد ، اعني المودة (١٦) .

وبالتالي ، فاننا نستطيع أن نؤكد ، وتكون في تأكيدنا هذا درجة عالية من الصحة والواقعية ، ان المجتمع الـــذي تكثر مودانه ، وهي مبتكرات على كل حال ، هو مجتمع سريع التغير ، واذا كان كذلك ، فهو مجتمع كثير المشكلات . وعليه ، فان تقدمه وصموده وتماسكه تتوقف جميعاً على موقفه من هذه التحديات ونذر الانهيار وعلى مجابهته لها وعلى حيويته في ايجاد الحلول الناجعة قبل ان يتسع الخرق على الراقع .

د - المودة والتراث الاجتماعى :

إن المودة مظهر من مظاهر التغير الاجتماعي ، وعامل مهم من عوامل هذا التغير ، ذلك انها تتحـدى كثيراً من الجوانب الحضارية الاخرى والقيم

(16) - Sapir, « Fashion », E. S. S., p. 143 .

والمعايير السلوكية تحدياً تدريجياً يجعلها نشازاً بمرور الزمن ومن ثم تصبح الحاجة ماسة لتغييرها وتبديلها بغية اقرار بعض التوازن والانسجام في الاطار الحضاري والاجتماعي بوجه عام . إن المودة ، كما هو واضح في حياة المجتمع الحديث ، تؤدي الى نشوء مؤسسات اجتماعية جديدة ، والى انهيار مؤسسات أخرى كانت ضرورية لاشباع مستلزمات مودات اخرى سابقة في ميادين الملابس والفكر والفلسفة والفن والادب والانعاش والرياضة والتسلية وتأثيث البيوت وما شاكل . لقد سبق أن عرضنا شيئاً من جوانب هذا الموضوع عند معالجتنا سلوك الكتلة وأثره في الكيان الاقتصادي للمجتمع بصورة خاصة .

ان ظاهرة المودة هذه تطغى حتى في الحقل الديني ، الذي يعتبر من اكثر الميادين حصانة ضد ظاهرة المودة ، حيث وجدت ، في دراستي لجماعة دينية من الزنوج يدعون اعتناقهم للدين الاسلامي احتجاجاً على وضعهم السيء في المجتمع الامريكي ، ان هؤلاء الزنوج قد اوجدوا مودات جديدة يتميزون بها عن غيرهم من الزنوج الذين لا ينتمون الى جماعتهم الدينية حيث يتميز النساء منهم بأغطية خاصة للرأس ابتدعوها ، وبفساتين طويلة خاصة ، وراح الرجال يتميزون بخواتم معينة وبأشياء ومظاهر أخرى . إن هذا كله بالطبع ادى الى تنظيم مهني في داخل الجماعة ، والى نشوء مهن جديدة وممتهنين جدد . والواقع ، ان المودة تحدث تغييراً بالغا في الميدان المهني للمجتمع .

يتبين من هذا كله أن المودة وسيلة وحافز للتجديد والتغيير في المجتمع وهي مع هذا ايضاً مظهر من مظاهر التغير فيه .

زد على ذلك ان المودة قد ترسخ في المجتمع وتتأصل احيانا وذلك بدوامها واستحكامها في المجتمع مما يحيلها الى ضرب من التقاليد التي تتوارثها

الاجيال بعضها عن بعض . يحدثنا البحاثة « سمنر » (١٧) ان المرأة الهندية في (فلوريدا) تزين راسها وعنقها بما يملأ ست (كالونات) حجماً من المواد تتوزع على رأسها واذنيها وعنقها ، وفي بعض الشعوب البدائية تتحلى المرأة بقلادة يبلغ وزنها خمسة (پاونات) . ان نساء بعض الشعوب البدائية يستعملن قلادات من المحار الكبير الذي تزن كل محارة منه نصف (پاون) تقريباً . وفي منطقة (البخوان Bechuan land) يستعمل النساء الحلى الزرق والصفر ولا يستعملن الالوان الاخرى ، كما ان الرجال هناك يستعملون خوذاً مستديرة صغيرة ، بعد ان كانت هذه الخوذ كبيرة مسطحة نوعاً ما قبيل سنة ١٨٨٦ .

والواقع ، ان ظاهرة المودة واستحكامها جلي واضح في الشعوب البدائية حيث نلمسها في ضروب سلوكهم وتفكيرهم وطقوسهم وشعائرهم والبستهم واسلحتهم ومشاربهم ومآكلهم وحليهم وفي كل جوانب حياتهم الاخرى ، ولكنها متحجرة في الاعم الاغلب ، ثابتة نوعاً ما ، مستديمة بحيث انها اصبحت أشبه بالتقاليد والعادات الاجتماعية المتأصلة منها بالمودات من هذه النواحي .

يعتقد « تارد » أحد الرواد الاوائل من الفرنسيين في هذا الميدان ، ان التقاليد والمودات هما الشكلان اللذان تنقل بواسطتهما كل الخصائص الحضارية (Cultural traits) (١٨) وفي هذا الصدد يقول « تارد » ما نصه : « في العهود التي تكون فيها التقاليد غالبة ، يعجب الناس ويفتتنون عادة ببلدهم أكثر من اعجابهم وتعلقهم بزمانهم ، لان الماضي هو الذي يطرى ويمتدح أكثر من غيره حينذاك . اما في العصور التي

(17) - Sumner , The Folkways , p . 186 .

(18) - Park and Burgess , Introduction to the Science of Sociology , p . 933 .

تطغى فيها المودة وتهيمن ، فان الناس يصبحون أكثر فخراً واعتزازاً وتباهياً بزمنهم ، منهم ببلدهم » (١٩) . وهكذا ينتهي « تارد » الى التأكيد ، من بعد ، على ان عصر الازياء سيعقب عصر العادات الاجتماعية والتقاليد ويحل محله حيث تكون الشهرة والسمعة الحسنة قائمة على امتلاك الاشياء الجديدة الغريبة والمودات المستحدثة .

لعل أصعب ما يعترضنا في فهم المودة وفي فهم ما يظهر من البدع والافتتانات هـو ما يكمن في فقداننا المعرفة الدقيقة المضبوطة للرموز اللاشعورية التي ترتبط بالشكل واللون والوضعية والعناصر المعبرة الاخرى في حضارة ما . ان هذه الصعوبة تتضاعف عندما نعلم ان كلاً من هذه العناصر المعبرة ترمز الى أشياء ومعان تختلف باختلاف الامكنة والمناطق والازمنة والشعوب ، بالاضافة الى اختلاف الحضارات .

هذا ويرى فريق من الباحثين بأن هناك مبدأ مهماً يكشف عنه تأريخ المودة وهو ان وجوه المودة التي لا تطابق تماماً نظام المعاني اللاشعورية التي تميز حضارة معينة ولا تنسجم وأياها يكون مركزها قلقاً ووجودها غير أمين نسبياً في تلك الحضارة . فالازياء المتطرفة جداً والتي تشير بصراحة الى تيار المشاعر الراهنة تجد نفسها ، على أكبر احتمال ، معرضة لان تغلبها وتطردها وتطغى عليها المشاعر والمعاني التي لا يرغب الناس في ان يظهروها ويعترفوا بها بمثل هذه الصراحة والوضوح . وعلى هذا الاساس يرى « سابير » ان (أحمر الشفايف) أقل واضعف ضماناً في الاستمرار في المجتمع الامريكي من المادة التي (تحمر بها الخدود) ان ذلك بالتأكيد لا يعود لكون (أحمر الشفايف) أكثر شروراً وآثاماً من المادة الاخرى في هذا المثال ، بل هو يعود الى الحقيقة التي فحواها ان الخدود القرمزية الناتجة من الحياة الطبيعية الصحية في الريف هي احـدى المعتقدات

(19) - G. Tarde, The Laws of Imitation . Translated from the ad French ed. by Elsie Clews Parsons (New York : 1903), p . 247 .

التي يتعلق بها الامريكيون والتى يتميز بها المثل الاعلى التقليدي للجمال النسوي ، في حين ان (أحمر الشفايف) يتسم بمسحة غريبة أجنبية في اذهان الامريكيين ، ترتبط ببعض المواد الشرقية الملتهبة . وعليه ، فان ما تحمر به الخدود سيستمر على أكبر احتمال ، عشرات السنين بل قروناً لأن الحضارة الامريكية تنطوي على عبادة الطبيعة ، وهو أمر قد تحدر الى الامريكين معها ، وسيتحدر الى عشرات الاجيال القادمة من المجتمع الامريكي على حد رأي « ساپير » (٢٠) .

وعلى كل حال فان حركات المودة ذات آثار بعيدة في مختلف وجوه التراث الاجتماعي - المادي منه وغير المادي - إذ هي عامل من أهم العوامل في العصر الحديث في تغيير وتطوير وتجديد واثراء الفكر والادب والفن والهندسة المعمارية وتأثيث البيوت والمطابخ والابداع في الالبسة وميادين التزيين وفي نشأة بعض المؤسسات وفي انهيار مؤسسات اخرى ، وفي احداث تنظيمات جديدة ، وفي تغيير بعض وجوه السلوك المهني والحرفي في المجتمع وفي حفز أولاع جديدة وتتبع هوايات جديدة وفي اضفاء معاني جديدة على الامور والاشياء وبالتالي على الحياة بوجه عام .

زد على ذلك ان اختلاف الناس حول أية مودة في أية ميدان قد يؤدي الى خلق عدد من العموم (Publics) في المجتمع - وهي حلبات نقاش بين الناس في امور يختلفون حولها او حول تقييمها او آثارها مما يؤدي الى بلورة رأي عام بخصوصها قد يتخذ شكل تصميم او مخطط للعمل ازاء الظاهرة يقوم القوم بتطبيقه ووضعه موضع التنفيذ . هذا بالاضافة الى ما يخلفه هذا النقاش من ثروة فكرية وادبية تضاف الى تراث القوم وربما استلزمت تغييرات اساسية في بعض وجوه حياتهم . خذ لذلك مثلاً

20 - Sapir, « Fashion », Op. Cit., p. 141 .

قريباً بسيطاً شهده العراق حيث اثير المحافظون من الناس على اثر انتشار الفستان القصير (المنيجوب) مما أدى الى اصدار أوامر رسمية بايقاف هذه المودة (الخليعة) حيث صارت الشرطة تطاردها وتقاومها وتعاقب عليها. لقد كان لذلك كله جانب آخر في الأدب حيث انبرى شاعر العراق الكبير « محمد مهدي الجواهري » بفائيته العصماء التي قال فيها :

ليس العفاف مقاس أقمـ شة ظلمت إذن عفافا
هو في الصدور فلا يخـا ط ولا يقص ولا يكفا (٢١)

وهي نتاج ادبي رائع اضيف بتأثير هذه المناسبة الى تراثنا الاجتماعي والادبي . والواقع ، ان الفكر لو شحذ في تلك المناسبة ونشطت الاقلام لكانت تلك المودة بالذات مثار نقاش فكري وادبي هائل .

---

(٢١) اود ان اقترح على شاعرنا الكبير اجراء تبديلين في هذين البيتين هما كمايلي :

أ ـ احلال كلمة (البسة) مكان كلمة (اقمشة) الواردة في البيت الاول لان الحديث عن الملابس لا عما تستعمل لـه الاقمشة بصورة عـامة ، وعبارة (البسة) اكثر تخصيصاً وافصل ارتباطاً بسياق الموضوع ، إذ ان الاقمشة تستعمل لأمور اخرى كثيرة غير الملابس وهذا الجانب لا يعنينا في سياق هذا الموضوع في قليل او كثير .

ب ـ يظهر من المقارنة ان شاعرنا الكبير قصد بكلمة (يكافا) في آخر البيت الثاني معنى الكفكفة وهي غير واردة في اللغة بهذه الصيغة لهذا المعنى . اما اذا كانت الصيغة هي (يكافا) ، (بتشديد الفاء) ، فان ذلك يعرض وزن البيت الى خلل يدفعني الى استبعاد هذا الاحتمال . ولذا ارى جعل البيت بالشكل التالي تخلصاً من هذا الاشكال .

هو في الصدور فلا يخـا ط ولا يقص ولن يرافـا

وهو معنى لا يزال بديعاً ، اذ ان العفاف اذا انخرق فلن يرافا .

بعض المصادر والمراجع

1 - Barnett , H . G . , Innovation : The Basis of Cultural Change New York : MacGrow _ Hill Co . , 1953 .

2 - Barr , E . , A Psychological Analysis of Fashion Motivation Arch . Psychol . , 1934 , No . 171 .

3 - Bergler , M . D . E . , Fashion and Unconcious (New York : Robert Brunner , 1953) .

4 - Bonner , Hubert , Social Psychology (New York : American Book Co . , 1935) .

5 - Chase , S . , The Tragedy of Waste (New York : The Macmillan Co . , 1926) .

6 - Clarget , P . , « The Economic and Social Rule of Fashion » , Annual Report of the Smithsonian Institute (1913) , pp. 755 - 764.

7 - Cobliner, Godfrey , « Feminine Fashion as an Aspect of Group Psychology » , Journal of Social Psychology, 31 (1950) , 283 — 89.

8 - Flugel , J. C. The Psychology of Clothes (London : Hagarth , 1930) .

9 - Gregory, Paul M. « An Economic Interpretation of Women's Fashion » , Southern Economic Journal , 14 (1947) 148 — 62 .

10 - Hurlock , E . B . , The Psychology of Dress (New York : Ronald Press , 1929) .

11 - Kellett , E. E. Fashion in Leterature , A Study of Changing Taste (London : Routledge , 1931) .

12 - McDonnell , E . K . , « Fashion and the Hoolywood Handicap » , (Saturday Evening Post May 18 , 1935 , 10 - 11 , 42 , 46).

13 - Nystrom , Paul . The Economics of Fashion (New York : Ronald Press , 1928) .

14 - Porter , McKenzie . « Fads : The Froth on the Face of Am - erica », Maclean's Magazine , Canada (November 5 , 1960) 28 - 29, 72 — 76 .

15 - Sapir , E . , « Fashion » , E . S . S . (1931) VI , pp . 139 — 144 .

16 - Shelby , G . M . , Florida Frenzy (New York : Harper and brothers , 1926) .

17 - Veblen , T . Theory of Leisure Class (New York : Viking Press , Inc . , 1926) .

18 - Young , K . Source Book For Social Psychology (New York: A . A . Knopf Co . , 1927) .

معجم مصطلحات

Aggregation	اعتداء
Aggression	حشد
Animistic thought	التفكير الاحيائي
Anonymity	المجهولية
Attitude	موقف
Autocracy	الحكم المطلق
Boom	ازدهار
Bizarre behavior	السلوك الخيالي
Cake of custom	كعكة التقاليد
Caste society	الطوائف الاجتماعية
Chain letters	الرسائل المتسلسلة
Charisma	الهبة
Charismatic leader	الزعيم الموهوب
Collective behavior	السلوك الجمعي
Collective mind	العقل الجمعي
Conflict	نزاع ، صراع ، خلاف
Conflict of generations	صراع الاجيال
Conservatism	المحافظة
Convention	العرف الاجتماعي
Craze	افتتان اجتماعي اوالهوس الاجتماعي
Crowd	الجمهور
Cultural traits	الخصائص الحضارية

Dadaism	الدادية
Dancing mania	الجنون الراقص اوجنون الرقص
Elite	النخبة
Emotional stress	الضيق العاطفي
Enlightenment	التنوير
Etiquettes	آداب اللياقة
Fad	البدعة العابرة
Fashion	المودة
Folkways	الطرق الشعبية
Formalism	الشكلية
Frustration	الاحباط
Functionalism	الوظيفية
Futurism	المستقبلية
Group mind	العقل الجماعي
Herd instict	غريزة القطيع
Hierarchy	الهرم الطبقي
Holistic	كلي
Imitation	تقليد
Individualistic fad	التقليعة الفردية
Individualistic fallacy	المغالطة الفردية
In - group	الجماعة الداخلية
Initiation	الادخال والقبول
Intellect	العقل

Interest group	الجماعة المصلحية
Introspection	الاستبطان
Irrational	لا عقلاني
Irrationality	اللاعقلانية
Land boom	ازدهار الارض
Leisure	فراغ ، ترف
Leisure class	الطبقة الفراغية
Mass	كتلة
Mass behavior	السلوك الكتلي
Mass society	المجتمع الكتلي
Mental immobility	انعدام المرونة العقلية ، الجمود العقلي
Mob	الغوغاء
Modesty	احتشام ، حشمة
Monotheistic religion	دين موحد
Mores	الآداب العامة
Motivation	دفع ، حفز
Myth	خرافة
Obligatory	إلزامي
Obsessive	حصاري
Open class system	النظام الطبقي المفتوح
Out - group	الجماعة الخارجية
Periodicity	دورية
Personal insecurity	انعدام الاطمئنان الشخصي

Personalistic	شخصي
Personification	تشخيص
Pressure group	جماعة الضغط
Prestige	نفوذ
Prestige suggestion	الايحاء النفوذي
Prestige symbols	رموز النفوذ
Pricing	التمثين
Privilege	امتياز
Projection	اسقاط
Psychological origins	الاصول النفسية
Public	العموم
Public opinion	الراي العام
Punitive fashions	المودات العقابية
Rank	مرتبة
Rational	عقلاني
Rationality	العقلانية
Rhythmical	منتظم ، دوري
Sacred society	مجتمع المقدس
Scientism	المذهب العلمي
Secondary group	الجماعات الثانوية
Secular society	المجتمع الدنيوي
Self - suggestion	الايحاء الذاتي
Sexual modesty	الاحتشام الجنسي

Sexual selection	الانتقاء الجنسي
Shakers	الهزازون
Social class	الطبقة الاجتماعية
Social conformity	الانصياع الاجتماعي
Social detachment	التجرد او الانفصال الاجتماعي
Socialization	التعاشر او التأنيس
Social mobility	النقلة الاجتماعي
Social pyramid	الهرم الاجتماعي
Social realistics	الواقعيون الاجتماعيون
Social stratification	الطبقية الاجتماعية
Social structure	البنية الاجتماعية
Style	طراز ، اسلوب
Style followers	اتباع الطراز
Stylists	صانعو الطراز
Style leaders	قادة الطراز
Substitute	بديل ، معوض
Taste	ذوق
Tension	توتر
Thrill	هزة
Tulip maina	جنون الخزامي ، الجنون بالخزامي
Union	توحد
Value - confliot	تباين القيم وتعارضها
Volk Giest	روح الامة او الشعب

فهرس الاعلام

ابن خلدون ٢١٩
اوكبرن ١٥٤ ، ١٢٨
اومالي ١٩٤
ايڤانز - برچارد ٨١
ايڤلنگ ١٠٥
ألبورت ١٠٣
افلاطون ٨٥ ، ٨٧
ارسطو ٨٧
بالدوين ١٠١
بار ١٣١
پارك ٢١٤
پويريه ٧٤
بوكاردوس ١٧١ ، ٢٢٣
بينيه ١٠٥
بلومر ١٨١ ، ٢٠٣ ٢٠٥
برجس ٢١٤
بركلر ١٩٧
جون دولارد ١١٧
چيز ١٩٤
دارون ١٣٢
دوركهايم ٨٤ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٩ ، ١٧٥
هايك ٨٥
هاركريڤز ١٠٥
هيكل ٨٥ ، ٩٦ ، ١٠٠
هيرن ١٧٥
هل ١٠٥
هرلوك ٧٠ ، ١٧٣
ولهلم سميث ٨١
ولهلم شمبرت ٨٠
وليام جيمس ٥٨ ، ١٠١
وليام ملر ٦٠
وليام سترن ١٠٣
وليام توماس ٧٩
زمل ٠٠ ، ١٣٧ ، ١٦٨ ، ٢١٥
يونگ ٥٢ ، ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٣٧
١٤٠ ، ٦٩ ، ١٩٣
كاهن ٥١
كانت ٩٦
كانترل ١٣٠
گدنگز ١٠٩
كولي ٢١٣
كومت ٧٩

كليان ١٦٧
كلرجيه ٢١٣
كنزبرگ ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٥٠
گراهام والاس ١٢٥
كروبر ١٦٣
لاپير ٦٥ ، ٩٥ ، ١٦٠
لانج ٨٠
لوبون ٩٧ ، ١٠٥
لويد دارنر ١٩١
ليڤي - بريل ٨٠
لكي ٨٦
لمبروزو ١٠١
لندبرگ ٨٦
لندس ١٥٠
ماكي ٥٢
ماكس ارنست ٦١
مالينوڤسكي ٨٣
ماريت ٨٣
ماركس ٨٥
مورفي ١٠٤
مكدوكل ٩٥ ، ١٠١
نيوكمب ١٠٤
نستروم ١٣٦ ، ١٣٨
ساپير ٨٩ ، ١٤١ ـ ١٤٥ ، ٢٠٤ ، ٢٣٠
سالسبوري ٥٨
سارجنت ٦٢ ، ١٤٨
سپنسر ٧٥ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٥٢ ، ١٨٩
سمنر ١٧١
سنيكا ٢١٩
ڤبلن ١٣٠ ، ١٩٢
ڤوغان ١٠٤
فلوگل ١٣٠ ، ١٩٦
فرويد ٦٢ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ١١٨ ، ١٢٤
فريزر ٨٠ ، ٨٢
شريف ١٣٠
شمپيتر ١٥٢
تايلر ٨٢
تارد ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ٢٢٨
تين ٢١٢
تروتر ١٠٩ ، ١٢٤
ترگو ٢١٩
ترنر ١٦٧

فهرس الموضوعات

الآداب العامة ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ١٧١ ، ١٧٦ ، ٢١٣

الازدهار ٢٦ ، ٢٧ ، ٤٦ ـ ٥٠ ، ٦٢ ـ ٦٥

الاحتكاك الحضاري والاجتماعي ٤ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٩ ، ٢٥ ، ١٨٠

الايحاء ٦٠ ، ٦٣ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٠٢ ـ ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١٢٤

الالزام ٣٤ ، ٨٤

انعدام الاطمئنان الشخصي ٤٦

الانعزال الحضاري والاجتماعي ١٢ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ١٥٣ ، ١٥٧

الانصياع الاجتماعي ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٧٥

الاستبطان ٨٢ ، ٨٣

الاستهجان الاجتماعي ٣٥ ، ١٦٩ ،

الافتتان ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٣ ، ٤١ ، ٤٤ ـ ٥٠ ، ٦٠ ـ ٦٤ ، ٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨

الاشاعة ٦٧

الاضطراب الاجتماعي ١١

الاخلاق ٧٣ ، ٧٤ ، ٢٢٥

البنية الاجتماعية ٩ ، ٤١ ، ١٣٩ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٨ ، ٢٠٥ ، ٢١٣ .

البدع العابرة ٢٩ ، ٣٥ ـ ٥٠ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٩٢ ، ٢١٥

الجماعات الاجتماعية ٧١

الجماعات الحضارية ٧١

الجماعات المهنية ٧١

الجماعات المعشرية ٧١

الجماعات المصلحية ٢١٠

الجماعات السلوكية ٧١

الجماعات الثانوية ١٣٩

الجماعة ٩٧ ، ١١٥

الجماعة الداخلية ٤٥ ، ٤٨

الجماعة الخارجية ٤٥ ، ٤٨

الجمهور ٤٨ ، ٥٣ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١٢٥ ، ١٦١

الجمود العقلي ١٢

الجنون الجمعي ٦٠ ، ١٢٠

الدمقراطية ١١ ، ١٢ ، ٢٧ ، ٩٩ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٥١ ، ١٥٨ ، ١٦٩ ، ١٧٧
الدعاية ٦٧ ، ١٠٩ ، ١٢٤ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ٢٠٤
الهيئة الاجتماعية ٤٤
الهرب التصوري ٨٣
الوباء العقلي ٢٦
الوظيفية ٦٨ ، ٧٢
الحقائق الاجتماعية ٨٤
الحركات الاجتماعية ٩ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٥٨ ، ٢٠٦ ـ ٢٠٨
الطبقات الاجتماعية ١٠ ، ٤٠ ، ٧٠ ، ١٤١ ، ١٧٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٨
الطبقة الفراغية ٢١٤
الطوائف الاجتماعية ٢٠٤
الطوطم ٧٩ ، ٨١
الطرائق الشعبية ٤٦ ، ٧٥ ، ١٤٠ ، ١٧١ ، ١٩٢
الطراز ٢٠ ، ٢٢ ـ ٢٥ ، ٢٨ ـ ٣٣ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ١٤٠ ، ١٦١ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٨١ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٣
الطريقة الاحصائية ٨٦
الطريقة الوصفية ٨٦
الطريقة العلمية ٨٧
اللاعقلي واللاعقلانية ١٤ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ١١٥ ـ ١١٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٥
اللاشعور ٦٢ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٤٣ ، ٢٣٩
اللياقة ٥٢ ، ٥٤ ، ٦٩ ـ ٧١
المجتمع الدنيوي ١٣
المجتمع المقدس ١٣
المؤسسات الأجتماعية ١٠ ، ٨١ ، ١٥٤ ، ٢١٤ ، ٢٢٧
المنزلة الاجتماعية ٢١ ، ٢٦
المستقبلية ٦١
مراكز السيطرة ٢١ ، ٢٢ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ١٥٤
المركز الاجتماعي ٢٠
النفوذ ٢١ ، ٢٥ ، ٤٠ ، ٤٧ ، ٦٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٣٠ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٥ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٤
النقلة الاجتماعية ٩ ، ١٢ ، ١٣٩ ، ١٩٨ ،
النظام الاجتماعي ٤٤ ، ١٢٠
النظام المؤسسي ١٢٠
نظرية التوتر ٩٤
السلوك الاجتماعي ٣٣ ، ٣٨ ، ٦٨ ، ١٠٢ ، ١٣٥

السلوك الجماهيري ١٢ ، ٢٦ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ٢١٣
السلوك الجمعي ٣ ، ١١ ، ١٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٩ ، ٩٣ ـ ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ـ١١٥ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩
السلوك الحماسي ٢٧
السلوك الكتلي ١٢ ، ٢٢٧
السلوك المؤسسي ١١٦
السلوك الخيالي ٢٦ ، ٢٧
عقل الجمهور ٩٧
العقل الجمعي او الجماعي ٩٣ ـ ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢٤
العقلي والعقلانية ٨٥ ، ٨٧ ، ١٠٠ ، ١١٦ ، ٢١٤
العرف ١١ ، ٤٢ ، ٤٨ ، ٦٩ ، ٧١ ـ ٧٤ ، ١٤٠
قياس المواقف ٨٦
القلق الشخصي ١١
الرأي العام ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٠٩ ، ١٢٤
الشكلية ٢١٣
تباين القيم ٤٦
التجرد الاجتماعي ٤٦
التحلل الشخصي والاجتماعي ١٣
التماسك الاجتماعي ٧١ ، ١٤٦ ، ٢١٩
التنظيم الاجتماعي ١٠ ، ١٨٠ ، ٢٠٦ ، ٢١٣
التعاريف الاجتماعية ٧٠ ، ٢١٩ ، ٢٢٠
التعلق الجنوني ٥٦
التفاعل الاجتماعي ١٢٥
التفكير الاحيائي ٨٠
التقاليد ١١ ، ٢٧ ، ٣٢ ـ ٣٧ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٨١ ، ١٨٩ ، ٢٠٥ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨
التراث الاجتماعي ١٠ ، ٦٤ ، ٢١٩ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠
التغير الاجتماعي ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ٧٦ ، ١٠٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٦
التحلل الشخصي والاجتماعي ١٣
الظواهر الجمعية ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ٤٤ ، ٦٩ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٩٣ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٥٠
الضيق العاطفي ٦٨
الضغط الاجتماعي ٧٤ ، ٧٢
الغائية ٧٢ ، ١٣٣
الغوغاء ٥٣ ، ١٠٣ ، ١١٠ ،
الثورة الفرنسية ١٤ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٠ ، ١٣٢ ، ١٩٧
الثورة الصناعية ١١ ، ١٢ ، ١٤٤ ، ١٥٢ ، ١٥٦

محتويات الكتاب

الاهداء	٣ ـ ٨
تقديم	٩ ـ ١٦
الفصل الاول : تعريف بالمودة	١٧ ـ ٩٠
أ ـ نبذة تأريخية	١٩
ب ـ تعريف بالمودة	٣١
جـ ـ التقاليد الاجتماعية والمودة	٣٣
د ـ البدع المؤقتة والمودات	٣٨
هـ ـ الافتتان او الهوس الاجتماعي والمودات	٤٤
و ـ الازدهار والمودة	٦٢
ز ـ مقارنة موجزة بين هذه الضروب من السلوك الجمعي	٦٤
ح ـ المودة والطراز	٦٧
ط ـ المودة وآدات اللياقة والعرف الاجتماعي	٦٩
ك ـ ميادين المودة	٧٦
الفصل الثاني : نبذ موجز	٩١ ـ ١٢٦
أولاً : مفاهيم العقل الجمعي ، والتقليد والايحاء	٩٤
أ ـ العقل الجمعي	٩٤
ب ـ التقليد	١٠١

جـ ـ الايحاء ١٠٤
ثانياً ـ اللاعقلانية والعاطفية ١١٥
ثالثاً : نظرية التوتر ١١٨
الفصل الثالث : تغير المودة ١٢٧ـ١٨٢
أ ـ الحوافز والدوافع التى تدفع الى المودة ١٢٩
ب العوامل التى ساعدت على التسابق في المودة ١٥٠
جـ ـ وسائل نشر المودة ١٥٩
د ـ دورة المودة او دورية المودة ١٦٠
هـ ـ مسلك المودة ، او انتشارها وذيوعها ١٦٨
و ـ تغير المودة ١٦٩
الفصل الرابع : المودة والبنية الاجتماعية ١٨٣ ـ ٢٠٠
أ ـ المودة والنفوذ ١٨٥
ب ـ المودة والبنية الاجتماعية ١٨٧
الفصل الخامس : حركات المودة ٢٠١ ـ ٢٣١
أ ـ حركات المودة ٢٠٣
ب ـ آثار المودة ومهامها ٢١٠
جـ ـ المشكلات التى تتمخض عنها المودة ٢١٨
د ـ المودة والتراث الاجتماعي ٢٢٦
بعض المصادر والمراجع ٢٣٣ ـ ٢٣٤
معجم مصطلحات ٢٣٥ ـ ٢٣٩
فهرس الاعلام ٢٤٠ ـ ٢٤١
فهرس الموضوعات ٢٤٢ ـ ٢٤٤
محتويات الكتاب ٢٤٥ ـ ٢٤٦

ما نشر للمؤلف

١ ـ المدرسة الاقتصادية في علم الاجتماع ـ تعريب عن « سوروكن » ١٩٤٨

٢ ـ المدرسة الميكانيكية في علم الاجتماع ـ تعريب عن « سوروكن » ١٩٤٨

٣ ـ في علم اجتماع الثورة ـ ١٩٥٩

٤ ـ الطفلة التي لا تنمو ابداً ـ تعريب عن بيرل بك ١٩٦٠

٥ ـ علم الاجتماع ـ تعريب عن « هيوز » سنة ١٩٦١

٦ ـ مبادىء علم الاجتماع ـ بالأشتراك مع الدكتور محمد المشاط ـ الطبعة الاولى ١٦٩٣

٧ ـ مبادىء علم الاجتماع ـ بالأشتراك مع الدكتور محمد المشاط ـ الطبعة الثانية ١٩٦٧

٨ ـ نمو الفكر الاجتماعي ـ ١٩٦٤

٩ ـ الطبقية الاجتماعية و « كارل ماركس » ١٩٦٤

١٠ ـ دراسة حال زعامة ـ ١٩٦٥

١١ ـ الحركات الاجتماعية التي تدور حول منقذ منتظر ـ ١٩٦٦

يصدر قريباً

* الحركات الثورية

المؤلفات المعدة للنشر

* السلوك الجمعي
* الفكر الاجتماعي
* الحركات الدينية
* الحركات الاجتماعية
* الحركات القومية
* المجتمع

GIFT
from CENTRAL LIBRARY
UNIVERSITY OF BAGHDAD

* الطبقية الاجتماعية
* مذاهب علم النفس الاجتماعي
* التحلل الاجتماعي والشخصي
* الفكر الطوباني
* المدخل لعلم الاجتماع
* معجم إنكليزي - عربي في علم الاجتماع
* الفكر الماركسي
* علم الاجتماع الريفي
* علم الاجتماع الحضري والريفي
* حركة تحديد النسل
* تجربتي الشعرية ، تحليل ونقد
* ديوان شعر للمؤلف
* فرويد والتحليل النفسي ، استعراض ونقد
* التفاعليون الرمزيون
* الاحباط فالاعتداء
* علم النفس الاجتماعي
* مناهج البحث
* علم اجتماع الاجرام
* نظام الطوائف الاجتماعية
* سلوكية واطسن ، استعراض ونقد
* الجماهير
* الزعامة

رقم الأيداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٥١٢ لسنة ١٩٧١
٢٠٠٠ / ١٠ / ١٩٧١

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0051618192

LOOK FOR BARCODE

« Publication was assisted by the University of Baghdad »

FASHION MOVEMENTS

By

Dr . Hatim Al - Ka'bi

Professor of Sociology

University of Baghdad

The Modern Diwaniya Press - Diwaniya

First Edition

1971

600 F net

الثمن ٦٠٠ فلساً

LOOK FOR BARCODE

COLUMBIA UNIVERSITY
THE
LIBRARIES
IN THE CITY OF NEW YORK

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU68005350
GT525 .K33
Harakat al-mawdah /